

الاشارة والاختلاف

محاوَرات ومناظرات تصوّر ما يصطرح في الجوّ الأدبي والاجتماعي من آراء وأهواء، وأحلام وأوهام، وحقائق وأباطيل. وفيها نقدٌ وتشريحٌ لآراء طائفة من العلماء والأدباء : أمثال لطفى السيد وحلمى عيسى وطلعت حرب وتوفيق دوس وحافظ عفيفى ونورى السعيد ودى كومنين والمراعى والظواهرى والجبالى ومنصور فهمى وأحمد ضيف وطه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ومحمد مسعود والزيات وإبراهيم مصطفى ومحمود عزمى ومحمد صبرى وشوقى وحافظ والجارم وشكرى وأبو شادى والهرادى والبشرى والأسمر والمالحى والهياوى وعبد الله عفيفى وخليل مطران

الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٩ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلى جناب السيّد كومتين

صديقي العزيز

أعتقد أن سهراتنا في القاهرة ومصر الجديدة كان لها فضلٌ في رياضة قلمي على صياغة الأسمار والأحاديث ، فن حقاك عليّ أن أهدي هذا الكتاب إليك ، ليكون شاهداً على تأثير عامك وأدبك ، وليكون تذكيراً باقيةً للوداد الذي وصل بين قلبي وقلبك ، وهو جوهرٌ نفيسٌ لم يعرف مثله الناس منذ أجيال طوال .

ولو أنك كنت تفهم اللغة العربية لرجوتُ أن تجد في هذا الكتاب ملامح من الصور التي رسمها منطقتك العذب ونحن نطالع سفر الوجود في اللحظات التي جاد بها الزمان منذ سنة ١٩٢٨ إلى اليوم .

والله يحفظك ويرعاك للصديق الذي صاحبك اثني عشر عاماً فلم ير فيك غير شرف النفس ، وكرم الطبع ، وسمو^ة الروح ، وأريحية الفؤاد :

زكي مبارك

مؤلفات زكي مبارك

حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة)

البدائع (الطبعة الثانية في جزأين)

الأخلاق عند الغزالي

مدامع العشاق (الطبعة الثانية)

الموازنة بين الشعراء (الطبعة الثانية)

La Prose Arabe au Ive siècle de l'Hegire.

ديوان زكي مبارك

ذكرات باريس

تحقيق نسب كتاب الأم

شرح الرسالة العذراء - - ومعه بحث مفصل بالفرنسية موضوعه :

L'Art d'ecrire chez les Arabes au IIIe siècle de l'Hegire.

اللغة والدين والتقاليد

النثر الفني (في مجلدين كبيرين)

عبقرية الشريف الرضي (الطبعة الثانية في جزأين)

المدائح النبوية في الأدب العربي

التصوف الاسلامي (في مجلدين كبيرين)

وحى بغداد

ليلي المريضة في العراق (في ثلاثة أجزاء)

أيها القارىء (١)

هل تذكر ما يحدثك به مراض القلوب إذ يقولون
إني أئني على نفسي في فوائح مؤلفاتي ؟
أنت تذكر ذلك ، ولا ريب ، لأنهم يُميدون هذه
التَّهْمَةَ في كل وقتٍ بغير حساب .

فهل ترى من حقي أن أدفع هذه التهمة في فاتحة
كتابي هذا ، لعلمهم يذَّهون ؟ !

إن الخاسدين والحاقدين لم يتركوا طريقاً إلا سلكوه
لينفروك سني ، أيها القارىء ، ثم عادوا جميعاً خاسئين
مدحورين ، وتلك حاقبةُ البغي والعدوان .

لقد عابوا عليَّ أن أفتنَّ أشدَّ الفتون بما وصلتُ إليه
من الظفرِ بودادك ، أيها القارىء ، فهل كانوا ينتظرون
أن يغزوا قلبك بعدوى الحقد والضغن فأعيش في دنياي
بلا صديق ؟

(١) من عادة المؤلف أن يبدأ مقدمات كتبه بالبسطة والحمدلة ، وقد
خلف عادته هذه المرة : لأنه كتب مقدمة هذا الكتاب وهو غضبان .

إن ودادك : أيها القارىء ، هو الذي أرهف قلبي .
وصقل بياني ، وهو العزاء عما أعاني في دهري وزماني من
ظلم وعُقوق . وما تذكرتُ حبك : أيها القارىء ، إلا
غفرتُ ذنوب الدهر وصفحْتُ عن مكاييد الزمان .

والآن - وقد رُفِعَ بيدي وبينك الحجاب - أحب
أن تعرف أنني لم أسرق مودتك ولم أنهب ثقتك ، وإنما
غنمتُ من مودتك وثقتك ما غنمتُ بفضل الكفاح
الموصول ، وبفضل ما أنفقتُ من نور البصر تحت أضواء
المصاييح . في زمنٍ تؤخذ فيه بعض المراكز الأدبية
بخداع والتضليل ، وبيع الضمائر والقلوب .

إليك : أيها القارىء ، أنفض أحزاني وأشجاني ،
ولو شئت لدلتك على فيالق من المؤلفين في المشرق
والمغرب شكوا دهرهم كما شكوتُ ، وتوجعوا من زمانهم
كما توجعتُ ، وعانوا من غدر الأصدقاء والزملاء بعض
الذي أعاني .

فأنا لم أبتكر شكوى الزمان ، وإنما كنتُ أشقى

المُكْتَوِين بِغَدْرِ الزَّمَانِ .

أَنَا مَا سَرَقْتُ ثِقَّتَكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ ، حَتَّى يُنْفِقَ نَاسٌ
مِنْ أَعْمَارِهِمْ مَا يُنْفِقُونَ لِيَنْفَرُوكَ مِنِّي ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي
قَضَيْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً فِي خِدْمَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
خِدْمَةً صَحِيحَةً صَادِقَةً يَمْجِزُ عَنْهَا الرِّجَالُ « الْأَفْضَلُ » الَّذِينَ
يُحْسِنُونَ حَيَاكَةَ الْأَقَاوِيلِ وَالْأَرَاخِيفِ ، وَالَّذِينَ تَشْهَدُ
سِرَائِرَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَوْ كَلَّفُوا نَسِخَ مَوْلَفَاتِي وَمَقَالَاتِي وَقِصَائِدِي
لَانْقَضَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخُوا تِلْكَ الْأَلْوَحَ ، الْمَوْلُفَةَ مِنْ
الصفحات العامرة بالأفكار والمعاني .

المخلصون في زمانك قليل : أيها القارئ . وهم مع
ذلك لا يخدمونك إلا في ميدان أو ميدانين ، أما أنا فقد
خدمتك في كثير من الميادين :

نظرتُ فَرَأَيْتُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَتَشَوَّفُ إِلَى مَنْ يَحْدُدُ
مَقَاصِدَ النِّقْدِ الْأَدْبِيِّ ، فَالْفَتَى كِتَابَ « الْمَوَازِنَةُ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ »
وَقَدْ طُبِعَ مَرَّتَيْنِ . وَرَأَيْتُ لُغَةَ الْعَرَبِ تَنْتَظِرُ مَنْ يَحْقُقُ بَعْضَ
الْمَوْلَفَاتِ الْقَدِيمَةِ فَنَشَرْتَ كِتَابَ « زَهْرُ الْأَدَابِ »

وتداركتُ في الطبعة الثانية ما فاتني تحقيقه في الطبعة الأولى
بجاء صورةً من الأدب المخدمٍ مجدِّ وعنايةً ، ثم نشرتُ
« الرسالة العذراء » مصحوبةً بدراساتٍ وتحقيقاتٍ ، ثم
عاونتُ على إخراج كتاب « الكامل » في صورة تسرُّ
الناظرين . وتلك جهودٌ بذلناها لوجه الأدب ولم نر من
منافعيها الماديّة غير أطياف !

ورأيت القرن الرابع هو الفيصل بين عهدين من عهود
الإنشاء ، فألفت كتاب « النثر الفني » الذي يعدُّ بحق
خير كتاب في بابه منذ العصر العباسي إلى اليوم ، والذي
أرغم الحاسدين والحاقدين على الاعتراف بأن الرجل الذي
كوى قلوبهم وكبؤدهم لم يكن في حياته من العابثين .
ورأيت المجتمع المصري في حاجة إلى من يدلُّه على
هفواته الذوقية والأدبية والخلقية فألفتُ كتاب « البدائع »
الذي أقبل عليه القراء فطبع مرتين ، وألفتُ رسالة « اللغة
والدين والتقاليد » التي أجازتها لجنة المباراة الأدبية برئاسة
مدير الجامعة المصرية .

وراعني أن يجهل الناس بعض مصادر التشريع
الاسلامي فنشرت رسالةً في تحقيق نسب كتاب « الأم »
وهي رسالة عندها السنيور نالليانو من الآيات ، وسينتفع
بها رجال الأزهر الشريف .

وعزّ عليّ أن يقال إن شعراء أوربا قد تفرّدوا باجادة
القول في الوجدانيات فألفتُ كتاب « مدامع العشاق »
ليكون شاهداً على سبق العبقرية العربية إلى شرح مآسي
الأرواح والقلوب ، ومن قبله ألفتُ كتاب « حب ابن
أبي ربيعة » الذي صورّ ملاعب الأفتدة في أيام الحجيج .
وساعني أن يقال إن راسين هو أعظم من شرح
عاطفة الحب فألفتُ كتاب « ليلي المريضة في العراق »
لأقيم الدليل على أن في كتاب اللغة العربية من يتنوق
أظهر التفوق على راسين .

ونظرتُ فرأيت أن الجمهور شغفته الشواغل عن
الدراسات الفلسفية فألفتُ كتاب « الأخلاق عند الغزالي »
وكتاب « التصوف الاسلامي » وهما كتابان لن مجود بمنتهما

الزمان . ولو قامت إن كتاب « التصوف الاسلامي » هو خير
ما كان وما سيكون في التعبير عن العبقرية العربية
لكنت أصدق الصادقين .

ورأيت الأدب العربي يحتاج إلى من يُعرض محاسنه
على العقول الأوربية فألفتُ كتاب :

La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire

ورسالة :

L'Art d'écrire chez les Arabes au IIIe siècle de
l'Hégire

وقد كان لهذين الكتابين صدَى في البيئات الأوربية
والأمريكية عند من يهمهم الوقوف على ذخائر اللغة
العربية . ورأيت جمهور أهل الأدب يظنون أن إمارة
الشعر في السنين الخوالي لم يظفر بها غير أبي تمام
والبحتري وابن الرومي والمتنبي فألفتُ كتاب « عبقرية
الشريف الرضي » وهو كتابٌ رَضِيَ عنه قومٌ وسخط
عليه أقوام . ولكنه سيبقى من نُغرر المؤلفات الأدبية
ولو كره الحاسدون والحاقدون .

ورأيت الناس في الشرق يكادون يجهلون أسرار الحياة الأوربية فألفت كتاب « ذكريات باريس » وهو كتابٌ يشرح ما هنالك من صراع بين الرُّشد والنفي والهدى والضلال .

ورأيت الأمم العربية في شوق إلى من يحدد ما بينها من مختلف الصلات ومن يعبر عما في ضمائرنا من آلام وآمال ؛ فألفت كتاب « وحي بغداد »

أترك ما شغلتُ به نفسي من الدراسات الأدبية في الأعوام الماضية ؛ فالقراء يعرفون من ذلك أكثر مما أعرف ؛ وإن كان يخفى عليهم أن لي مؤلفات جيدة تصدقتُ بها على بعض الأديباء . وأنتقل إلى الحديث عن كتاب اليوم ؛ وهو كتاب « الأسمار والأحاديث » فأقول :

هذا الكتاب جديدٌ من جميع نواحيه ؛ ولن يحتاج إلى تزكية أحد من الأصدقاء ؛ فهو حركة فكرية متوثبة تُواجه القارئ في كل صفحة ؛ بل في كل سطر ؛ بل في

كل جملة ، إن لم أقل في كل حرف ، وهو مجال للتأمل
والتفكير والتندُّر والاعتراض والاحتجاج .

في هذا الكتاب صور غريبة لعقول المصريين ،
وعقول من عرفت من الفرنسيين ، وسيتشقى به ناس ،
ويسعد ناس : لأنه سجل طوائف من أوهام العصر الحاضر
أدقَّ تسجيل .

أنا أعرف أن موتي يوم يحين سيكون فرصة لقوم
كدرت صفوهم حياتي . ولكني مع ذلك راضٍ عما
صنعت حين تصدقتُ بخائدتُ أسماء لا تستحق الخلود
من أمثال السادة فلان وعلان وترتان ! وهل في التصديق
على الجاحدين من بأس ؟ أولئك قومٌ من الله عليهم
بالوجود ، وأمكنتهم من النعيم بالأنوار والظلمات ، وسمح
لهم باستنشاق الهواء : فليس من الكثير أن ادّعي أنهم
يقرأون ويفكرون ! !

في هذا الكتاب تنويهٌ بأشخاص يودون لو عميت
عيونهم ، وصمّت آذانهم : فلا يرون وجهي ولا يسمعون

أخباري ، ولكنهم سيعرفون أنني أكرم منهم وأشرف ،
لأنني سجلت أسماءهم في كتاب سينغلف من جلود أحفادهم
وأسباطهم بعد حين .

بقيت كلمة عن أسلوب هذا الكتاب :

وأنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أنني وصلتُ باللغة

العربية إلى ما كانت تطمح إليه من « البيان »

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أنني خلقت عذوبة

الأسلوب في اللغة العربية . وقد صار البيان عندي طبيعة

أصيلة لا يعترها تكلف ولا افتعال ، وما أذكر أنني عرفت

التسويد والتبييض فيما ألفت من الكتب أو نشرت من

المقالات بعد زمن التمرين الذي سبق سنة ١٩١٦

وما أعرف بالضبط ما هي خصائص أسلوبِي : لأنني

أصدر فيه عن السجية والطبع ، ولكنني أعرف بالتأكيد

أن الذي يقرأ مؤلفاتي ومقالاتي يشعر بأنه يرى الحياة

وجهاً لوجه ، ويشهد صراع الأحلام والأوهام ، والآراء

والأهواء ، والحقائق والأباطيل .

أيها القارئ

تلك صفحات من أعمال الأديبة ، فيها القديم والحديث ، فهل تراني تزيدتُ أو أسرفت ؟ وأنت مع ذلك تعرف أنني وقفتُ لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد : فزقتُ أوهام الخوارج على العروبة والاسلام شراً ممزقاً ، ودحرتُ من سولتُ لهم أنفسهم أن يتناولوا على ماضي الأمة العربية ، وكنت دليلك في التعرف إلى مآثر العرب في المشرقين والمغربين ، وعاديت من أجل الحق رجالاً يضرّون وينفعون ، ويقدمون ويؤخرون : فكان اعتصامي بحبل الحق هو أقوى ما تدرّعت به لاتقاء مكائد الناس ومكاره الزمان .

ولم أخدعك ، أيها القارئ ، فيما تعرضت لشرحه من الحقائق الأدبية والفلسفية : فلم أتَّهَبُ مساقط غضبك ولم أتأمس مواقع هواك ، وإنما صدقت كل الصدق فرآني فريقاً من الملحدين ، ورآني فريق من المؤمنين ، ونسبني قوم إلى المجان وعدّني قوم من الصوفية ، وما كنت من

أولئك ولا هؤلاء ، وإنما أنا سارٍ يبحث عن علم الهداية في
بيداء الوجود ، وما بيني وبين الله لا يعرفه عدو ولا
صديق ، وإنما علمه عند علام الغيوب الذي يعلم خائنة
الآعين وما تخفي الصدور ، وأنا أتقرب إليه بالصدق في
درس شرائع الهدى وذرائع الضلال .

أيها القارىء !

أتراني أحسنتُ الدفاع عن نفسي ؟
أتري أن الذين يضيعون أعمارهم في مناوشتي ومحاربي
لم يستطيعوا حرمانني من ودادك ؟ كم تأملت وتوجعت
من مكيدة من أعاصر من الرجال ، وكنت في أخرج
أوقات الضجر والغیظ لا أملك غير التعزي بهذه الكلمات :
« لي قراء أوفياء في أكثر الأقطار العربية والإسلامية ،
وهم عاونني على مصاولة الدهر ، ومكيدة الزمان »
أما بعد فأنت الصديق الحق ، أيها القارىء ، ولو
شدت لقلت إنك أعز علي من سائر أصدقائي وأصفيائي :

لأنك تفهم غني أكثر مما يفهمون ، وقد تفوقهم في رعاية
العهد وحفظ الجميل .

أيها القارئ !

لم يبق لي بعد الله غير وداذك وعطفك . ودنيا
الأدب بدون حبك سراب في سراب .

ولولا الثقة بك ، أيها القارئ ، لكسرت قلمي
ورجعت إلى صحبة الفأس والمحراث في سنتريس ، إن كان
سهر الميالي من أجلك أبقى لي من القوة ما أستطيع به
الرجوع إلى صحبة الفأس والمحراث .

ويرحم الله الشباب الذي بددته في صحبة الكتاب والدواة
والقلم والقرطاس !

محمد زكي عبد السلام مبارك

شهاد الفاقة والاعتراب

في ربيع سنة ١٩٢٧ كنت في باريس ، وكانت لي فيها بدوات وصبوات ، بعضها باسم وبعضها حزين . ولكن حدثاً واحداً لا يزال يعتادني كلما غفوت أو تطلعت إلى مامر من غفلات الشباب . وقد بقي هذا الحادث ترن أصداؤه في أجواء قلبي كما تبقى أصدااء العاصفة ترن في أسمع من شهد أهوالها في لجج البحر المحيط .

كنت حينذاك أبدأ عهدي بحياة السوربون ، وكنت قد ألفت في أيام قليلة حياة الشبان في الحي اللاتيني ، فأخذت أقضي ساعات النشاط الذهني في الدرس ، وأرصد لحظات الفراغ للعبث الجامح في حديقة لكسمبور . وكان أجمل ما يروعي في الحديقة بركتها البديعة التي يتجمع حولها الفتيان والفتيات لمشاهدة لعب الأسماك الحمر والبيض . . . والأسماك متحسنة الدعابة والغزل والمزاح إلى حد بعيد .

وليس ذلك قاصراً على أسماك باريس ، فهي كذلك
فيما رأيت منذ أعوام بحديقة الأسماك في الجزيرة الفيحاء .
كانت أسراب الشباب تتجمع حول تلك البركة^(١) الباريسية
لمشاهدة ألعاب الأسماك ، وكان المنظر يبعث في قلوب
المشاهدين أسباب الغزل والتشبيب ، وكان حظي من ذلك
ضئيلاً جداً ، ولكني كنت به من السعداء . وهل يشقى
إنسانٌ عامر القلب بحب الجمال ؟

وفي أصيل يوم من أيام الأحاد ذهبت أراحم
المتشوفين حول تلك الفسقية^(١) ، فأراعي إلا فتاة بارعة
الحسن ، بديعة التقاسيم ، ريتاً الجسم مكسال ، كأنها من
صبايا دمياط ، وقد زججت حاجبيها وشفقت شعرها على
الطريقة الغلامية *à la garçonne* وعلى سيماها شمائل
التمسويات أو الألمانية ، ولهذا النوع من الفتيات سحر
أخاذ ، ولا سيما حين يتكلمن الفرنسية ، فلمن حينذاك

(١) البركة هي اللفظة الصحيحة لما يسوونه في مصر « فسقية » والبحتري

قصيدة مشهورة في وصف البركة : بركة قصر المتوكل

لحنٌ هو أبرع وأظرف من الصواب . واللغة الفرنسية في أفواه من ينطق بها ماحوتة من حسان النمسا وألمانيا تبدو ظريفة جداً ، وكأنها بُغمام الطباء حين يمضغن الأراك .

ألقيت عيني وقلبي على تلك الفتاة ، ثم نظرت فاذا بجانبها فتى أسمر اللون حسبته من أمريكا الجنوبية ، وقد فهمت أنه لها صديق حميم . فتماسكتُ واعتزمتُ الاكتفاء بالنظر المباح . وصرت أتمحول في رفق حيث يتحول الرفيقان ، وكنت أقدر أنني أتبعهما من حيث لا يشعران . ولكن الفتاة كانت قديمة العهد بنضال العيون ، وتكاد تدرك وساوس النفوس وخطرات القلوب . ويظهر أنه سرَّها أن تُسرَّ إلى رفيقها أن هناك « مسيو » يرمقها بعينيه ويميل حيث تميل

وما هي إلا لحظات حتى التفت إليّ ذلك الفتى الأسمر

وقال بلغة عربية :

- حضرتك مصري؟

— نعم ، ياسيد ، أنا مصري . وأنت ؟

— أنا أيضاً مصري من الصعيد

— من أي بلد ؟

— من أسيوط

— من أسيوط ؟ أهلاً وسهلاً ، بلد الأهل والحبائب

— تعرف أسيوط حضرتك ؟

— ومن الذي مجهل أسيوط ؟ إنه ليكفي أن تسمع بعض

الباعة في القاهرة يصيحون :

« قصب أسيوط ياسكّر »

— ولكنك تقول « بلد الأهل والحبائب » فهل

لك فيها أهل وأحباب ؟

— كان لي فيها أهل وأحباب ثم تناسوني ، وكأنما

عناهم الشاعر حين قال :

يا أهل أسيوط لا زلتم بعافية

وإن تمرّد في وجدي بكم دائي

أسماءتوني لدهري بعد ما بليت

من قسوة الصد والتبريح أحشائي

فلو أتت ظبية « الحمراء » غازية

قلبي لما وجدته غير أشلاء

يا ويح نفسي أتنسوني وأذكركم

مقرح الجفن في صبح وإمساء

— وما اسمك يا بلدينا ؟

— أنا ؟ اسمي زكي . وحضرتك ؟

— اسمي محمود

— تشرفنا ، ياسي محمود ! ولكن حدثني ما تلك الفتاة

بيمينك ؟

— هذه صديقة ألمانية

— شيء جميل . ألا ترى ياسي محمود أنها حلوة العينين ؟

— الله يسترك ، ياسي زكي ، كثر خيرك ، دا من لطفك

— هل عرفتها من زمن بعيد ؟

— نعم ، ولكن حذار أن تظن أنها خليقة ، أو

من الساقطات . إنها فتاة متينة الأخلاق ، وقد أرسلتها
الحكومة الألمانية لإتمام دراسة الفنون في باريس . وقد
تفضلت بمصادقتي في شرف و نزاهة بدون أن يصل بيننا
الشیطان . ونحن نقضي أكثر الوقت معاً في الاطلاع على
روائع الفن الفرنسي . يا سلام يا سي زكي لو رأيتها وهي
ترسم ! إن عيني لم ترأصنع منها يداً ولا أخفَّ بناثاً ، وإن
ريشتها على اللوحة لتمرُّ مر النسيم على وجوه الملاح !

وما كاد الحديث يصل إلى هذا الحد حتى رأيتني
صرت ثالث الرفيقين ، واقترحت الفتاة أن نذهب إلى
أحد مقاعد الحديقة لترسمي ، ففرحت ، وجلست في
خشوع وهي تنظر إلي تارة وإلى مصورها تارة أخرى .
وبعد لحظة أعطتني صورتي فرأيتها دون ما أحب ،
وكنت أنتظر أن أظهر في رسمها شاباً جميلاً ، فتماملت
وقلت : لعسل البرنيطة هي السبب في رداءة الصورة !
فتفضلي يا آنسة وارسميني مرة أخرى طاري الرأس !

ثم مرت أيام ونحن نتلاقى صباح مساء ، حتى

كدت أشغل عن الدروس ، مع أنه لم يكن لي من تلك
الفتاة نصيبٌ غير النظر إلى جسمها الريان
وفي أحد الأمسية تقدم إليَّ محمود وهو يقول في
صوت خافت :

« هل تستطيع أن تقرضني مئة فرنك إلى أن
يجيء بريد أسيوط ؟ »

فقلت : لك ذلك . وأعطيته ماسأل ، ثم اقترحتُ
أن يكون هو ورفيقته في ضيقتي إلى أن يجيء بريد
أسيوط . وكذلك ظلمت أَدعوها للغداء والعشاء إلى
أن نفد مالي أو كاد ، وأنا أنتظر أن يجيء بريد
أسيوط لأستردَّ بعض ما أنفقت على ذينك الرفيقين ،
وزاد في همي وبلائي أن نفسي تعلقت بتلك الفتاة ،
وصرت لا أقدر على الفرار من أسر وجهها الجميل
ثم تكشفت لي الحقيقة فجأة فعرفتُ أن الفتى
مَدِينٌ للفتاة بمبلغ عظيم من المال وهو يعلمها بما سيحمل
بريد أسيوط من قيمات الصكوك ، ولم يكن ذلك الدين

إلا أكلات طعمها الفتى على حساب الفتاة ، ووعوداً
أخرى صارت في حكم الدين لأن الفتى كان قد انتهب
منها بعض ما يوحي به الغرام . . . واشتدت حاجة الفتى
في الاقتراض وكان يشجعه على لجأته ما عرف من حي
لأهل أسيوط ورغبتى العاتية في أن أقضي ليلة أو ليلتين
في حيّ الحمراء

وما زلتُ أواسيه حتى أصبحتُ أفقر منه ، وحتى
وقعتُ لي معه نوادر يبتسم لها المحزون : من ذلك أني
لقيته مرة في حديقة لكسمبور جالساً كاسف البال ،
فقدّرت أنه يعاني ما أعاني من قسوة الجوع ، فقلت :
انتظرنى هنا يا محمود حتى آتي بغداء ، وذهبتُ إلى أحد
المخازن فاشتريت رغيفاً وعدت فقسمته بيني وبينه ، فأخذ
نصيبه وقال :

« طيب ، والله العظيم ، دي أول مرة آكل فيها حاف »
فضحكتُ وقلت :

« كلُّ وأنت ساكت ، بلاش أو نطه ، فهذه فيما
أعتقد المرة الأولى بعد الألف التي تأكل فيها حاف ! »
فتخاذل ورضي بقسمته والتهم نصف الرغيف في أقل
من لمحة العين !

ثم حالت الفاقة بيننا وبين دعوة الفتاة إلى غداء أو
عشاء ، وذلك كان أقسى ما مرَّ بنا في تلك الأيام ، وأشرت
إلى محمود أن يواجه بعض مواطنيه بحالته عليه يقرضه شيئاً
ينقذه من أزمته إلى أن يجيء بريد أسيوط . وحرصت
على ما بقي من دراهمي حرصاً شديداً فكنت لأعطيته في
كل يوم إلا ما يحصل به على الخبز القفار . وعلمت الفتاة
أنني التصير الأوحده لرفيقها المأزوم : فأخذت تنودد إليّ
عني أتحوّل إلى رفيق جديد . وكانت ساعات عصيبة
اصطرعَ فيها الهوى والشرف صراعاً دامياً عنيفاً . ثم
قررتُ أن أغلق في وجهها بابي حتى لا يمرَّ بيالها أن
المصري يغدر برفيقه حين يراه صريع العجز والضييق . . .
فأما شككتُ حالها وعددتُ مالها من الدين في عنق

(محمود) صارحتُها بالحقيقة وأنه في مقدوري أن أنفحها
كل يوم بما تحصل به على أكلة واحدة ، كما اكتفيت
أنا بأكلة واحدة ، إلى أن يأتي الله بفرج من عنده ،
وهو خير الراحمين .

في تلك الأثناء كان محمود يرسل إلى أبيه كل يوم
خطاباً خالياً من طوابع البريد ، وكان يظن أن الخطاب
يصل على أي حال ، وأن أباه سيطوق بالغرامة ، وكان
يذهب كل يوم ثلاث مرات إلى البعثة المصرية عله
يجد بارقة من بريد أسيوط . وكان لا يلقى مصرياً في
إدارة البعثة إلا شكاً إليه حاله وحدثه عن رسائله اليومية
التي لا يجيء عنها جواب . وهو في كل ذلك يستعطف
ولا عاطف ويستغيث ولا مغيث .

وكانت الفاقة تلح من ناحية ، والفتاة تلح من ناحية
أخرى ، وأنا بينهما موزع القاب أعطيها رغيفاً وأعطيه لقمة
وأحرم نفسي إلى أن نويتُ الصيام في غير رمضان !

وفي صباح يوم ذهب محمود إلى إدارة البعثة يتامس
بريد أسيوط فسأل وألح فقال له الكاتب :

« هل أنت محمود . ف ؟ »

فتهايل وجه الفتى فرحاً وقال :

نعم ! أنا محمود . ف

فقال الكاتب :

« اليك عشرين رسالة ردتها الينا إدارة البريد لأنها

خالية من الطوابع »

فأجهش الفتى بالبكاء وقال : تُرَدُّ اليكم رسائلي ولا

تخبروني مع أنني أموت جوعاً منذ أسابيع ؟ ممن أقترض ؟

وإلى من أتوجه ؟ وماذا آكل ؟ وكيف أعيش ؟ لقد بعث

ملابسي كلها ولم يبق على جسمي غير هذه الثياب التي

لا تباع ، وطردي صاحب الفندق من غرفتي وعدت شريداً

طريداً أهيم على وجهي في شوارع باريس . أدخلني من

فضلك على مدير البعثة أشكو اليه حالي

وعندئذ تأثر الكاتب ودخل علي مدير البعثة

وأخبره الخبر ، فرفض مدير البعثة أن يستقبله ، فعاد
فألح ، وعاد مدير البعثة فرفض ، فأخذ الفتى يصرخ
صراخ المسعور المجنون ، فذق المدير الجرس فدخل
عليه حاجبه فقال له :

« أطرّدوا هذا الشريد وأرمحونا من عوائه الثقيل » !!
وعاد محمود يبحث عني ثانياً ويقصّ عليّ ما وقع
له في دار البعثة المصرية ، وكنت قد أفلست إفلاساً
تاماً ولم يبق عندي ما أواسيه به ، فقلت له :
يارفريقي ! ليس مدير البعثة هو الممثل الوحيد
للحكومة المصرية : فهناك القنصل وهناك السفير ،
وتستطيع أن تذهب فتستنجد أحد هذين الرجلين
فابتسم ابتسامة الجزع وقال :

هل تحسب أنني لم أفكر فيما فكرت فيه ؟ لقد
ذهبت ولكني لم أجد أحداً ، لأنه لم يسمح واحد
منهم باستقبالي

فقلت : عد إليهم مرة ثانية

فقال : وإذا لم أفليح ؟

قلت : إرجع إليّ فإنّ تموت جوعاً وأنا موجود

فقال : انتظرنى إذن في قهوة لاسورس في الساعة

التاسعة مساءً لأخبرك عما يتم

فقلت : لم يبق في جيبي ما أجلس به على قهوة ، وأنا

منتظرك إن شئت في جنينة نوتردام

وقبيل الساعة التاسعة ذهبت أتربق الموعد ، ولكن

روّعي وهدّ من عزمي أن رأيت نهر السين مطوّقاً بالناس

عند قنطرة سانت جنييفيف ، إذ خطر ببالي أن الغريق في

هذه الساعة لن يكون إنساناً آخر غير محمود ، فقد سمعته

غير مرة يتحدث عن فضل السين في ابتلاع البؤساء

ثم اقتربت من الجمهور ، وأخذت أسأل عن الغريق :

من هو ؟ ومن عسى أن يكون ؟

وكانت الصدمة شديدة حين حدثوني أن الغريق شابٌ

أسمر اللون شهده منذ ساعة وهو يغالب الأمواج

ووقفت مأخوذاً مهول ما صدّمتُ به ، وقررت أن

أذهب فأبلغ أحد المراجع المصرية في باريس . ولكنني
عدت فقلت : ما الذي مهم ممثلي مصر من خبر شاب
مات وقد خذلوه وهو يطلب كسرة من الخبز القفار !
وانتظرتُ انتشار الجثة ، ولكن لم يجدها المنتشرون
في ذلك المكان . وكنت قد وقعت صريع الضجرجر
والإعياء . فعدت إلى منزلي في ضعف شديد . وأخذت
أهني القلم والقرطاس لأصف تلك الفاجعة . وبعد
لحظة طرقت الباب طارق فقلت :

— من بالباب ؟

— أنا محمود !

أنت محمود ؟ الله يلعنك ! لو أنك كنت حقاً
غريق السين في هذا المساء لكنت جيعتك من أجمال
ما يُكتب لقراء (البلاغ)

عمدة ليون

حدثت القراء عن اللحظات التي قضيتها مع المسيو هريو في مؤتمر المليون لايبك^(١) وأضيف إلى ذلك أن الجاذبية التي تفيض بها أسارير هذا الرجل المنطيق حملتني على تعقب أخباره في أذهان الفرنسيين . وكان ممن سألتهم عنه المسيو فيفيان Vivien ، وهو وراق مثقف مجي^٣ السوربون

الكاتب - كيف صار المسيو هريو ، ياسيد فيفيان ؟

فيفيان - عاد ، كما كان ، عمدة ليون !

الكاتب - هذا جواب الشامت ، أيها الصديق

فيفيان - وكيف تنتظر مني ثناءً على هريو ، وأنا

أفضل عليه دالدييه ؟

(١) إشارة إلى مقال صور به الكاتب ما وقع في مؤتمر المليون لايبك الذي

عقد في باريس في يولييه سنة ١٩٣٣ وكان الكاتب حضره ممثلاً لأمانة اللغة

العربية بالديسيه فرانسيه

الكاتب - وما وجه التفضيل ؟

فيفيان - إن دالادييه وزير يتكلم حين يجب الكلام .

ويسكت حين يحسن السكوت

الكاتب - و هريو ؟

فيفيان - هريو رجل ثرثار ، يتكلم كثيراً ، ولا

يسكت أبداً

الكاتب - إنك لسرف

فيفيان - أنا أقول الحق بلا تزيد ولا إسراف ، إن

هريو كان أستاذاً للأدب الفرنسي بكلية الآداب في ليون ،

ويجب أن تعرف أن رجال الأدب لا يحسنون غير تنميق

الحديث !

الكاتب - تأدبُ يامسيو فيفيان ، فأنت بمحضرة

أديب عظيم طبقَ صيته الشرق والغرب !

فيفيان - ألم أقل لك إن رجال الأدب لا يحسنون

غير تنميق الحديث ؟ !

الكاتب - ولكن ما هي ، بالتحديد ، المؤاخذة

التي تصوّبها إلى وزارة هريو ؟

فيفيان — هي الاسراف في الأمانى والوعود . لقد كان الرجل ينثر الآمال على صدور الناس ، ثم يعجز عن تحقيق ما يقول . وليتك تذكر ما وعدنا ومنانا وهو ذاهب إلى أمريكا ، ثم لم يفعل شيئاً ، على حين نرى الوزير دالادييه يتحفظ كل التحفظ في القول ولا تقرأ له تصريحاً سياسياً إلا رأيت له أثراً إيجابياً ، وهذا ما يجب أن يتخلق به الوزراء .

الكاتب — لا يرضيني هذا التعامل على هريو ، وهو بالإجماع من أجمل صور الذكاء الفرنسي .

فيفيان — هريو من أذكى الناس كأستاذ ، لا كوزير

الكاتب — وما الفرق بين صور الذكاء في شخصية

الوزير وشخصية الأستاذ ؟

فيفيان — إن الذكاء في الأساتذة من ضروب البراعة

واللوزعية ، ولكنه في الوزراء خبرة وتجارب وأعمال . . .

إن ماضي هريو كأستاذ يؤكد لنا أنه لا يصلح للأعمال

الإدارية . وما ظنك برجل قضى شبابه بين عنف العواطف
وطغيان الأحاسيس ؟ لقد كانت دروسه في جامعة ليون
مثالاً للزق والطيش ، فقد كانت ملتقى لحسان ليون ،
وكان باعراقه في تحليل حياة مدام ريكاميه يجذب إليه
وإلى درسه خرائد ذلك الوادي الظليل ، وكان الشبان
يرشقون النوافذ مكيدةً للأستاذ المتصابي الذي يحدث
النواهد عن حياة المرح في أندية باريس

الكاتب — وما خطر ذلك الماضي الطروب في حياة

كهل يتولى الوزارة ؟

فيفيان — إن خطر ذلك الماضي عظيم جداً ، فقد
يكفي أن تُقدّم إليه شفاعة من فتاة حلوة العينين
ليصور الباطل عنده بصورة الحق ، وتبدّل الأرض غير
الأرض والسّموات !

الكاتب — وهذا أيضاً إسراف !

فيفيان — إنك تغيظني بهذه الكلمة ، أنا أعرف

هريو جيداً

الكاتب - وأنا أيضاً أعرفه

فيفيان - منذ متى؟

الكاتب - سمعته يخطب في حفلة توزيع الجوائز
بالسوربون سنة ١٩٢٧ وأقسم ما رأيت أندى منه صوتاً ،
ولا أملح نادراً ، ولا أعذب بياناً

فيفيان - نعم ، يا سيدي الأديب ، عدنا لتنميق

الأحاديث !

الكاتب - اسمع ، يا فيفيان ، لقد كان الرجل يومئذ
وزيراً للمعارف ، وكان يبدو لي شاباً غض الإهاب ، فياليت
شعري كيف يتغير الرجل في نحو سبع سنين فيعلن في
المؤتمر أنه ودّع الشباب !

فيفيان - سبع سنين حملٌ ثقيل

الكاتب - وتغيّر الرجل إلى هذا الحد؟

فيفيان - أسأل نفسك ، ألم تتغير في سبع سنين؟

الكاتب - قليلاً جداً !

فيفيان - أنت تخادع نفسك

الكاتب - وأنتم تضللون أنفسكم يا أعداء الأدب

والفكر والخيال

فيفيان - ما كنت أحسبك تغضب من مثل هذا

الحديث

الكاتب - أنا لا أغضب لنفسي ، فإن الرجل لا يغضب

لشخصه إلا حين يهان ، ولن يستطيع ألف من أمثالك

أن ينالني بضميم أو هوان . ولكنني أغضب لهذا الضلال

الذي أرى صورته متشابهة في فرنسا وفي مصر . فقد حدث

قبل اليوم أن استقدمت الجامعة المصرية المسيو لوبرتون

لتدريس الأدب الفرنسي بكلية الآداب ، فأخذ الرجل يدرس

مؤلفات ألفريد دي ميسيه ، واتفق له في القاهرة ما اتفق

للمسيو هريو في ليون ، فكانت محاضرات لوبرتون في

الجمعية الجغرافية ملتقى لعرائس النيل ، وسمع بذلك رجل

متحذلق من أذعياء الأدب والوقار فحضر بعض المحاضرات

ثم خرج يدمدم بهذه الكلمات « كنت أحسب هذا الرجل

جاداً ، ولكنني رأيته من الهازلين »

وكانت نتيجة هذا التجمل المبرقع أن عدلت الجامعة
المصرية عن تجديد عقد المسيو لوبرتون ، وحرّم الطلبة من
أستاذ عظيم كان يحتمل كرسي فيكتور هيجو في السوربون
فيفيان - أنا لا أقول بإقصاء الأدباء عن مناصب
التدريس ، ولكني أرى أنهم لا يصلحون للمناصب
الوزارية التي تعتمد على ضوء الخبرة ولا ينفع فيها بريق
الخيال .

الكاتب - وهذا أيضاً ضلال . . إن خصوم الأدباء
يصبغون خصومتهم بصبغة المنطق والعقل ، وهذا لؤم في
الخصومة يتورع عنه نبلاء الرجال . أفتظن الأعمال الادارية ،
والمناصب الوزارية ، لا تصلح إلا برعاية الغفلة المفحمين
الذين يعيهم إنشاء مقال ؟

إن أولئك الضمّ المشاعر والقلوب يذيعون في الناس أن
الأدب يفسد موازين العقول ، وقد أفلحوا في إذاعة هذه
الأراجيف حتى أصبح الأديب يشعر في وطنه بوحشة
الاغتراب ، وصارت الأمور إلى طوائف من أدعياء الحكمة

والسداد لا يقدمون ولا يؤخرون ، وقد تمضي الأجيال
والدنيا تحت أذهانهم الكليالة لا تفتح عن جديد ولا
طريف . . . ولت حملات المزمتمين وقفت عند غمز أهل
الأدب حين يتطلعون إلى المناصب الوزارية ، فقد انتقلت
إلى ميدان الأدب نفسه : في الصحافة والتدريس ، وإني لأذكر
أن كلية الآداب بالجامعة المصرية أعلنت عن بعض المناصب
فتقدم إليها فريق من الأدباء ، وخطر لأحدهم أن يزكّي
نفسه تزكية أدبية فأرسل إلى مجلس الكلية مجموعة من
شعره ، فابتسم الأساتذة وهزوا رؤوسهم على الطريقة
العربية ، وهز أحدهم كتفيه على الطريقة الفرنسية ، ثم
قرروا بالاجماع رفض الطلب المصحوب بتزكية شعرية . . .
ولو أن ذلك الأديب شفع طلبه بكتاب مطبوع أو مخطوط
بين فيه أن (مِزان) أصلها (موزان) وأن الألف في ساج
وعاج مجهولة الأصل لرحبوا به وعدّوه خليفة سيبويه
والخليل !

فيضان - هذا الكلام يقنعني بأنكم أهل شغب وجدال !

الكاتب - أهذا كل ما تفهمون من الأدب وأعمال

الأدباء ؟

فيفيان - وهل للأدباء أعمال ؟

الكاتب - إن الأدباء هم أصحاب الفضل في جميع

الأعمال ، وبهم يزدان هذا الوجود

فيفيان - أسمح أن أستعير تعبيرك فأقول : هذا

إسراف ؟ !

الكاتب - وأين الإسراف يا مسيو فيفيان ؟ أتستطيع

أن تتصور دنياك هذه خالية من أعمال الأدباء ؟ أتستطيع

أن تمحو من الدنيا أثر الدراسات الأدبية والفلسفية والفنية

والاجتماعية والتاريخية والتشريعية التي يضطلع باعبائها فحول

الأدب من الواقفين على أسرار النفوس والقلوب والعقول ؟ .

والصحافة يا مسيو فيفيان ؟ أتستطيع أن تنكر أن الصحافة

في العالم مدينة لرجال الأدب ؟ وهل تستطيع اليوم أن

تستغني عن هذه القوة الخطيرة التي ترفع وتضع ، وتحيي

وتميت ؟ إن أدباء اليوم هم المسيطرون . والوزراء الذين تتغنى

بصمتهم الرزين لا يمشون إلا بوحى من ثرثرة أهل الأدب ،
ولو وجدت تعبيراً غير الثرثرة لقدمته اليك ، ولكن شاء
الله أن تتحكم ، وأن نعلن سيادتنا عليكم ، ولو بأسوأ الفروض
فيفيان - تحكموا ، إن استطعتم إلى ذلك سبيلاً !
الكاتب - وكيف لا نستطيع ؟ هل زرت لونا ببارك ،
يا مسيو فيفيان ؟

فيفيان - زرته مرات

الكاتب - وهل رأيت الجيبون ؟

فيفيان - رأيت

الكاتب - ورأيت كيف يلعب على الطريقة الانسانية ؟

فيفيان - الآن فهمت ، ياسيد مبارك ، أنك رجل

خبيث !

الكاتب - انتظر ، يا حبيبي ، إن الله مع الصابرين ، إن

أدعياء التجميل والوقار من أعداء الأدب والفكر والخيال

يعملون ما يعمل الجيبون ، يقفون أولاً موقف الحيرة

والذهول أمام أعمال الأدباء ، ثم يمشون فيطبّقونها حرفاً

بحرف ، وعند انتهاء « اللعبة » يصفقون ويشعروا بالجمهور
بأنهم من أهل الابداع ، لا من أهل التقليد !
فيفيان — أتم إذن مروّضون ؟

الكاتب — ليكن ذلك ، فالفرق ليس ببعيد بين القرد
والانسان ، وهما أبناء عمّ وخال ، فيما يقول أصحاب نظرية
التطور من العارفين بأسرار الحيوان

فيفيان — أخشى أن ننتهي إلى شر ، إذا مضينا في هذا

الحوار العنيف

الكاتب — لن يكون إلا الخير ، وإن إقناع رجل

مثلك لغنمٍ عظيم

فيفيان — أتحسبني اقتنعت ؟

الكاتب — تصور أنك اقتنعت !

فيفيان — لقد أضجرتني ، يا سيد مبارك

الكاتب — وذلك بعض ما أريد ، يا سيد فيفيان .

فيفيان — أتم إذن محنة لهذا العالم ؟

الكاتب — وهل تقبلتم هذه المحنة ؟

فيفيان — لم تتقبلها ، وإنما احتملناها كارهين
الكاتب — عرفت الآن أننا نتحكم ، وأن لنا السيادة
عليكم ، يا أصحاب الجذ الرزين !
فيفيان — كفى ، ياسيد مبارك ، فقد حان وقت الغداء ،
وتستطيع أن تذهب فتكلم محاضرتك في حديقة لكسمبور ،
فهناك بنات ملاح ...

الكاتب — بنات في عينك ! أمالكم شغل إلا تعقب
أخبار الأدباء؟

فيفيان — أذكرني بخير عند صاحبك هريو ، أرجوك
الكاتب — وأنت . أذكرني بشرّ عند خصوم ذلك
الوزير الأديب

١١ أغسطس سنة ١٩٣٣

أصدقاء الجامعة المصرية

عامت أن جماعة من أهل الغيرة على العلم والأدب
شرعوا في تأليف جمعية أدبية باسم « أصدقاء الجامعة
المصرية » على نمط جمعية « أصدقاء السوربون » في
باريس ، فبدأ لي أن أقدم إليهم هذه الملاحظات

أولاً - الجامعة المصرية مجهولة أو كالمجهولة بين
أمم الشرق ، ولا أعرف أن كلية من كليات الجامعة
المصرية اهتمت بإرسال بيان عن مناهجها في البحث
والدرس إلى المعاهد والصحف في الأقطار الشرقية ، مع
أنني أعرف أن من شبان تونس والجزائر ومراكش واليمن
والعراق والشام والحجاز من يود أن يتم دراسته في الجامعة
المصرية ، ولكنه لا يجد من يرشده أو يشجعه على ورود
جامعة القاهرة . هذا مع أن كليات الجامعة تطبع تقارير
سنوية ، ثم تحفظ تلك التقارير في غاية من الصيانة بعيدة

عن الأَرْضنة والعنكبوت إلى أن يطلبها أحد المدرسين !!
ولو أن كليات الجامعة فكرت في الاتصال بالصحافة
والأندية والمعاهد في الأقطار الشرقية لكان عندنا اليوم
جاليات مهذبة من طلاب العلم والآداب والطب والقانون ،
ولهذا أهمية عظيمة في نشر الثقافة المصرية وتعويد أهل
الشرق على إعزاز وادي النيل .

ثانياً - سمعت أن أربعة من شباب ألبانيا سيحضرون
هذا العام للانتساب إلى كلية الآداب ، أفلا يكون من
الخير أن يفكر « أصدقاء الجامعة المصرية » في الترحيب
بهؤلاء الطلاب ومساعدتهم على الإقامة الطيبة في هذه
المدينة ؟ إن الشباب الوافدين على مصر لطلب العلم
يسكنون أول الأمر في الفنادق والبنسيونات ، وهذا
يعرضهم للتعرف إلى بيئات غير مصرية ، وروضهم على
عيشة محوطة بأسباب النزق والطيش ، ويعرضهم أحياناً
إلى الاقتناع بأن القاهرة مدينة ينقصها نبل الأخلاق
ولو أن طالباً أجنبياً ذهب إلى كلية من كليات

الجامعة المصرية يسأل عن مسكن لقبول بالدهشة والاستغراب ، لأن أساتذة الجامعة المصرية ومدرسيها لا يميزون عن سائر الموظفين بشيء ، والموظف المصري في الأغلب لا يعنيه غير عمله المحدود ، ولا يفهم كيف يتطوع بقضاء ساعة أو ساعتين في إرشاد طالب غريب . وأكد أجزم بأن أساتذة الجامعة المصرية لا يعرفون الطلبة الأجانب إلا في قاعة الدرس ، وقد تمرّ الأعياد فلا يفكر أحد منهم ، حتى العمداء ، في دعوة كريمة إلى الطلبة الغرباء .

ثالثاً - أكثر الطلبة الأجانب يُحرّمون من الانتساب الصحيح إلى كليات الجامعة ، لأن البكالوريا المصرية هي أساس الانتساب ، وقد ينذر أن تعترف الحكومة المصرية بالبكالوريا الأجنبية ، أفلا يكون من الواجب أن ينظم « أصدقاء الجامعة المصرية » دراسات يستطيع بها الطلبة الوافدون على مصر أن يؤدوا امتحان المعادلة إذا طُلب منهم ؟ إن أصدقاء الجامعات في الأقطار

الأوربية والأمريكية ينظمون أمثال هذه الدراسات
ويمكنون الطلبة الأجانب من التقدم لامتحان القبول في
الجامعات .

أنكون نحن أغنى عن التودد إلى الناس من فرنسا
وإنجلترا وألمانيا ؟ إن الطالب الأجنبي حين ينزل لندن أو
برلين أو باريس يجد من أصدقاء الجامعات هناك من
يرشده كيف يستعدّ لامتحان القبول ، ومن يهديه إلى
الأندية الأدبية والعلمية ، ومن يعلمه كيف يعيش وإن
قلّ ما يحمل من المال .

أما نحن فنستعين بكل هذه الحقائق ، ونُدع الطلبة
الأجانب للمصادفات بحيث لا ندينهم بظل من ظلال
المعروف . ومع ذلك لا يزال ناس يحسنون الظن فيأتون
من بعيد للالتحاق بالأزهر ودار العلوم وكلية الآداب . . .
فيا أصدقاء الجامعة المصرية ، اعرفوا واجبكم ، واحذروا
أن تبددوا بتغافلكم ذلك الظن الجميل .

أصدقاء الجامعة المصرية

عند المدير السابق^(١)

تحرير

في باريس جمعية كبيرة تسمى « أصدقاء السوربون » أشار إليها أحد محرري البلاغ منذ يومين ، وهي جمعية عظيمة تُخلص للعلم كل الاخلاص ، ولها مآثر عديدة أظهرها الدراسات المنظمة التي تقيمها في فصل الصيف والخريف باسم « الحضارة الفرنسية » ، وهي دراسات تشمل جميع فروع الثقافة العقلية من أدب وفن وفلسفة وتاريخ ، دراسات جدية يؤديها أقطاب جامعة باريس ، ويُجْزَوْنَ عليها بمكافآت مالية تقدمها إليهم تلك الجمعية ، والطلبة الذين يواظبون على تلك الدروس يؤدون امتحانات وينالون ألقاباً تشهد بتفوقهم فيما درسوا من الآداب والفنون وقد رأيت أن أكون من السابقين إلى التفكير

(١) كان لطفى باشا السيد استقال لأزمة جامعية نشأت عن نقل الدكتور

طه حسين عميد كلية الآداب يومئذ إلى وزارة المعارف بقرار من حامي باشا عيسى

في إنشاء جمعية من هذا الطراز باسم « أصدقاء الجامعة
المصرية » فوصلت بعد الجهد إلى اختطاط الأساس ، والله
بالتوفيق كفيل

رأى الدكتور طه حسين

وكان أول من فكرت في الاستفادة من معاونته
الأستاذ الدكتور طه حسين ، لأن التقاليد تفرض ذلك ،
إذ كان من أقدم طلبة الجامعة المصرية ، وكان فيما أذكر
أول أستاذ من بين الطلبة القدماء . وأصدقاء الجامعات
يُختارون عادةً من بين قدماء الطلبة ، وهم يسمون في
الأغلب عادة بهذا الاسم الشريف .

عرضت المشروع على الدكتور طه فابتسم ابتسامة
الاستخفاف وقال : « ماذا تريد يا زكي ؟ أم حسبنا نستطيع
أن نعمل عملاً جدياً في هذه الأيام ؟ إن السياسة شغلت
الناس عن كل شيء ، فانتظر حتى تنكشف هذه الغمة ،
ثم عدُّ إليّ واقترح ما تشاء . أما الآن فأنا من المتشائمين ، ومع
ذلك فما الذي يُغريني بمطاولتك ، لقد أرادت الأمة أن

تنشئ الجامعة بصفة جدية فلم تفلح ، وأرادت الحكومة
أن تنشئ الجامعة بصفة جدية فلم تفلح ، وأردنا نحن أن
نعمل بصفة جدية فلم نفلح ، فإذا تريد اليوم ؟ وما الذي
جداً حتى نعود إلى الشؤون الجامعية من جديد ؟ ؟ «
ولكنني استطعتُ بعد إلماح أن أقنعه بأنها محاولة
قد تنفع ، فقبِل ، وعاد من التفاتين . .

رأى الدكتور أحمد ضيف

وعرضت المشروع على الدكتور أحمد ضيف فرفض
كل الرفض وقال : « لقد رفضتُ يدي من الجامعة المصرية
وعدت لا أعرف غير دروسي في دار العلوم ، وحسبي
ما لقيت في الجامعة من عناء ، أنا الآن لا أفكر إلا في
تلاميذي وأطفالي ، وفيما عدا ذلك يكفيني صفحات أقرؤها
من الأغاني أو مؤلفات أناطول فرانس »

وكنت شديد الرغبة في معاونة الدكتور ضيف
فألححت عليه أشد الإلحاح فانفجر الرجل وقال : « لا أريد ،
لا أريد ، أنا والله أشتهي أن ينساني الناس . وإني لعاتبٌ

عليك أمراً العتب ، فانك تُجري اسمي من حين إلى حين
في جريدة البلاغ ، فان كنت يا صديقي ممن يذكرون قديم
العهد ، ويرعون حرمة الوداد ، فاطو اسمي من ذا كرتك أو
احه مرة واحدة . ولا تزعجني بإثارة اسمي في جريدة أو
مجلة ، فقد صممت على العزلة كل التصميم ، وفي طلاب
الشهرة غناءً لك عني ، فابحث عنهم لتكوين ما تشاء من
الجمعيات ... أنا أشترك في جمعية جديدة ؟؟ هذا والله ما لا
يكون ! »

رأى الدكتور العناني

وكان من سوء الحظ أن خرجت فتوجهت على الفور
لمقابلة الدكتور علي العناني ، وكان يعاني ثورة نفسية ، فلم
أكد أفاتحه حتى اضطرر وقال « إن هذه الجمعية بطبيعة
ما تُؤلف من أجله سيكون من أعضائها فلان وفلان
وكلاهما « ديماجوج » وأنا رجل وقفت حياتي على حرب
الديماجوجية ، فكيف تنتظر أن تتفق ؟ إن كان ولا بد
فستعمل البوكس ! »

وكانت مباغتة مزعجة اضطررتني إلى الخروج قبل تناول
القهوة... وما كان يغيب عني أن الدكتور العناني سيرفض،
ولكنني أردت أن أبريء ذمتي، فانه من أقدم من عُنيت
بهم الجامعة المصرية فأنفقت عليه في ألمانيا بضع سنين
وعينته بعد عودته أستاذاً للعبرية والفلسفة الإسلامية

رأى الدكتور منصور فهمي

ثم ذهبت إلى الرجل الحكيم الدكتور منصور فهمي
فقاباني بعطف ورفق، وسألني عن حالي، كعادته حين
يتلطف بتلامذته وأصدقائه... وابتدأت فقلت: يا سيدي
الدكتور، أنا أفكر في إنشاء جمعية باسم «أصدقاء
الجامعة المصرية» وأبادر فأخبرك أن الدكتور طه كان أول
من فأحنته

فابتسم الدكتور منصور وقال:

وهل تظن يا زكي أن اشتراك الدكتور طه في
هذه الجمعية يحماني على التردد، لقد ذهبت في مجاملة
الدكتور طه إلى أبعد حدود المجاملة، وواسيته يوم كانت

تجب المواثقة ، ولم ألقِ بالآ للاعتبارات الرسمية ، فتثق
كل الثقة بأن قلبي معكم ، ولكن لا تسرفوا في
الأماني ، وابدأوا متواضعين لتكتب لعمالكم الحياة ،
فاني أرى الناس في مصر يكثرون من القول ، فتضيع
الثقة في حياتهم العملية

ثم سكت لحظة وقال :

هل دعوتم الشيخ مصطفى عبد الرازق ؟ وهل فكرتم
في أخينا ضيف وأخينا العناني ؟ والشيخ أحمد أمين لا
تنسوه : فإنه رجل مفضل

رأى الاستاذ مصطفى عبد الرازق

وعرضت المشروع على الرجل المهذب الشيخ مصطفى
عبد الرازق فقال : والله فكرة طيبة !

وكان بالمجلس الأستاذ علي عبد الرازق فقال : أنا أذكر
تماماً المحاضرات التي تنظمها جماعة أصدقاء السوربون ،
وكنت أحب أن أواظب عليها ، ولكنها مع الأسف
كانت تبدأ في وقت مبكر فكان يضيع مني الدرس الأول

فقلت : إن الدرس الأول يبتدىء في التاسعة صباحاً

فأجاب : والتاسعة صباحاً في باريس شيء ثقيل !

وأردت أن أظهر بمظهر الباريسي المفتون فقلت : هذا

صحيح !

رأى الاستاذ اصمحر امين

واتفق أن صادفت الأستاذ أحمد أمين في المترو ،

حيث نلتقي من حين إلى حين ، فعرضت عليه المشروع

فرحب به وقال : إن الفكرة جميلة ، وهي يمكننا من نشر

الثقافة العالية خارج المدينة الجامعية ، ويحسن أن تكون

مجلة « الرسالة » لسان تلك الجمعية . . .

فابتسمت وقلت : انتظر ، إن الله مع الصابرين !

في بيت لطفى السيد بك :

لم أر من الذوق أن أستشير أستاذنا لطفى بك في

موضوع سيكون بطبيعة تكوينه تحت رعايته ، فحادثته

تليفونياً وأخبرته أن جماعة من أصدقاء الجامعة المصرية

سيتشرفون بزيارته ففضل وحدد الساعة الخامسة بعد ظهر

الاثنين الماضي بمنزله العامر بمصر الجديدة

جلسة التعارف :

وجلسة التعارف من المصطلحات الحديثة ، وإلا فقد
تعارفنا من قبل ، وتساقينا كئوس الود والعشْب ، وجمعتُ
بين قلوبنا أُلوفٌ من الذكريات فيها الشهد والصاب ، وقد
كاد قلبي يثب حين صاحمت الأستاذ لطفي بك ، الرجل
العالم الفيلسوف الذي أعزني في مطلع حياتي الأدبية إعزازاً
لن أنساه . . . وماهي إلا لحظات حتى رُفع بيننا التكليف
فصار الأستاذ لطفي بك يخاطبني بعبارة « ياسي زكي »
والدكتور طه يخاطبني بعبارة « يا سيدنا الشيخ » ، فان
لطفي بك لا يقول « يا دكتور زكي » إلا إذا كان عاقباً
أو غضبان ، والدكتور طه لا يقول « يا دكتور زكي »
إلا إذا أخرجته ، أو كنا بمشهد من الناس ، وأنا عنده
فيما عدا ذلك « سيدنا الشيخ » وهي علامة مودة حين
يطيب بيننا الحديث . والدكتور طه محدثٌ بارعٌ ظريفٌ
الأستاذ لطفي بك - أشكر لكم هذه الزيارة الكريمة ،

ولا تؤاخذني يا دكتور منصور ، فإني لم أهنتك على
عمادة كلية الآداب ، وسبب هذا التقصير أنني لم أسمع الخبر
لا بعد مضيّ ثلاثة أشهر ، فقد انصرفتُ عن قراءة
الصحف واعتزلت الناس .

الدكتور منصور - وأنا أشكر لرئيسنا وشيخنا
هذا اللطف ، وقد سرني أن يوفق الله ولدنا البار الأستاذ
زكي مبارك إلى إنشاء جمعية تصل بين قلوب المخلصين من
أصدقاء الجامعة ، وستكثر الفرص التي نتوادّ فيها ونتحاب ،
إن شاء الله .

الأستاذ لطفني بك - كان رأيي دائماً في زكي
مبارك أنه شابٌ يجيء منه ، ولكنني لاحظت منذ عرفته
أنه غير Raffiné « غير مصقول » .

الدكتور منصور - قد يكون شيء من هذا صحيحاً
غير أنه لا جدال في أنه مخلص كل الإخلاص
الدكتور طه - زكي مبارك مخلص ؟؟ لا وحياتك !
الدكتور منصور - إنه تمثال إخلاص

الدكتور طه - وهو يتسم - مخلص إيه ، سيبك
من الكلام ده ا زكي كان مخلصاً فيما سلف ، ولكنه
الآن تمثال أثره لا تمثال إخلاص ، والشاهد هو مجلس اليوم .
أحسبه دعانا لنخدم الجامعة المصرية ، أو الثقافة الجامعية ،
على حدّ تعبيره في رقعة الدعوة ؟ لا ، ياسيدي ، إنه دعانا
ليتخذ من أحاديثنا مادة لمقالته في « البلاغ »

زكي مبارك - أحبُّ أن أحدّد الغرض . . .

الدكتور طه - اسمع ، ياسيدنا الشيخ ، أتظن أنك
خدعتني ؟ لا ، والله ، وإنما انخدعتُ لك ، ومن خادعك
فانخدعت له فقد خدعتَه ، وأنا مضطر لإعلان هذا في
أول جلسة ليعرف أستاذنا لطفي بك فيما بعد أي لم أكن
من المخدوعين

الدكتور منصور - موجهاً كلامه إلى زكي مبارك -
قلت لك يا زكي ، غير مرة ، إنك تسرف بعض الإسراف ،
وينبغي أن تستفيد من دعاية الدكتور طه فتعدل أسلوبك
في الكتابة بعض التعديل

الدكتور طه - لا تتعب نفسك يا دكتور منصور ،
فقد نصحته من قبل ولم يفن النصح
زكي مبارك - وماذا تريدون مني ؟

الأستاذ لطفي بك - نريد أن تتلطف في القول وتحسن
مسايرة الناس ، فانك لا تعيش وحدك

زكي مبارك - وأنا لا أبيع حريري الأدبية لأشتري
بتمنها علاقات ومودات ! و هبوني صدعت بما توصون به ،
أيجزيني الناس على التلطف خير الجزاء ؟ هيهات ، إن
المهذب عندهم مغبون !

الدكتور منصور - أنت تدين نفسك يا زكي من حيث
لا تشعر ، وتعترف بأن أسلوبك ينقصه التهذيب

زكي مبارك - التهذيب في عرف الكتّاب معناه المسألة
التي يستدّيب في ظلها الضعفاء

الدكتور طه - أنت تعرف ما نعني ، ولعلك لا تجهل
أن بعض ما أثرت من المعارك الأدبية كان ...

الأستاذ احمد أمين - نحن مدينون للدكتور زكي

بكشف بعض الخلائق التي سترها النفاق : فقد استطاع
بسِنان قلمه أن يُنطق شخصيات كثيرة بحقائق كانت
مجهولة ، وكم ناسٍ سحبوا ذبول التقوى والحشوع تصنعاً
ورياءً ، وما زالوا مستورين حتى جاء صاحبنا فرفع عن
وجوههم ستائر الخداع

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - لم أفهم جيداً ما تريد
الأستاذ أحمد أمين - راجع ما أثار من المعارك الأدبية ،
وما مزق من أشلاء الأعداء

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - الآن فهمت ما تريد !
الدكتور منصور - لا تنسوا بجانب هذا أنه أبداع
فتناً أدبياً

الدكتور طه - أي فن ؟ لعلك تريد نظم الأسماء
والأحاديث

الأستاذ أحمد أمين - هذا في الواقع فنٌّ جديد ، لم
يعرفه العرب ، لا في بحر الإسلام ولا في ضحى الإسلام
الأستاذ لطفى بك - ولكن عرفه اليونان ، وكلكم

يذكر أحاديث بلاتون على لسان سوكراتيس
الأستاذ مصطفى عبد الرازق - أذكر أنني رأيت نماذج
من هذا النوع عند أبي حيان التوحيدي
الدكتور طه - كان يمكن أن يكون صاحبنا زكي مبدعاً
لو رزق حظاً من الخيال . ولكنه لا يزيد على أن ينقل
ما يسمع . . . النهار ده إيه ؟ الاثنين ؟ اقرأوا (البلاغ) يوم
الجمعة فسترونه نقل هذه الأحاديث نقلاً حرفياً . وسترونه
عجز عن توشيتها برأي جديد أو خيال طريف !
زكي مبارك - ألا يعجبكم غير الافتراء ؟
الدكتور طه - إسمع يا دكتور منصور ، هكذا
يخاطب الأبناء آباءهم في هذا الجيل !
الدكتور منصور - هذه دعابة مغفورة
الدكتور طه - نعم مغفورة . ولكن هل يليق أن
يهاجمني في البلاغ باسم غير صريح ؟
زكي مبارك - معاذ الله أن أفعل ذلك

الدكتور طه - ألت « صديق البلاغ » الذي هاجمني

منذ أسبوعين

زكي مبارك - لا ، وربى ، لست إياه ، وإن ظن

ذلك بعض القراء

الدكتور طه - ومن هو إذن ؟

زكي مبارك - لا أعرفه ، فأصدقاء البلاغ كثير

« وما يعلم جنود ربك إلا هو »

الأستاذ لطفي بك - وبأي مناسبة هاجمك البلاغ ؟

الدكتور طه - حكاية العرب والمصريين

الدكتور منصور - هذه مسألة شائكة تثار من حين

إلى حين ، وإني أسمع بعض الناس يتكلم كثيراً عن القومية

المصرية ، ويريد بذلك أن تنفصل مصر عن أمم الشرق ،

وذلك خطأ مبين . وقد كنت ولا أزال من أنصار الرابطة

الشرقية لعلمى أن الأمم التي ترتبط برباط اللغة والدين

يقترب بعضها من بعض وتكون وحدة لغوية وفكرية

وعقلية وروحية ، هي أسمى ما يفكر فيه الرجل الحريص

على ربط الأواصر الانسانية . ومن العجيب أن ناساً في مصر يكثرون من الكلام عن الانسانية وروابطها الأدبية والعامية ، ثم ينسون ذلك كله حين يجري ذكر العرب والمسلمين ، فهل أصبح العرب والمسلمون شعبة أخرى لا يصح أن يرتبط بها المصريون ؟

الأستاذ لطفي بك - أنا لا أزال عند رأي الذي أعلنته منذ سنين

زكي مبارك - ذكرنا فقد نسينا !

الأستاذ لطفي بك - رأي أنه يجب أن تُحصَر جهود الأمم العربية في شؤونها الذاتية . ولا ينبغي أن يفكروا في تنظيم جبهة موحدة إلا بعد أن يكون لهم وجود محسوس ، أما الآن فإضافة الأصفار إلى الأصفار لا تغني شيئاً . إن الصفر قد ينفع حين يضاف إلى الرقم ، ولكنه لا يدل على شيء حين يقف وحده أو يضاف إلى صفر مثله . وهذا الكلام على وضوحه لم أجد من يفهمه على الوجه الصحيح .

الدكتور طه - وقد استوى على كرسيه ولبس ثوب
الجد الرزين - اسمعوا أصل الحكاية : أنا أكتب في جريدة
يومية ، ولسوء الحظ أكتب كل يوم ، وأتم تعرفون ما معنى
أن يكتب الرجل كل يوم

الأستاذ احمد أمين - معناه أنه يكتب كل يوم !

الدكتور طه - كويس ، لحدّ هنا مفهوم ، والرجل حين
يكتب كل يوم قد يكتب غير ما يعني ، ويعني غير ما يكتب
وهذا هو الذي وقع بالفعل ، فقد قلت إن العرب ظاهوا المصريين
ولم يكن ذلك عن رأي مبيت ، وإنما هي كلمة وقعت في مقالة
يومية ، وقعت عفواً بلا قصد و ليس وراءها غرض مدفون ،
ولولا أن الأستاذ عبد الرحمن عزام علّق عليها في البلاغ المرّت
كسائر ما يكتب من المقالات اليومية . . .

أفتدرون كيف كانت عاقبة ذلك ؟ هاج الصحفيون في
فلسطين وسورية ولبنان ، وقال الشبان هناك بإحراق كتب
طه حسين ، والسخط على طه حسين ، وتوعدوا المصريين
جميعاً بإحراق مؤلفاتهم إن قالوا بالشعوبية ، وهل قلت

بالشعوبية يا ناس؟ وهؤلاء الذين يفضبون أقبح الغضب
لكلمة صغيرة تقع في مقالة يومية هم الذين يدعوننا إلى
تكوين وحدة سياسية، فكيف بالله نتفق مع ناس لا يعرفون
ضبط النفس ولا أدب الخطاب؟

زكي مبارك - هل قرأت يا دكتور ما كتبتته جريدة
العاصفة؟

الدكتور طه - قرأته ، يا سيدي ، والحمد لله الذي لا يحمّد
على المكروه سواه !

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - وماذا قالت جريدة
العاصفة؟

زكي مبارك - لقد شتمت المصريين جميعاً وقالت إنهم
في العلم والأدب أدعياء !

الدكتور طه - وكيف يكون الحال لو قابلنا الشر بالشر
والعدوان بالعدوان؟ كيف يكون الحال لو عملنا بتصامح الأستاذ
محمد عبد الله عنان ودعونا المصريين إلى مقاطعة مصايف
سورية ولبنان؟

الدكتور منصور — تكون رواية جميلة يوزع إعلاناتها

الستعمرون ، ويقرظها الشامتون !

الأستاذ مصطفى عبد الرازق — الواقع أن الشرق لا

يزال في طفولته ، ولم ينضج

الدكتور طه — للسياسيين أن يتملقوا العواطف

أما العلماء فلا ينبغي لهم أن يعرفوا غير الحق

الأستاذ احمد أمين — لقد واجهت مثل هذه المشكلة

حين زرت العراق ، فقد عاتبوني على عبارات وردت في

كتاب فجر الاسلام ، فكان المؤلف المصري مسئول عن

مراعاة جميع العواطف المتباينة حين يشرع في التأليف !

وقد اضطررت عند زيارتي العراق إلى التلطف في مسيرة

الشيعة حتى لا يقاطعوا مؤلفاتي

لطفى بك — وأنا حين زرت فلسطين للاشتراك في

حفلة افتتاح الجامعة العبرية رأيت من المناسب أن أزور

المدارس العربية دفعاً لكواذب الظنون في اتهامنا بمؤازرة اليهود

الأستاذ مصطفى عبد الرازق — إن مراعاة العواطف

والمبول كانت المقتل الذي طاحت به الفلاسفة الاسلامية . إن
رجال الرأي يجب أن يكونوا أصلب من أن يتمسـلقوا
شهوات الجماهير وإلا ضاعوا مع الضائعين

الدكتور منصور - ما رأيك ، يا زكي ، في هذا

الكلام ؟

زكي مبارك - أنا على الحياد !

الأستاذ لطفي بك - يظهر أنك تخشى أن يحرقوا

كتبك هناك !

زكي مبارك - لست من هذا أخاف ، وإنما أخشى

أن يصح ما تخيله أستاذنا الدكتور منصور ، أخشى أن

تكون هذه المناوشات رواية تمثيلية يسدل فيها الستار على

اندحار الشرق

الدكتور طه - ولن أشترك في تأليف هذه الرواية

الدكتور منصور - لم يبق إلا أن تراعي عواطف الناس

حين تكتب

الدكتور طه - وهل يراعي الناس عاطفتي حين يكتبون ؟

الأستاذ لطفي بك - هذا عناد ، والعناد ينافي

الأخلاق الجامعية

الدكتور منصور - الآن تذكرت أننا حضرنا لتأسيس

جمعية باسم « أصدقاء الجامعة المصرية » فلنبادر إلى وضع

القانون ، وليقم أصغر الحاضرين سنًا بكتابة محضر الجلسة ،

ولعله ولدنا العزيز زكي مبارك

أول أكتوبر سنة ١٩٣٣

صور طريقنا

لأحاديث الناس

وصف سيارات السكة الحديدية — شخصيات مصرية

البنون والبنات — تبرج النساء — أزمة الزواج

أجرت وزارة المواصلات طائفة من السيارات بين القاهرة والباжور، فاذا زرت ميدان الخازندار صباحاً وجدت أفواجاً من الناس ينتظرون السيارات ليذهبوا إلى شطرنوف أو النعناعية أو سنتريس .

وللنظرة الأولى يفهم المسافر أن تلك السيارات ليس فيها إلا درجة واحدة . وقد سمعنا أن في بعض السيارات درجتين أولى وثانية . ولكن لم يتفق لنا أن نشهد غير السيارات التي تمشُر الركاب حشراً ديموقراطياً يسوي بين الغني والفقير، والرفيع والوضيع . وفي تلك السيارات مسحة خفيفة جداً من النظافة، ويغلب أن تخلو نوافذها من الزجاج : ليتمكن المسافرون من استنشاق الغبار اللطيف

الذي يثور من جانبي الطريق : وهي حكمة ظاهرة من
وزارة المواصـلات أو من مصالحة السكة الحديد : فقد
فطنت° إلى قول المرحوم حافظ ابراهيم :

أَيْشْتَكِي الْفَقْرَ غَادِينَا وَرَأْمُنَا

وَمَحْنُ نَمْشِي عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

فانه إن عزّ علينا أن نملأ جيوبنا من السبائك التي
تخرجها تلك الأرض الذهبية فلا أقل من أن نكحل عيوننا
ونمسح وجوهنا بغبارها التبري النفيس !
وليس من الضروري أن ننتظر التبر المسبوك مادمننا
نملك التبر المسحوق !

والترب والتبر كامتاز متقاربتان لفظاً ومعنى وليس
فيهما إلا القلب المكاني الذي شرحه الصرفيون والذي نجد
شواهد في لغة العامة من المصريين حين يقولون مثلاً
« الجواز » وهم يريدون الزواج !

في تلك السيارات المفتوحة النوافذ والأبواب فتحاً أبدياً
وفوق مقاعدها الخشبية يجلس المسافرون وقد ارتفع بينهم

التكليف : فهذا أفندي أصلح من هندامه وكوى طربوشه
ولمَّ حذاءه ليحلوا في عين عيوشة بنت خالته في الباجور ،
وذاك شيخ كور عمامته ولبس قفطانه الجديد ليصاى بأهل
بلده وقد أخذ زينته عند كل مسجد كما يوصي القرآن المجيد :
وذلك فلاح متقاعد رأى إخوته أن يكون رب الدار بعد
وفاة أبيه فلزم المصطبة وأخذ يفد إلى القاهرة يوماً بعد
يوم لتتم له أبهة الأعيان : وهذه سيدة متأنقة تريد أن
تزور أقاربها في الريف ومعها سَفَط فيه من حلوى القاهرة
ما يدهش له الريفيون ، وتلك عجوز حيزبون تعود إلى بلدها
بعد أن قضت يومين في القاهرة لزيارة ابنها (الفلاح)
المستخدم بالديوان !

يجلس المسافرون وقد شغل أحدهم بمحادثة جاره .
أو بقراءة صحف الصباح : أو بالتطعم إلى المزارع الخضراء
ويظلمون كذلك حتى يصلوا إلى ما يقعدون ، ولكن
يوم الأربعاء (٣ أغسطس سنة ١٩٣٢) كان يوماً مشهوداً
ياحدى تلك السيارات : فقد تحي وطيس الجدال بين

الركاب وظلوا في صخب وأجَب ساعة ونعف ساعة ،
وكان كاتب هذه السطور من المشتركين في الحديث
وإلى القارىء بعض الشخصيات :

الشخصية الأولى شخصية التذكري (موزع
التذاكر : الكمساري) وهذا التذكري من المنوفية وأهله
فلاحون ، ومن عادته أن يجلس على كرسي صغير بجانب
الباب ويأخذ في محادثة الركاب ، وأحاديثه لا تخرج عن
الفلاحة وأحوالها : لأن أباه - فيما حدثني - من كبار
الفلاحين ، وأبوه هو الذي اخترع عزق الدرة مرتين ،
والفدان في مزارعهم ينتج عشرين قنطاراً فيما قال . وهو
يحادثني كلما رأني : لأنه يرى في شخصي فلاحاً قديماً طال
عهده بصحبة الفأس والمحراث . ومن وصاياهم أن النجيل
لا تُستأصل جذوره إلا إن غزاه المحراث في بؤونة ، وقد
استكثرت ذلك لأن المحراث فيما كنت أعرف لا يشق
الأرض إلا بعد أن يغمرها الماء بأيام ، وهو يرى أن تحرث
الأرض المنجلة بعد حصد القمح ، فاما راجعته غضب

وقال : أنت يا افندي لا تعرف ! ومن الجائز أن تكون الأرض تطورت تبعاً لما جدّ في العالم من مختلف التغيرات ، وأنا تركت الفلاحة منذ عشرين عاماً فلا يبعد أن يكون صاحبنا على حق ، وأن تكون الأرض عادت فلانت بحيث تُحرث عقب الحصاد !

والشخصية الثانية شخصية القاضي الشرعي (بلام التعريف) وهو من قضاة القاهرة وأهله من المنوفية وقد صاحبنا في الطريق ، وهو رجل صنم الهامة قوي الجسم يدخل السجائر الفاخرة ويرى من حقه أن يسيطر بآرائه على الركاب أجمعين . وقد جلس في الكرسي الأول وقال حين احتدّت المناقشة : أرجو أن لا نقرأ شيئاً عن هذه المنافرات في جريدة « البلاغ » فسأله أحد الركاب : وكيف تخشى ذلك ؟ فأجاب : ألا ترون هذا الرجل الجالس هناك ؟ إنه زكي مبارك الذي لا ينسى شيئاً مما يسمع ، ويستطيع تدوين كل ما يصل إلى أذنيه من شجون الحديث . فالتفتُ فرأيت رجلاً يعرفني ولا أعرفه ، ولم

أر من الذوق أن أسأله عن اسمه بعد أن عرفني إلى الركاب
وكانه صديق حميم . ومن غرائب هذا القاضي أنه كان يمد
يده في عنف متطاولاً على سيذة كانت تقارعه وترميه
بمحجج أصلب من حججه حتى خشينا أن نضطر إلى مهاجمته
ورده إلى أدب الخطاب

والشخصية الثالثة شخصية المهندس وهو رجل
لا يعرفنا ولا نعرفه ، ويظهر أنه لا يعرف المنوفية قبل
هذه المرة : فقد كان يسألنا عما نمرُّ به من البلاد سؤال من
لا يعرف من تقويمها شيئاً ، وفي طباعه هدوء ، وفي رأسه
عقل ، وفي أدبه رفقٌ ولين

والشخصية الرابعة شخصية المرأة الجديدة : وهي
سيذة سافرة : جميلة الوجه ، حلوة التقاسيم ، عذبة
الحديث ، وإلى جانبها طفلة صافية الأديم تنظر إلينا وإلى
الوادي الأخضر بعيني الظبي الألوف . وعلى وجه تلك
السيدة طلاءٌ خفيفٌ جداً من الزينة يذكرُّ بما كان من
صباحة وجهها يوم كانت في سن بنيتها . وهي سيذة قبطية

وإن أخفت أصلها وزعمت في سياق الحديث أن أهلها
مشايخ لتصرف القاضي عما تورط فيه من العناد
أحد الركاب - الله يقطع الأولاد وخلفهم !
التذكيري - ما الذي جرى لك حتى تكره خلفه
الأولاد؟

- ما الذي جرى لي ؟ جرى شيء بطال يا سيدنا
الأفندي ، لي ولد دفعت له دم قلبي حتى خلصته ونجيته
من الجهادية ، وبعد ذلك كان جزائي أن سرق لبة أمه
وهرب^(١) . وأنا أبحث بنفسي عنه من بلد إلى بلد على
غير جدوى . وأمّه - عدوك - قلبها تقطع من البكاء
والنوح

التذكيري - سرق لبة أمه وهرب ؟ أعوذ بالله !
لك حق في كرهه خلفه الأولاد (ثم التفت إلى الركاب)
وقال : ألم أقل لكم إن البنت أفضل من الولد ؟ والله
يا إخواني - ومالك عليّ يمين - أنا عندي بنتان أحلا

(١) اللبة حلبة ذهبية يطوق بها العنق

من السكر ، وما شكوت منهما يوماً منذ رزقني بهما الله ،
الحمد لله على خلفه البنات ! البنات نعمة ولكن الناس
لا يعرفون

القاضي الشرعي - البنت أفضل من الولد ؟ ما هذا
الذي تقوله يا شيخ ؟ إن الله فضل البنين على البنات ، وهو
سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، فكيف ترى غير ما يراه
الشرع الشريف ؟

السيدة - البنت أفضل من الولد ألف مرة ، ولا
يقول بغير ذلك إلا الغافلون ؟

القاضي - يا ولية اسكتي ، بلاش هذيان !
التذكري - معلوم ، البنت أفضل من الولد ألف
مرة ، الولد يسرق لبة أمه ويهرب ، ويأخذ مال أبيه
ويهرب ، في حين أن البنت تتعلق بوالديها وتنفع أباهما
يوم المرض ، فتغسل هدومه ، وتمسح جسمه . البنت
حُنيئة يا سيدنا الشيخ ، وليس لعطفها مثيل

القاضي - ولكن البنات لا تزوج في هذه الأيام ،

ووجودهن بالفاتِ بدون زواجٍ خطرٌ شديدٌ ، وهنَّ بعد
الزواجِ أخطرُ : لأنَّ البنتَ تظلُّ دائماً متعلقةً بأهلها
ولا تنقطع مطالبها ، بل ربما زادت بعد الزواج ، بنات
إيه وزفت إيه ؟ دا شيء يطلع الروح !

السيدة — من قال لك ياسيدنا الشيخ إن البنات
لا تزوج ، أنا زوجت إحدى بناتي هذين اليومين ،
وبسلامتها في غاية الهناء وزوجها على كيفك غني وابن
حلال

القاضي — وكيف زوجتها ؟ قولي الحق ! ألم يحفَّ
قدّمك في البحث عن عريس ؟
السيدة — فشر ! والله إن ما كان يحضر ورجله على
رقبته ما يطول ظفرها !

القاضي — كان زمان ! أمّا في هذه الأيام فالأم هي
التي تبحث لبنتها عن زوج ، وهي التي تدفع المهر وتعدُّ
الجهاز وتعمل كل شيء للوصول إلى خاطب مهما كان حاله
وأنا بذلك عليم !

السيدة - نحن السيدات نعرف ما لا تعرف من
يُسّر الزواج ، يا سيدنا الشيخ !
القاضي - أنا الذي أعرف : أنا قاضي والنساء أمامي
كل يوم بالعشرات . وشكواهن من أزمة الزواج تنزل
الأرض وتندكّ الجبال

السيدة - لا ، يا سيدي !
القاضي - لا ، ياستي !
السيدة - قلت لك : لا
القاضي - وأنا قلت لك : لا ، ثم لا ، ثم لا ،
سبحان الله ! أما تعقلين ؟

الكاآب - الحقُّ مع السيدة يا فضيلة الأستاذ
القاضي - آراؤك معروفة يا دكتور . أنت من تلامذة
قاسم أمين . هل يرضيك أن تخرج النساء عاريات الأذرع
والمعاصم والسيقان
الكاآب - الله يبشرك بالخير !

السيدة - وما ضرر ذلك ؟ العفة في النفس ولا قيمة

للمظاهر ، فقد تخدع في أكثر الأحيان

القاضي - ومن أجل هذا أضرب الشبان عن

الزواج ، وصارت البنت تقعد بايرة إلى أن تشيخ وتصبح

كالبيض المسوس . فضيها يا ستي ، أنا أعرف أربعين

بنتاً طال بهن التعنيس ، ولم يبق في زواجهن رجاء

الكاتب - دلني على واحدة ، أصلحك الله !

السيدة - أزوجك هذه الصبية

الكاتب - يا ستي ، أنا محسوب

القاضي - نحن نتكلم جادين ، وما كنت أحسب أننا

سننتقل إلى (مدامع العشاق)

السيدة - ونحن أيضاً نتكلم جادين ، ولكنك غاير

يا سيدنا الشيخ !

القاضي - لا يعجبك الشيخ ؟

السيدة - العفو . أنا أهلي كلهم مشايخ ومن أجلهم

أحترم المشايخ أجمعين

الكاتب - أهلك ليسوا مشايخ تماماً ، يا هانم ، إلا

أن يكون فيهم قسيسون : فإن شكل العمامة واحد : وإن
اختلف السواد والبياض !

القاضي - هذه إهانة للعمامة الإسلامية

الكاتب - ليس هناك عمامة إسلامية : وإنما كانت
عند المساميين عمّامات إقليمية أو محلية : كما يشاء لك التعبير :
فالمسامون في جزيرة العرب كانت لهم عمامة عربية أخذها
عنهم كثير من المساميين ، ولا تزال موجودة عند الهنود :
وهي العمامة ذات العذبة التي يحرص عليها الشيخ محمود خطاب
ظناً منه أن فيها شعاراً إسلامياً ، وكان للمسامين في غير
الجزيرة عمّامات تشبه العمامات الأهلية في البلاد التي
افتتحوها ، وكان لهم في مصر هذه العمام القبطية التي
يلبسها القسيسون سوداء ، ويلبسها المشايخ بيضاء ، ويلبسها
الأشراف خضراء ، والوضع واحد وإن اختلفت الألوان

القاضي - ماهذه الفلسفة ؟

الكاتب - لا فلسفة ولا سفسطة ياسيدنا الشيخ !
المسألة هينة ، ولكنكم تظنون كل سمات المسامين ترجع

إلى أصول إسلامية ، في حين أن الإسلام في جوهره لم يكن يرمي إلى غير إصلاح النفوس ، وتطهير القلوب ، وسلامة العقائد من أوضار الريب والشرك . وما عدا ذلك من المظاهر الاجتماعية أخذها المسامون عن الأمم التي عرفوها بعد الفتح

المهندس -- خرجتم عن الموضوع

الكاتب - أعرف ذلك ، ولكن الحديث ذو شجون

القاضي - هذا ما أخشاه ، وإني لأتوقع كارهاً أن

يُنشَر شيء من حديثنا في « البلاغ »

الكاتب - اطمئنْ يا فضيلة الأستاذ ! فليس من

شأننا تدوين مثل هذه المحادثات ، إنها لحظة وتنفيضي ،

ويذهب كل منا إلى أهله على يظفر بفطيرة أو دجاجة محرمة

في الفرن

القاضي - الله أكبر ، هذه هي الحياة ، لقد اشتقنا

إلى جلسة المصطبة وأكل الفطير !

السيدة - والفطيرة من يسويها ؟ البنت أم الولد ؟

القاضي - يا ولية اسكتي ؛ انتظري حتى يفرغ الرجال
من الكلام

السيدة - وُلية ؟ أنتظن كل النساء ولا يا حتى تجابهين
بهذا التعبير الغليظ ؟

القاضي - لقد كانت المرأة محترمة يوم كانت (ولية)
ثم عادت مبغوضة منذ أصبحت (هانم) أنا لا أحب القرّنجة
ولكم أن تسألوا موظفي المحكمة عن قسوتي في معاملة
النسوان المتبرجات ؟

المهندس - ألا يتفضل أحدكم فيدلنا على المسئولين
عن بلايا التبرج ؟

الكاتب - المسئولون عن التبرج هم الشبان

القاضي - ما معنى ذلك ؟

الكاتب - معناه أن الفتاة لا تتبرج - حين تتبرج -

إلا طاعةً لنزعة خفية أو ظاهرة عند الشبان . فالشباب
العصري يؤثر المرأة المتبرجة على المرأة المحتشمة ، والفتاة
تشعر بذلك ، فهي تزين لتستأثر بهواه ، ولو انصرفت

رغبة الشبان إلى زينة أشرف من زينة التبرج لسارعت
الفتيات إلى التحلي بالعلوم والآداب والفنون : لأن الفتاة
بطبيعة أنوثتها تنودد إلى الفتى عن طريق ميوله وأهوائه ،
إن خيراً نخيراً وإن شراً فشر ، ومن هنا تعرفون أن تبرج
النساء ظاهرة اجتماعية خبيثة لأنها تخفي في ثناياها معنى
خطراً هو ميل الرجال إلى النعومة والانحلال

السيدة - والشبان أيضاً متبرجون

القاضي - يا ولية اسكتي حتى يفرغ الرجال من

الكلام

المهندس - لقد سرني هذا التعليل ، ويؤلني أن
يكون هذا هو الواقع ، فان شباننا يتطلبون من المرأة
أن تسير آخر ما جد من البدع في باريس ، والفتاة
المحتشمة في نظرهم غشيمة مغفلة لا تصالح زوجة ولا رفيقة ،
أما الفتاة المتبرجة الخليعة فهي صاحبة الحول والطول في
هذه الأيام

القاضي - أتريدون الحق ؟

المهندس — إنه غاية ما نبتغيه

القاضي — الحق أن الشبان والبنات كلهم زفت في

زفت ، وقد ظهر الفساد في البر والبحر . ولم يبق إلا أن

تقوم القيامة ، فقد ظهرت أشراطها منذ زمن بعيد

الكاتب — القيامة ؟ إنتظر قليلا ، إن الله مع

الصابرين !

القاضي — ماذا أنتظر ، ولم يبق في الدنيا خير يُرتجى

ولا برئ يُرتقب ! لقد فسد العالم : فأفرض فيه بعدلك

لا برحمتك ، فانك فعال لما تريد !

الكاتب — يا أخي ! ولماذا تستكثر علينا رحمة الله ؟

السيدة — ربنا يلفظ !

القاضي — إلى متى يلفظ ، يا ستي ؟

الكاتب — بقيت كلمة أحب أن لا تضع

المهندس — تفضل !

الكاتب — تحدثتم عن أزمة الزواج ، وذكرتم أن

من أسبابها تبرج الفتيات ، فهلا ذكرتم جنب الشبان ؟

المهندس - أوضح

الكاتب - إن الشاب حين يُعْرَض عن الزواج

لا يتأثر فقط بتبرج البنات ، فهناك ألوف غير متبرجات

القاضي - كل البنات متبرجات ، وأنا أعرف ذلك

المهندس - صبرك ، يا فضيلة الأستاذ !

الكاتب - ليس التبرج وحده سبب أزمة الزواج ،

ولكن هناك جُبُن فريق من الشبان عن مواجهة الحياة

العائلية ، فإن الشاب حين يتزوج ينصرف طوعاً أو كرهاً

إلى ملاحظة بيته والبر بأهله ؛ وهذا يتطلب تضحيةً من

شبان اليوم الذين ألقوا السهرات الطوال في الملاهي والمشارب

والقهوات ، وهي تضحيةٌ هينة ولكنها تبدو شاقة جداً

على من أَلِف حياة اللهو واللعب ، واستطاب مرافقة

البنات السارحات

القاضي - تعجبني كلمة (السارحات) في هذا الموضع

السيدة - قيدها عندك !

المهندس - والأزمة الاقتصادية لها دخلٌ أيضاً

الكاتب — لنفرض ذلك . ولكني أعرف كثيراً من
الشبان الموسرين الذين يتجاوزون الثلاثين وهم عزاب . وليس
لهم عذرٌ مقبول ، ومن هؤلاء من أصبح زاهداً أشنع الزهد
في الزواج . ولهم فلسفة سخيفة يبررون بها هربهم من تكاليف
الحياة العائلية التي لا يعرف قيمتها غير الفتيان الشجعان .
المهندس — الزواج يحتاج حقاً إلى شجاعة .

الكاتب — إلى شجاعة عظيمة : لأن حبس النفس عن
الشهوات المحرمة يحتاج إلى عزيمة دونها عزيمة الأبطال في
ميدان القتال . فإن رأيت شاباً موسراً ينجح إلى العزوبة
فاعلموا أنه ضعيفٌ أو فاجرٌ أو جبان .

السيدة — هذا هو الكلام .

القاضي — نعم ! لأنه لا يُرضي الهوانم إلا براءة
النساء وإدانة الرجال .

التذكري — هذا هو البلد الذي زاره المتنبّي حين قدم
مصر وقال فيه نونيتين هما خير ما في ديوانه من القصيد الرنان
عندئذ التفتُّ وقد خفق قلبي فرأيتني أمام سنتريس .

في ظلال الذكريات

في أوائل يوليه الماضي طلبت مني إدارة الليسيه
فرانسيه بالقاهرة أن أرافق الطلبة إلى باريس لزيارة
المعرض الاستعماري الدولي : فانشرح صدري لذلك ، ورحبت
بالرجوع إلى باريس : ولم يكن مضي على رحيلي عنها غير
أسابيع . ثم طلبت تفاصيل تلك الرحلة لأكون على بينة
من المصاعب التي يعانها المدرس حين يراقب الطلبة في
بلد زاخر مائج مثل باريس . فهالني أن رأيت نحو ثمانين
فتى وأربعين فتاة يستعدون للسفر إلى عروس السين ،
ورأيت « جدولاً » معقداً أشد التعقيد عن تفاصيل
السياحة وما يتبعها من زيارات رسمية وغير رسمية ،
فتذكرت أن الطلبة « أشقياء » وأنني لا أراقبهم في الفصل
إلا بجهد جهيد ، فكيف أروضهم على النظام في باريس
وهم كغنم الراعي مجتمعهم من هنا فيتفرقون من هناك !
عندئذ اعتذرت واكتفيت بحرّ مصر ، ورأيته في

هدوئه أجدى عليّ من مراقبة الطلبة في نسيم باريس
ثم مضى وقد الئيسيه فرانسويه إلى تلك الديار :
وبقيتُ في القاهرة أناضل الشيخ عبد المطلب والشيخ
الصعيدي ؛ فما أشنع ما جنيت على نفسي حين جانبت
الذاهبين إلى وادي الحياة واكتفيت بمناقشة من يرون أن
القرآن ليس من شواهد النثر الجاهلي أو أن لغة قحطان
لا تغاير لغة عدنان ، إلى آخر ما أطفأنا بهرده جمرات
الصيف !

يا زمان الخيِّف هل من عودةٍ
يسمح الدهر بها من بعد ضنٍّ
أرضينا بثنيات اللوى
عن زرود ؟ يا لها صفقة غبن !
سل أراك الجزع هل جادت بهِ
مزنةً روَّت تراها مثل جفني
وأحاديث الغصّي هل عامت
أنها تملك قلبي قبل أذني

لست أرتاع لخطب نازل
إنما اخوفُ لقلب مطمئن^٣

وتلك أبيات تصور لوعة صاحبها على الخيف والغضى
وزرود ، وهي ديار كانت أعز على أصحابها من باريس
عند عشاق باريس ، لأنها كانت كذلك مراتع طباء ،
ومعالم صباية ، ومعاهد فتون ، وكل ماء مع الهوى صدأ ،
وكل أرض مع المها باريس !

وبالأمس ذهبت إلى اللإسييه فرانسييه فوجدت الطلبة
وقد عادوا فرحين جذلين ، فتذكرت أنهم ظفروا بالخط
الأكبر حظ من يرى باريس لأول مرة ، وهي لأول
نظرة من أفن ما ترى العيون ، وبخاصة حي الشانزليزيه
وميدان الأثقاليد وما يحيط ببرج إيفل والتروكاديرو
والمدرسة الحربية .

أقبل الطلبة يحيوني ، فنظرت إليهم ولسان حالي

يقول :

كُتِّبُوا الأحاديث عن ليلى إذا بعُدتْ

إن الأحاديث عن ليلى اتليني

وليلاي هي مدينة السوربون والكوليج دي فرانس

ومدرسة اللغات الشرقية وطن أساتذتي وأهلي . حيث

عرفت من عرفت من كرام الرجال وكرام النساء .

ومن بينات الحب أن كان أهلها

أحبَّ إلى قلبي وعيني من أهلي

ثم أقبلتُ على الطلبة أحاورهم لأعرفَ ماذا استفادوا

من زيارة باريس

وهنا تقدمتُ إحدى الطالبات وقالت :

إن أهمَّ مراعني في باريس هو عدم الفضول ، فالفتاة

أو المرأة لا يُنظر إليها في باريس نظرة تُشعر بالفرق بين

جنس وجنس ، إنما هي « إنسان » عليه ما عليه من

واجبات وله ما له من حقوق . وليس بين الفتى والفتاة

أدنى فرق في مواجهة الحياة ، فالفتاة تعرف هناك أنها

مسئولة عن نفسها في كل شيء ، فعليها أن تتعلم وأن

تهذب لتستعدَّ للنضال في ميادين الكسب الشريف .
وقلما يخطر للفتاة أن تفكر في حماية أخيها أو ابن عمها
أو أحد من ذوي قرابتها ، كما يَقِلُّ أن تعتمد على زوجها
في حمل هموم المعاش . فالمرأة هناك عضوٌ حيٌّ لا عضوٌ
مشاؤل . والأسرة تتكاتف وتتعاون بعملها وجدها في حمل
أعباء البيت ، وكل فرد في الأسرة يعود عليها بشيء من
النفع ، جزيل أو قليل ، وهذا فيما رأيت هو سر ما عُرِفَ
عن فرنسا من الفنى الذي يعصبها من الاستهداف
للكوارث الاقتصادية : فان الفرنسيين يمتازون بميزتين :
العمل والادخار ، فكل فرنسي يعمل ، وكل فرنسي يدَّخر
جزءاً مما يكتسب . وبهذا لا يصل الرجل أو المرأة إلى
سن الأربعين إلا وقد جمع ثروة قيمة تنفعه في شيخوخته
وتقيه شر السؤال والاعتماد على الأهل والأصدقاء . ولو
أننا في مصر فهمنا الحياة كما يفهمها الفرنسيون لكننا من
أغنى الناس ، لأننا نملك أخصب أرض ، وأعذب نهر ،
وأصفى سماء ، ولكننا مع الأسف ترك في الأغلب هموم

العيش فوق كواهل عضو واحد من أعضاء الأسرة ، ثم
ينصرف سائر الأعضاء عن العمل : فهذا كهل يرى الشغل
مما ينافي الوقار ، وتلك سيدة ترى من حقها أن تنفق بلا
حساب ، وذلك شاب لا يرى غضاضة في أن يتجاوز
الثلاثين في الحياة المدرسية وهو يثقل كاهل والديه بلا
حياة . ولا كذلك الفرنسيون فانهم مع شح أرضهم ،
وقسوة جوهم ، وعبوس سمائمهم ، يتمتعون بثروة عظيمة ،
وحسبنا أن نعرف أنهم اليوم لا يعرفون ما الأزمة ولا
يعرف عمالهم ما العطلة ، وإنما ينظرون إلى أزمات العالم
نظر المتفرج ، لأنهم مولعون بالكسب والادخار . وهذا
أساس القوة : لأن الغنى له المقام الأول في حياة الشعوب
ثم تقدم أحد الطلبة فقال :

ولو سمحت زميلتي لأصنفت إلى كلامها أنني لم أر
الناس في باريس يتجمعون على القهوة في أوقات الفراغ ،
فالصباح كله وقت عمل من صدر النهار إلى الظهر ، ثم
يرى الناس في المطاعم وفي القهوة ، فإذا كانت الساعة

الثانية عاد الناس إلى أعمالهم وأقفرت المشارب إلى المساء :
لأن الفرنسي لا يتخذ القهوة « محلاً مختاراً » إلا في أوقات
المسكنة والذلة ، وهي الأوقات التي يُقضى فيها عليه أن
لا يجد ما يعمل ، وهو يشعر حين تخلو يده من العمل
أنه ذليل ، وليس في باريس ناس تجدهم حين تشاء في هذا
المشرب أو ذاك ، كما يقع كثيراً لأهل القاهرة الذين
يُغرون إخوانهم بالكسل ومحبيون إليهم التقاعد والخمول
عندئذ ابتسمتُ وقلت :

ولكني أعرف يا بني قهوات لا تخلو من « زبائن »
دأبين ، فيحسن أن لا تعمم الحكم بنشاط أهل باريس
وهنا تردد الطالب قليلاً ثم قال :

نعم هناك قهوات معمورة بزائريها في جميع الأوقات .
ولكنها لا تقع أبداً في الأحياء الشعبية التي لا يوجد بها
إلا الباريسيون ، إنما تقع تلك القهوات في الأحياء التي
يكثر فيها الأجانب مثل حيّ الأوبرا وحيّ الشانزليزيه والحيّ
اللاتيني . والأجانب كما تعرف يذهبون إلى باريس في

الأغلب حباً في لذات البطالة والفراغ : فهم وخدم رؤاد
المشارب والقهوات : وهم مظهر الكسل والخمول في تلك
البقاع ، والباريسيون ينظرون إليهم كما ينظرون إلى أصحاب
التيجان لأنهم يتوهمون أنهم منمورون بالسعة والثراء ،
وأنهم ليسوا في حاجة إلى السعي في طلب الرزق : لأن
كل أجنبي فارغ يتمثل لدى جماهيرهم من ورثة الكنوز
القديمة في الشرق أو من أغنياء الأمريكان

وبعد لحظات سألتهم عما رأوه في المتاحف من آيات
المجد والفن ، فتقدم أحدهم وقال :

إن أجمل ما رأيته وأبقاه أثراً في نفسي هو تلك

اللوحة التي قرأتها في البانتيون (مدفن العظام)

النصر أو الموت

Vaincre ou mourir

وهي شعار الفرنسيين الذين يغلو الدم في رءوسهم

كلما أحسوا بضميم أو توقعوا أن ينالهم أحد بهوان

وقد صحت عزيمتنا على أن يكون شعارنا كذلك :

« النصر أو الموت » فانه لا حياة بلا كرامة ، ولا كرامة بلا حياة ، وقد تلقينا في دروس اللغة العربية أن عليّ بن أبي طالب قال :

« الناس من خوف الذل في ذل ، ومن خوف الفقر في فقر »

فمن واجب المصري أن لا يرى للموت درجات بعضها محتملٌ وبعضها بغيض ، فان هذه سياسة لا تليق بغير المبيد . وإنما يجب على الرجل الحر أن يفهم أنه ليس بعد الحياة إلا الموت . والحياة التي تليق بالمصري الحر هي حياة الكرامة والاعزاز ، وما عداها موتٌ ذريع لا يُقاوت بين طبقاته إلا الأذلون . ورحم الله أبا فراس إذ قال :

وَمَنْ أَنَسٌ لَا تَفَاوَتْ بَيْنَنَا

لَنَا الصِّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ

فان سألتني ما ذا رأيت في المتاحف والمزارات فلن

أقدم لك غير هذه الكلمة « النصر أو الموت » وليتك

تختارها موضوع إنشاء : ليتمكن رفاقي من شرح ما فيها
من معان وأسرار

- ثم ماذا يا أطفالي ؟ هاتوا ما عندكم من طيبات

الأحاديث !

عندئذ تقدم أحد الطلاب وقال :

لقد استقبلنا رئيس الجمهورية في قصره ، وتقبلنا تحيته

بأحسن قبول

قلت : وكيف كان شعوركم يومذاك ؟

فأجاب : شعرنا بالعزة والكرامة : أدركنا أننا

نُكْرَم من أجل مصر ، فلو كانت مصر بلداً مهيناً لما

استطعنا أن ندخل قصر رئيس الجمهورية مُكرمين .

وقد اتخذنا من تلك الحفاوة درساً وطنياً ان ننسأه على

الأيام : فان رئيس الجمهورية لا يرى في طلبة اللبسيه

فرانسيه إلا شباناً يتعلمون لغته في بلادهم ويؤثرونها على

غيرها من اللغات الحية ، وفي ذلك عبرة لنا : لأن الذي

يتعلم لغة قوم ينتقل جزء من قلبه إليهم . ومن أجل

هذا قدرنا أساتذتنا الذين يبذلون من الجهد ما يبذلون
ليجعلوا حظ اللغة العربية في اللغسيه أعلا من حظ اللغة
الفرنسية . فنحن يجب أن نكون لأنفسنا قبل أن
نكون لأحد من الناس ، والفرنسيون لا يطمعون منا
في غير ذلك حين تتعلم في معاهدهم العامية . ونحن جديرون
بأن نفرض احترامنا على الأجانب بما نريهم من حرصنا
على قوميتنا وضمنا بالاندماج في أية هيئة أجنبية . لأن
الذي لا يحترم نفسه ولا يضمن بكرامته خليق بأن
يسومه الناس سوء الهوان .

قلت : هناك معان أخرى وددت لو تنبهتم إليها .

فتقدمت إحدى الطالبات وقالت :

لعلك تريد الديمقراطية ، فقد شعرنا بأنسٍ بالغ حين
صافحنا رئيس الجمهورية وسألنا عما لقينا في سفرنا من تعب
وما لقينا في باريس من ارتياح ، فإن من المؤنس حقاً أن
يصافحك مصافحة المؤاساة والرفق رجلٌ يملك كل شيء في

فرنسا ولا يمنع مركزه من التنازل بامتنع فريقت من
الشبان المصريين .

قلت : كل هذا جميل : ولكن اسمحي لي يا بنتي
أن أقدم لك بعض التصحيح : فان رئيس الجمهورية
الفرنسية لا يملك شيئاً في فرنسا : والأمر كله للشعب :
فليس هناك سيد ولا مسود : لأن أمرهم شورى بينهم ،
ولأن الفرنسي أصلب عوداً وأقوى نفساً من أن يترك
أمره لرجل فرد يسوسه كيف شاء : في زمن لا سلطان
فيه لغير الشورى والقانون ، فان سمعتم أن هذا العصر من
أزهى العصور في تاريخ الانسانية فاذكروا أن ذلك بفضل
الحرية المدنية التي جعلت كل امرئ سيد نفسه ومكنته
من تمرين ملكاته الفنية والأدبية والادارية ، وأعانتته على
استغلال مواهبه لمصاحته ومصالحة المجتمع : لا لمصلحة
الملوك المستبدين كما كان الحال في الزمن القديم : فتلك
عهود كان الناس يعملون فيها لفرد واحد فكان نشاطهم
مشلولاً لأنهم كانوا مسخرين ، وكانت متع الحياة لديهم

لا تزيد عما يجده الأرقاء من لذة الخضوع ، فإن الدليل
يجد لذة في خضوعه لسيده ، ولكنها لذة منحطة تذكر
بما يجد الكلاب من لذة الطاعة والامتثال . والنعيم درجات
فبعضه للضعفاء ، وبعضه للأقوياء . وفي هذا تفسير لرأي
المتنبي إذ قال :

ذلّ من يغبط الدليل بعيش

رب عيش الذئب منه الحمام

فقد يكون الدليل أسعد الناس بذله لأنه لا يستطيع
العيش إلا في حمى من يملك رقه من الأقوياء الغالبين ،
ولكن كرام النفوس يرون بعض السعادة أمراً من
الصاب ، ويرون بعض الشقاء لونا من النعيم ، وليس
للسعادة ولا للشقاء رسوم وحدود ، وإنما نشق ونسعد
حسبما نشاء أنفسنا من قناعة أو طموح . وتلك المشيئة
تربّي في الأمم وفي الأفراد ، وتحتاج في تربيتها إلى رياضة
شديدة ، لأن أكثر الناس مفلطرون على الدعة والخمول...
ألم يُخلقوا من التراب ؟

عند ذلك ابتسم أحد الطلبة وقال :

هذا يناقض ما تروضنا عليه من النظام ، وفي هذا دعوة إلى الثورة على طمانينة التقاليد .

فأجبت : أنا أروضكم على النظام على شرط أن يكون من صنع أيديكم ، وأن تكون لكم إرادة في إقراره والدعوة إليه ، ولست أدعوكم إلى الثورة على طمانينة التقاليد ، وإنما أحارب « بلادة » التقاليد ، لأن هذه اللفظة تتضمن معنى القرار والسكون ، والرضا بما كان ، والزهد في تعديل ما سيكون . والرضا والبلادة كلمتان متقاربتان لأن الحياة في طبيعتها ثورة على القبح ، وشوق إلى الحُسن . وكل راضٍ بحظه ميت نوعاً من الموت ، لأن الرضا سلبٌ والحياة إيجاب . وكل شيء في الدنيا يمثل الحرب القائمة بين الحركة والسكون ، والعدم والوجود . فتخيروا لأنفسكم ما تشاءون ، ولا تنسوا أن الحركة بشير الحياة ، وأن الجمود نذير الفناء

وهنا تقدم أحد طلبة الفلسفة وقال :

لا أفهم كيف يكون السكون قوة تحارب الحركة ،
ولا كيف يكون العدم قوة تجاهد الوجود .

فقلت : ستفهم على الأيام أن العدم والسكون من
الكائنات ذوات الوجود : فإن الذي يجده بعض الناس من
لذة الراحة والفراغ والاستكانة والخضوع ، وما إلى ذلك
من اللذات السلبية . كل ذلك دليل على أن هناك حيوية
في نواحي العدم والسكون : وهي حيوية تجتذب إليها
النفوس التي لا يستهويها من متاع الحياة إلا الجانب السلبي
الخشيس !

أيها القارىء !

تلك شذرات من محاوراة كانت بيني وبين طالبة
الليسيه فرانسيه العائدين من باريس بعد زيارة المعرض
الاستعماري الدولي ، فاقراً إن شئت هذه الكلمات وتأملها ،
فقد تعود عليك بأجزل النفع .

أول أكتوبر سنة ١٩٣١

المدرسون والطلاب

في شهر ابريل

لست أدري كيف يُفرض علينا ألاّ نقرأ في الصحف المصرية إلا أخباراً جديدةٍ صرفةٍ يغلب عليها الجفاف ، مع أن في الحياة جوانب فكهة لا تخاو من اللعابات الفطرية التي يساق إليها الناس من حيث لا يشعرون . وقد مرت أسابيع والصحف تطالعنا كل يوم بأزمات جديدة حتى خفنا نتائج الاقتناع بأن الحياة كلها جدٌّ عابس أو شر مستطير . فليسمح لي القراء هذه المرة بمخالفة ما درجت عليه مع سائر الكتاب من إيثار الجِدِّ الصُّراح ، ولكن ليعلموا أنني لا أمزح ابتغاء الترفيه عنهم ، وإنما أتقل بعض الصور الحية لحياة المدارس المصرية في شهر ابريل ، وهي صور واقعية تثير الضحك عند من يفكر فيها ، وبخاصة طلبة المدارس والمدرسين ، وكل من قاده حسن الحظ أو نكد

الطالع إلى أن يدخل مدرسة مصرية ويشاهد أحوال
الدراسة في شهر ابريل

أساس البحث :

هناك قاعدة وضعها أحد أساتذة الأزهر القدامى وهى :
« في أول العام الدراسي يوجد طلبة ومدرسون ، وفي
وسط العام يوجد مدرسون ولكن لا يوجد طلبة ، وفي
آخر العام لا يوجد طلبة ولا مدرسون ! »

وهذه القاعدة تنطبق تمام الانطباق على المدارس
المصرية ، فـ شهر ابريل هو شهر الخمود ، بالرغم من
صياح النظار والمدرسين ، ولكنه خمود مزيف في حياة
مزيقة ، فالطلبة والأساتذة يتكافون النشاط أو يتكافون
الخمود ، كل ذلك يجري بطريقة آلية لا تدري أتصدر
عن قوم أحياء أم أموات ، وكل ما في الأمر أن المدارس
فيها مواظبة ومراقبة وامتحانات شهرية وفسحة

المدرس الحيران :

في وسط هذا الجو يوجد مدرس يشبه أم العروسة
« فاضية وملخومة » وهو جدير بأن يلقَّب بالمدرس الحيران ،
ذلك المدرس هو الانسان المسكين الذي تثق به إدارة
المدرسة فتعطيه الفرق التي ستنتقدم إلي الامتحانات
العمومية في وزارة المعارف « العمومية أيضا » وهذا
المدرس أنا أعرفه كل المعرفة ، وعهدي به يحرص على أن
يعيش عيشة منظمة ليحتفظ بنشاطه ولايستطيع إعداد
تلامذته للامتحان ، وإلى القارىء بعض ما يقاسي ذلك
المدرس الحيران :

يدخل الفصل وهو مملوءٌ بالنشاط أو تكلف النشاط ،
ثم يصيح في الطلبة أن اسمعوا وعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا
ثم يقصد إلى أشد الطلبة تكاسلا فيدعوه إلى السُّبُورَة
فيقوم الطالب يجرّ رجله في تباطؤٍ وخمول ، فيأمره
الأستاذ بكتابة سؤال ، ثم يدعو الطلبة إلى الاشتراك
في الجواب

ثم تمرّ لحظات يشعر فيها حضرة المدرس الخيران بأن
الحالة على ما يرام ، ولكنه يفاجأ بعد بضع دقائق بتلاميذ
يطلب الإذن بالخروج ، فاذا سأل عن السبب أجاب الطالب
بأنه سيستأذن الناظر ويذهب إلى البيت لأنه يشعر بصداغ
ثم يفاجأ حضرة المدرس الخيران مرة ثانية بتلاميذ اتكأ على
مكتبه ونام ، فاذا سأل ما خطبهم أجاب التلاميذ بأنه قضى
الليل إلا أقله في مراجعة المقرر وأنه لذلك لا يستطيع
أن يتناسك !!

عندئذ يأخذ المدرس الخيران في إسداء النصيحة للطلبة
بأن ينظموا أوقات المذاكرة وألا يسرفوا في السهر ،
لأن ذلك قد يجني على صحتهم ويفسوت عليهم الغرض
المشود . يقول ذلك بالهجة حازمة ليظهر بمظهر المعلمين
إلى أن تلامذته مشغولون بأنفسهم ، معنيون بواجباتهم ،
ويعزُّ عليه أن يصارحهم بأن فريقاً منهم قد يسهر الليل
في غير الدرس والتحصيل كما يفعل أكثر تلامذة القرن
العشرين !

أهذر من أنذر :

ولحضرة المدرس طُرقَ عديدة في توجيه أذهان الطلبة إلى الوعي والحفظ ، منها أنه يقف حين المراجعة وقفة التثبيت عند كل نقطة ويقول : « هذه مسألة مهمة جداً جداً ، وأترقب أن تجيء في الامتحان » ثم يأخذ في الشرح والتوضيح والإعادة ، ولكنه مع الأسف لا ينفك ينصح ويحذّر حتى يدرك الطلبة - وأكثرهم أذكاء - أن هذا التشدد ليس إلا وسيلة لا يقاط أذهانهم وأنه ليس من المعقول أن تجيء أسئلة الامتحان في جميع مواد المقرر وبذلك يطمئنون إلى أن هذا تهويشٌ أساندة ويعاودون الكسل والخمود

مفول المكرونة

وقد أذكر أن أحد المدرسين الحيارى الذين يدرسون لطالبة الكفاءة سُئل مرة : لماذا نشأت النبوات كلها في الشرق ولم ينشأ نبيٌ واحد في الغرب ؟ فأجاب المدرس بأن ذلك مرجعه طبيعة الأرض . عند ذلك ثار الطلبة

قائلين : كيف تؤثر طبيعة الأرض في ذلك ؟ وأراد المدرس
الخيران أن يمزح فقال :

« ليس معنى ذلك أن الأنبياء ينبتون في آسيا كما
تنبت المكرونة في إيطاليا »

ولكنه ما كاد يتم الجملة حتى صرخ الطالبة : هذا محال
إن المكرونة تصنع من العجين

وأراد الأستاذ أن يمضي في النكتة فقال :

- من الذي يعلمكم الجغرافيا ؟

- ابراهيم افندي

- هل درس لكم جغرافية إيطاليا ؟

- نعم !

- وكيف أهمل الكلام عن حقول المكرونة في

تلك البلاد ؟

- يظهر يا افندي أنها غير مقررة على طلبة

الكفاءة !

ويذكر ذلك المدرس الخيران أن الطلبة اجتمعوا عند

فسحة الساعة العاشرة في حديقة المدرسة وتناولوا المسألة
بالبحث والتحقيق ، واتضح لهم بعد لأي أن المكرونة
لا تُزرَع ، إلا أن تكون هناك أنواع جديدة لا يعرفها
المصريون !

وبعد أيام من تلك المشكلة وُفق أحد أساتذة اللغة
العربية إلى حل : ذلك أن حقول المكرونة في ايطاليا
صحيحة ، ولكنها مجاز ، على حد قولهم . رعينا الغيث ...
والله أعلم بالصواب !

ومن يدري فاعل حقول المكرونة صحيحة أو لعلها
أكذوبة لطيفة من أكاذيب ابريل .

سُئل سحرة :

وفي أول يوم من أبريل تجمّع الطلبة المصريون في
مدرسة أجنبية بالقاهرة ولوّنوا ملابسهم بالطباشير في
خطوط تجمع بين الاستقامة والاعوجاج ، وتمّ لهم
ما أرادوا أثناء الدرس في لحظات قصيرة ، وتنبه المدرس
الخيران فجأة إلى صنعهم فقال في حدة وانفعال : ما هذا

الذي تصنعون ؟ فأجاب أحد الطلبة في ابتسام :

« ولماذا ينفرد الأجانب بالمسخرة ؟ » .

آمنا وصدقنا ! لماذا ينفرد الأجانب بالمسخرة أو الكرنفال ؟ أنكون أقل منهم حتى في هذه الشؤون ؟ هذا كلام يقال . ولكن لا تنسوا أيها المخدوعون أن الأجانب يلعبون بعد الجد ، أما أنتم فأخشى أن تكون حياتكم سلسلة الأعيب ، ولكنكم لا تشعرون !

القطر الرابع :

يعرف كل من اشتغل بالتدريس أن نظام المدارس يراقبون المدرسين مراقبة مستمرة فيما يتعلق بإتمام المقررات ، ويرون أن المدرس الماهر هو الذي يتم المقرر بسرعة ليتمكن من إعادته ، وكان الطلبة فيما ساف هم الذين يعطون المدرسين ويحولون بكسلهم دون الإسراع في إتمام المقررات .

والحال في هذا العام يختلف عن الأعوام السالفة أشد الاختلاف ، فان الطلبة الذين سيتقدمون للامتحانات

العمومية في مدارس الحكومة خاصة يُلاحَظون إلحاحاً شديداً في إتمام المقررات ، ولكن لا تحسب أنهم يفعلون ذلك جيداً ونشاطاً : هيئات هيئات ! إنهم يفعلون ذلك لينجوا من دفع القسط الرابع ! !

فليلاحظ ذلك معالي وزير المعارف : وليأمر بإضافة جزء جديد إلى مقرر الكفاءة والبيكالوريا ، قبل أن « يطير » باقي المصروفات !

شعراء أبريل :

ومن أوضح الظواهر في شهر أبريل اهتمام الطلبة بقرض الشعر بحيث يصح تلقيبهم بشعراء أبريل : ألم يقل الأقدمون أعذب الشعر أ كذبه ؟ وأي وقت أصلح للكذب من شهر أبريل !

فاذا رأيت جماعة من الطلبة يتجمعون في فناء مدرسة أو في أحد الفصول أو في شارع أو في حارة فاعلم أنهم قد التفوا حول شعور من الشعاري ، والشعاري طبقة حدثنا عنها الجاحظ في كتبه ولم نعرفها بالميان إلا حين

نشرفنا بالتعرف إلى شعراء ابريل .

ومن خصائص هؤلاء الشعاري السطو على نفائس
الشعر القديم ، وأريد به الشعر الذي كان يروج في مصر
والشام منذ نحو ثلاثة قرون : فقد انتهب شعور منهم
هذين البيتين :

يا مُحْرَقًا بالنار قلب محبه

مبلا فان مدامعي تُطفئيه

أحرق بها جسدي وكل جوارحي

واحرص على قابي فانك فيه

ثم أخذ يطوف بهما على مدرسي الرياضة أولا وعلى
التلامذة ثانياً ، فكان يقابل بالاعجاب ، ثم قاده النرق
والغرور إلى عرضهما على أحد أساتذة اللغة العربية ، وكان
ذلك الأستاذ يحفظ أشعاراً كثيرة منها هذان البيتان :
فقال للطالب هذا ليس من شعرك ، إنه شعر قديم ،
فأقسم التلميذ بشرف والده بأن الشعر شعره وأنه تلقاه عن

وحي خاطره في ليلة مقمرة وهو يطوف بحدائق الجزيرة
بين الشجر والنخيل .

حيوانات

نعود إلى ما يعطل به المدرس الحيران نفسه حين
يرى تلامذته كسالى مصروفين عن المراجعة والتحصيل ،
وعهدى به يتفلسف فيقول : لا خطر ولا خوف ،
فسينشط هؤلاء التلامذة لواجباتهم حين يقترب الامتحان :
أليسوا كسائر الحيوانات يدفعهم تنازع البقاء إلى الكدح
في سبيل الغنم والنجاح ؟ إنهم الآن يتباطأون ويتكاسلون ،
ولكن مهلاً فالإنسان حيوان لثيم ، وسيعرف هؤلاء
اللثام كيف يقاومون الكسل فراراً من شماتة الأعداء .

فإلى الأمام يا أسراب الحيوان الناطق !

الطبيعة والإنسان :

رحم الله من قال :

إن الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان ولكن يفسد الناسُ

وإنه لمحزن أن نرى الطبيعة تأخذ زيتها في شهر ابريل ؛
على حين يحمد المدرسون والطلاب . والتعليل واضح فان
الطبيعة تستريح في الشتاء ثم تستيقظ في الربيع ، أما
المدرسون والطلاب فيفنون نشاطهم في أشهر الشتاء ؛ فاذا
جاء الربيع وجدهم أجساماً بلا أرواح .

فهل من منصف حكيم ينقل مواعيد الامتحانات
العمومية ليؤديها التلامذة في فصل الشتاء فصل النشاط ،
بدلاً من تأديتها في أوائل فصل الصيف فصل الخمود ؟
الحمد لله :

أكتب هذا وأنا أذكر أن إخواني المدرسين قد
نجوا من مضايقات الامتحانات المدرسية ؛ ولم يبق إلا أن
يتحكموا في مصير الطلاب عند التصحيح ، فلينظر الطلبة
إلى مصالحهم ، وليعرفوا شغلهم ؛ فقد نجونا والحمد لله !
ومن ظفر باجابة تلميذ فليمزقها طويلاً وعرضاً وشمالاً
وجنوباً ولفظاً ومعنى فقد لقينا منهم ومن زملائهم شعراء
ابريل أقصى صنوف العناء !

أيها الطلبة والمدرسون

تعاونوا على قتل هذا الشهر الثقيل : فان الله في عون

العبد ما كان العبد في عون أخيه ، والمدرسون والطلاب

إخوان تجمع بينهم الكتب والكراريس

ويرحم الله من قال :

فيم التخاذل في « أبريل » بينكم

وأتم يا عباد الله إخوان

أول أبريل سنة ١٩٣٢ .

شواطئ الاسكندرية بين الهدى والضلال^(١)

المصاييف المصرية :

شغلتنى المصاييف الفرنسية ستة أعوام عن المصاييف المصرية ، فعدت لا أعرف إلا قليلاً عما جدَّ في مصاييف هذه البلاد ، ثم اتفق أنى أقبلت على مصييفى في سنتريس لأظفر بسجعة طريفة فأقول : « من سنتريس إلى باريس ومن باريس إلى سنتريس » كما سافر الصاحب بن عباد عهداً إلى النوبهار ليكتب إلى أبى الفضل بن العميد فيقول : « أكتب إليك من النوبهار ، في وسط النهار » فالحرص على السجع هو الذى شغلنى عن الشواطئ في هذا الصيف ، وهو حرصٌ له قيمته عند رجل أغرم أعواماً طوالاً

بدراسة النثر الفنى في القرن الرابع ا

(١) المؤلف كتاب جديد موضوعة « أدب الشواطئ في اللغة العربية »

وسيتظهر بعد قليل .

ولكنني مع ذلك قضيت أياماً في الاسكندرية من
أواخر أغسطس وأياماً من أوائل سبتمبر تبينت فيها ما جدَّ
في تلك الشواطىء التي صُرِفَت عنها منذ سنة ١٩٢٥ ويمكن
الحكم بأن تلك الشواطىء أصبحت على جانب من الجاذبية ،
وهذا غنمٌ عظيمٌ لمصر التي أمست مصايفها مهددة
بالمصايف الشرفية والغربية حيث يعرف طلاب الرزق
في الشرق والغرب كيف يخلبون ألباب المصريين

مأثرٌ مزيفةٌ :

وقد اهتم فريق من الصحفيين في هذا العام بنقد
ما زعموا أنهم شاهدوه في شواطىء الاسكندرية من العبث
والمجون . ولأولئك الصحفيين عذر مقبول : فهم يريدون أن
يقفوا موقف الواعظين يخللون الحلال ويحرمون الحرام في
زاهة وإخلاص ، وفاتهم أن نقد ما توهموه في الشواطىء من
عبث ومجون كان من أكبر الدعايات لزيارة تلك البقاع .
والشر لا يفتن الناس ولا يستهوي ألبابهم إلا حين ينهون
عنه ، وصدق أبو العلاء حين قال :

الظوا بالقبيح فتابعوه

ولو أمروا به لتجنبوه

والشواطىء بطبيعتها تذكر الانسان بحياته الفطرية
التي غيرتها الشرائع والقوانين . والانسان حيوان بري ،
ولكن فيه نزعة بحرية ترجع إلى عهده القديم يوم كان
لا يسكن إلا شطوط الأنهار وشواطىء البحار ، وآية ذلك
أنه يتهالك على الماء تهالكاً شديداً ، ويستأنس إذا خاضه ،
ويمجد فيه روحاً لا يجده إذا عاد إلى اليابسة ، وهو إذا
تعلم السباحة لا ينساها أبداً ولو تركها عشرات السنين ،
والسباحة هي العلم الوحيد الذي لا ينساه الانسان ، وفي
هذا دليل على أنه في أصل خلقته حيوان صالح لحياة الماء
ومن شواهد ما تبعته الشواطىء من حياة الفطرة
الأولى ما وقع هذا الصيف بين اسحق حامي ووزير النمسا ،
فقد أراد الوزير أن يعتصم بمنصبه ، وهو منصب يعصم
صاحبه على البرّ وهو في الملابس الرسمية ، ولكنه إذا وقف
على الشاطىء عريان لا يستره إلا قميص البحر الشفاف

وأعلن أنه وزيرٌ هزَّ الناسَ أكتافهم وهانت عليهم التقاليد
الوضعية ، لأن الرجل العريان لا يعصمه منصبه ولا جاهه
ولكن يعصمه السلاح الأول الذي يفض المشاكل في الحياة
الطبيعية وهو القوة ، فلو أن وزير النساء كان بملابسه
وقدم اسمه إلى اسحق حامي لعرف ملاحظ الشواطىء أن
التقاليد الرسمية تعطي الوزير حقوقاً يتميز بها عن سواه
ولكنه نوّه بنفسه وبمنصبه وهو عريان ، فلم يكن بدَّ
من أن تحيا الطبيعة الأولى التي تقضي لسكان الشواطىء
بالمساواة في الحقوق . والشواطىء باب البحر الأعظم الذي
لا يعرف صغيراً ولا كبيراً ، وإنما يتعرف الناس إليه بما
منحتهم الطبيعة من قوة جسمية وجبروت محسوس

وقد يتفق لزائري الشواطىء أن لا يفضوا أبصارهم
عمن يستقبلهم البحر في الضحى والأصيل ، أفيظن القاري
أن أعين المتطلعين تتوسم مظاهر الحياة الرسمية فيمن تحمل
الشواطىء ؟ هيئات إن العيون لا تقع إلا على من ميزتهم
الطبيعة بميزات حسية ، وأعطتهم من ملاحظة الشائل ،

وسلامة الجوارح ، ما يجعلهم أقرب إلى النفوس ، وأحب إلى القلوب .

مذهب العري :

وهناك سبب مهم من أسباب تطور الحياة في المصايف المصرية لم يفتن إليه أولئك الصحفيون : وهو انتشار مذهب العري . فان مصر كسائر الأقطار تتصل بالحياة العالمية اتصالاً وثيقاً ، وتُنقل إليها المذاهب الأدبية والاجتماعية عن طريق الصحف والمجلات . وكل خير يُنشر يترك في الجمهور أثراً ثم يأخذ في التأصل والاستقرار حتى ينقلب إلى رأي . وكذلك كانت الحال في نشر مذهب العري الذي دافع عنه بعض الألمانين واضطرت الحكومة هناك إلى مقاومته بالعنف . وأنا لا أقول بأن المصريين أصبح لهم في العري مذهب ، لا ، ولكنني أجزم بأن لشيوع هذه الفكرة أثراً في التسامح الذي نرى اليوم آثاره في الشواطئ المصرية . وقد رأيت بنفسى شاباً له قيمة أدبية وله مستقبل مرموق يحضر إلى شاطئ

ستانلي ومعه خطيبته فأظهرتُ له دهشتي فاكتفى باقناعي
بأن خطيبته لا تنزل الماء ، وإنما تكتفي بالتفرج على
السابحين والسابحات من رواد الشواطئ . ورأيت رجلاً
مشهوراً من مدرسي المعاهد الدينية بثياب البحر وهو يغدو
ويروح على الرمال ، فلما تبادلنا التحيات وهنأته على شجاعته
اكتفى بأن يقول : « صلِّ على النبي ! لا حدَّ شاف
الجل ولا حدَّ شاف الجمال ! » فقلت له اطمئن فلن أنشر
شيئاً من أخبارك

منجم هيريد :

هذا المنجم أو الساحر الجديد هو أديب أعرفه كما
أعرف نفسي ، ذهب إلى شاطئ ستانلي في يوم الأحد
الماضي وأخذ يتنقل من عشٍّ إلى عش ومن مظلة إلى
مظلة حتى عثر ببعض معارفه هناك ، وكان فيمن يعرف
فتاة هيفاء أسيلة اخذ مشرقة الجبين ، فرمى نفسه رمياً
تحت مظلتها فقدمت له كرسيّاً صغيراً جلس عليه ،
واضطجعتُ تلاعب حبات الرمل على الشاطئ المأهول .

جلس صاحبنا لحظات يتأمل فيها صنع الله ويمد عينيه بشره صارخ إلى ما يعمر الشاطئ من أسراب الملاح ، ثم بدا له أن يدرس بعض طبائع الحسان فزعم أنه ساحر وأنه يعرف ما استتر في عالم الغيوب ، وتقدم إلى تلك الهيفاء يسألها أن تسمح بأن « يشوف بختها » فمدت له يدها في رفق فوضع مقداراً من الرمل وتم بكلمات قصيرة ثم ألقى الرمل على الأرض وشرع ينجم على الطريقة الهندية. وفي تلك اللحظة مرَّ منجم هندي يعرفه جميع المصطافين في شواطئ الإسكندرية فصاح صاحبنا الأديب :

« ماذا يصنع هنا هذا الهندي النصاب ؟ هاتوه لأختبره وايرى الملاء من المصطافين أينما أعرف بضروب السحر وأينما أهدى إلى كشف الغيوب »

وكان مع المنجم الهندي رفيق يفهم العربية فالخص له هذا التحدي فانفتل الهندي مسرعاً لئلا يفتضح أمره واعتذر بأنه لا يحسن « ضرب الرمل » وإنما يحسن قراءة « الكف » فصاح صاحبنا الأديب :

« وأين تعلم هذا الجلف قراءة الكف ؟ هاأوه
لأخبره ، فقد تلقيت بهذا الفن عن كبار الأساتذة في
جامعة باريس ، وسأريكم أنه نصاب محتمل ! »
وما كاد ينتهي هذا المنظر حتى هرب الهنديّ وغاب
شبهه عن الأبصار ، وجلس صاحبنا الأديب جلسة الظافر
المنتصر وقد التف حوله حسان الشاطيّ يقمصن عليه
ما وقع لهن مع ذلك الخدّاع ، واستوى صاحبنا على عرش
السحر وحوله نطاق من الغواني المخطبجات على الرمال .
وقد رأيت أن أستمتع بهذا المنظر وأن أرسم بعض
ماراقي من صورهِ الروائع ، وإني لأذكر أن إنسانة
تقدمت إلى ذلك الأديب وقالت في حنان :

« من فضلك شوف لي بحتي ياسيدي البيه ؟ »

فأخذ كفها يقرأ خطوطه ، ثم مسح نظارته وأحكم
وضعها على عينيه لئلا يفوته شيء من أسرار تلك الخطوط ،
ثم ابتداء يقول :

المنجم - اسمعي يا ستي ! أنا لا أقول إلا الحق : فإن

آلمك شيء مما أقول فاصبري فلست ممن يموهون الكلام
استدراراً للمال !

الحسناء - اسم الله على مقامك ياسيدي البيه ، قل
ما تشاء !

المنجم - أنا لا أقول ما أشاء ، وإنما أشرح ما يوحي به
الرمل !

الحسناء - هل يوحي الرمل بما يوجب هذا التحفظ ؟
المنجم - اطمئني ! إن الرمل يحدثني بأن « لك ناس :
في الوشّ مراية : وفي القفا سلاية »

الحسناء - والنبي صحيح ياسيدي ، جامم لهو خفي !
المنجم - ويحدثني الرمل أيضاً ياستي بأن قلبك
مشغول .

الحسناء - قلبي مشغول ؟ أبداً أبداً ، قل غير هذا
الكلام !

المنجم - ليس من شأنني أن أفتری عليك ، إن
الرمل يؤكد أن قلبك مشغول .

الحسناء - كل واحد في الدنيا قلبه مشغول .

المنجم - ولكن شغلك أنت ياستي خطرٌ جداً . ولو

سمحت لبحت لك بشيء منه

الحسناء - ما هو هذا الشغل ؟

المنجم - هناك إنسان يحبك وأنت لا تحبينه ،

وهناك إنسان تحبينه ولكنه لا يزال طفلاً لا يعرف

الحب !

«وهنا تنهد الحسناء فيضحك الحاضرون جميعاً ويلقون

على المنجم نظرات الإعجاب»

الحسناء - كل المنجمين يتكلمون على الحب؟!

المنجم - نعم ، ولكن أكثرهم يفترون ، أما أنا فلا

أتكلم في الحب بغير الحق ، ولا أقول غير الصدق ،

ولست أفترى ، إنما أشرح ما يوحى به الرمل

الحسناء - قد يكذب الرمل أحياناً

المنجم - أنا معك في أن الرمل قد يكذب ، ولكنه

يتهيب الكذب في حضرة الفلاسفة

الحسناء - وأنت فيلسوف ؟

المنجم - فيلسوف عظيم !

الحسناء - وماذا توصي به لصرف شواغل الحب

ياسيدي الفيلسوف ؟

المنجم - أمرك وأمري إلى الهوى ، يا بنت

أفروديت^(١)!

٩ سبتمبر سنة ١٩٣٢

(١) لهذا الحوار صورة ثانية في كتاب « ليلي المريضة في العراق »

مضبطة مجلس الشعراء

اجتمع فريق من الشعراء في مساء الجمعة الماضي بدار
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وتحدثوا طويلاً ثم رأوا أن
يذيعوا بعض القرارات التي انتهى اليها ذلك الاجتماع ،
وفي صباح السبت ظهرت جريدة الاهرام وفيها خلاصة
لقراراتهم ، وفي مساء السبت نفسه ظهرت جريدة البلاغ
وفيها خلاصة من القرارات تغير ما نشر في جريدة
الأهرام . فأبي الصورتين أصح ؟ ما نشرت الاهرام ؟ أم
ما نشر البلاغ ؟

لقد أخذتني الحيرة حين فوحت بالتناقض بين
الروايتين ، وندمت مرّ الندم على أن فرطت في تدوين
تلك الأحاديث ، وكنت من الشاهدين ، وعدت أتوسل
إلى ذاكرتي أن تملي عليّ صورة صحيحة تفصل بين رواية
الاهرام ورواية البلاغ ، ولكن ذاكرتي خذتني هذه

المرّة ، وأسرفتُ في البخل والتمنع ، افعزمتُ على أن أنظم صورة جديدة لمناقشات الشعراء ، ولكني خفت أن يتهموني بصنع الأقاويل ، وأن يذيعوا في الجمهور أن من عادتي خلق الأحاديث ، وقد اتهموني أمس ظاهراً بأنني افتريت على التاريخ حين تحدثت عن كتاب شيث ابن عربانوس ، رحمة الله عليه ، وأنا رجل يظامه معاصروه : أقضي سواد الليل وبياض النهار في البحث والدرس ، فإذا جئت أنشر نتيجة ما بحثتُ وما درستُ قام السفهاء فعارضوا وتلوّموا وأسرفوا في الزور والبهتان . وقد بلغ بهم الافك أن أفسدوا بيني وبين صديقي (أبجد أفندي) وهو رجل مطلع كنت أفزع اليه أستعينه كلما عجزت عن إعداد ما أقدمه للقراء .

ماذا أصنع ؟ يا الله من بخل الخيال ! ويا الله من هرب

الحقائق !

لقد اجتمع الشعراء وانفضوا ، ثم اختلفت عنهم

الأحاديث ، فما هو الزائف وما هو الصحيح ؟

لا تزعج أيها القارئ ، فقد هداني الله صباح الأحد إلى طريق الخلاص ... تذكرت أن عندي ورقة من أوراق السحر ، تلقيتها في العام الماضي من أحد المتأدين ، وهو شابٌ ورث عن جده مكتبة عظيمة أكثرها مخطوط ، وكان ذلك الجد من كبار العلماء . والورقة فيها « فائدة » مهمة تنفع في استدراك ما ندد من جيد الأحاديث . ونصها بالحرف :

« إذا أردت أن تتمثل حديثاً ضاع من ذا كرتك فخذ قليلاً من ماء الزعفران ورشه على كاغد أبيض ثم اقرأ الصمدية والمعوذتين سبع مرات بصوت مرتفع في المكان الذي وقع فيه الحديث ، ووجهك تجاه الكعبة المشرفة ، بحضور قلب ، ثم اطو الورقة نحو ساعة ، وانشرها بعد ذلك تجد الحديث بحروفه . وهذا مجرب صحيح . وبالله التوفيق . »

قرأت هذه « الفائدة » وضحكت ، ثم قلت : ما عسى أن يظن القراء إذا فاتهم بهذه الخرافات ! ورأيت أخيراً

أن « أجرب » فقد تكون « ظنون » الأولين أصدق من « علوم » المتأخرين .

ولكن كيف أذهب إلى لجنة التأليف من دون مناسبة ؟ وكيف أحمل الكاغد وماء الزعفران ؟ وكيف أقرأ الصمدية والمعوذتين بصوت مرتفع في لجنة التأليف وأعضاؤها قوم يبالغون في نصرة الجديد ، وأكثرهم أعداء لكل قديم ، وبخاصة ما يتعلق بأمثال هذه « الفوائد » السحرية ؟ وكيف أستطيع أن أقوم بهذه التجربة ؟ لقد كنت أحسن ذلك قبل أن أعرف « بونمجور مدموازيل » و « بونسوار مدام » أيام كنت أؤدي الفرائض والنوافل في طاعة وإخلاص !

لم تنص « الفائدة » على الوعاء الذي يُحمل فيه ماء الزعفران ، فوضعت في قلم (واترمان) ومضيت عصر الأحد إلى لجنة التأليف وأنا أسأل الله أن لا أجد من يضايقني هناك ، و طال تفكيري في السبب الذي أصل به إلى مكان اجتماع الشعراء : أسأل عن الأستاذ أحمد أمين ؟ وكيف

ونحن جيران ومع ذلك لا نتبادل المودّات والزيارات حتى

أنا مس أخباره بين القاهرة وهليوبوليس !

وصلت إلى دار اللجنة فسألت عن الدكتور

عبد الوهاب عزام فأجاب كاتب اللجنة : موجود ، ولكن

لا يستطيع مقابلتك في هذه اللحظة لأنه في خلوة يقرأ

ورد الشاهنامة . فحمدت الله (في سري) على هذا التوفيق

وقلت : أنتظره حتى ينتهي من قراءة الورد . ودخلت في

نفس الغرفة التي اجتمع فيها الشعراء ، وغاب عني اتجاه

القبلة ، ثم افترضت أنها قد تكون ناحية بنك عمر

أفندي ، واستفدت من غفلة الكاتب فألقيت ماء الزعفران

على الكاغد ورفعت صوتي بتلاوة الصمدية والمعوذتين ،

وفاجأني الدكتور عزام على هذه الحال فقال : ما خطبك

أيها الزميل ؟ فقلت : لما صادفتك تقرأ ورد (الشاهنامة)

رأيت أن أقرأ ورد (النثر الفني) فابتسم وجلسنا نتحدث

عن التأليف والمؤلفين .

عدت إلي بيتي وفضضت الكاغد وأنا أحسب الحكاية

خرافة ، ولكن دهشتي كانت عظيمة جداً حين رأيت
أحاديث الشعراء مسطورة جملةً جملةً في وضوح عجيب ،
وما كدت والله أصدّق بصري ، لغرابة الأمر وطرافته
وظهوره بهذه الفتنة في القرن العشرين . وستكون هذه
(الفائدة) موضوعاً لأحاديث الناس ، ومن المحتمل أن يهتم
بها رئيس مجلس النواب ، فإنها إن نُجحت هناك فستكون
باباً من الاقتصاد ، وقد يُستغنى بها عن جميع كتّاب
السجلات في المصالح الأميرية ، وقد تنتقل إلى ممالك
الشرق والغرب فتوفر من الوقت والمال ما لا يعلم قيمته
إلا أهل الخبرة من رجال الاقتصاد .

وإلى القارئ نص ما جاء في (الورقة السحرية) من

أحاديث الشعراء :

محمد الهراوي — لا أحب أن أقول (فتحت الجلسة)

فإنها عبارة مبتذلة ، فاسمحوا لي أن أقول : « نُظِّمَت

المشعرة » فهل توافقون على ذلك ؟

زكي مبارك - تقبل صدر الجملة ، وتترك لك

« المشعرة » تأمو بها كيف تشاء

محمد الهراوي - كما ترون . الموضوع وما فيه أن . .

عبد الباقي ابراهيم - عبارة « الموضوع وما فيه » من

رطانة المصاطب !

محمد الهراوي - أصل القصة أنني كنت أحب أن

تقيم موسماً للشعر في عيد الهجرة ، ثم رأى الأستاذ

عبد الله عفيفي أن يكون موسم الشعر في المولد النبوي .

محمد الأسمر - وما الصلة بين الشعر وبين المولد

النبوي ؟

محمد الهراوي - الأستاذ عبد الله عفيفي سجل هذه

المسألة في الجرائد ، فأصبحنا مرتبطين بهذا التسجيل

زكي مبارك - الخطب سهل ، يسجل الموعد مرة

ثانية بصيغة أخرى ، وهل كان التسجيل الأول عقداً يجب

الاحتفاظ به ؟ إنما هو اقتراح قابل للتعديل .

محمد الهراوي - أنا أرى التقيد بما سجله الأستاذ

عبد الله عفيفي في الجرائد . اشرح يا سيد عبد الله وجهة
نظرك .

عبد الله عفيفي - العفو يا سيدي ، الرأي لكم .
محمد الأسمر - أَدْعُوْتُمُونَا لِلْمَشَاوِرَةِ ؟ أَمْ دَعْوَتُمُونَا
لِنَسْمَعُ وَنَطِيعُ ؟

محمد الهراوي - معاذ الله أن نخرج على أدب الحديث
محمد الأسمر - أدب الحديث يفرض أن تأخذوا رأي
من دعوتهم . وأنا أسألكم أولاً : ما هي المناسبة بين
موسم الشعر وبين المولد النبوي ؟

عبد الله عفيفي - مولد النبي هو أنسب المناسبات
للمواسم الشعرية .

محمد الأسمر - أنا لا أرى ظلاً لهذه المناسبة .
زكي مبارك - لا ترى ظلاً لهذه المناسبة ! وكيف ؟
أما قرأت قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »
إن في هذه الآية ما يربط بين الشعر وبين المولد النبوي
بأوثق رباط .

عبد الجواد رمضان — هذا لا يصح إلا إذا قلنا
(بعلاقة الضدية) .

محمد مصطفى الماحي — علاقة الضدية ؟ يعني إيه
علاقة الضدية ؟

عبد الباقي إبراهيم — هذا كلام يفهمه الشعراء
الأزهريون .

محمد مصطفى الماحي — سأدرس هذه المسألة غداً مع
بعض الأساتذة في وزارة الأوقاف

عادل الغضبان — إن الدكتور مبارك يمزح

زكي مبارك — لا ، يا أفندي ، أنا لا أمزح ، وكل
من قرأ القرآن يفهم أن رأي الرسول في الشعراء رأي
جميل ، وانظروا قوله عز شأنه : « والشعراء يتبعهم
الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون
ما لا يفعلون » .

عبد الجواد رمضان — لا تترك متزعاك في التهم

والسخرية ، يا أستاذ مبارك !

زكي مبارك - لقد أفسدتم الجوَّ من حولي بسوء
الظن ، فاتقوا الله أيها الناس ، أنا لا أسخر ولا أتهمكم
ولا أداعب ، إنما هي حقائق نسوقها لمن يعقلون .
عبد الباقي إبراهيم - يجب أن يكون البحث خاصاً
بالشعر من حيث هو .

محمد الأسمر - وأن يسمى الموسم سوق عكاظ وأن
يكون في أول ذي القعدة .

عبد الله عفيفي - ما لنا ولسوق عكاظ ؟ نحن نتكلم
عن الشعر المصري .

زكي مبارك - أرجوكم أن لا تقولوا الشعر المصري
فان هذه العبارة تجرح إخواننا في مختلف الأقطار العربية
قولوا (الشعر العربي) حرصاً على أخوة أهل المغرب
والحجاز والشام والعراق .

عبد الله عفيفي - وهو كذلك .

محمد الماحي - وأين نقيم موسم الشعر ؟

عبد الجواد رمضان - في الأزهر الشريف .

زكي مبارك - أرى أن يقام الاحتفال في سرادق
وزارة المعارف بساحة المولد النبوي .

عبد الجواد رمضان - ساحة المولد لا تنفع ، لأننا
نريد أن نسمعنا الوزراء ، وشهود المولد أكثرهم رعا .

عبد الله عفيفي - اطمئن ، فسيسمعنا الوزراء في ساحة
المولد ، لأنه سيكون يوم عطلة رسمية : والوزراء سيكونون
جميعاً هناك

محمد الماحي - من يضمن ؟ إن الوزراء يحضرون
لحظة قصيرة عصر يوم المولد ثم ينصرفون

زكي مبارك - لا أرى ما يوجب الحرص على
التشرف بحضور الوزراء . والواجب أن يكون عملنا في
سبيل الله ، لا في سبيل المظاهر الرسمية .

عبد الباقي إبراهيم - نحن نعمل في سبيل الله ؟ قل
غير هذا ، أيها الصديق ! لو كنا نعمل في سبيل الله لما
دعونا مندوب البلاغ ومندوب المقطم ومندوب الأهرام .

محمد الهراوي - نحن دعونا مندوبي الجرائد بصفتهم

الشخصية . فإن فيهم الكاتب والشاعر والخطيب .

محمد خالد - هل معنى هذا أنكم لا تريدون أن
تُشيد الصحف بأعمالكم ؟ وهل تستطيعون أن تعفونا من
الكتابة عنكم ؟ أخشى أن تكونوا مازحين !

محمد الهراوي - نحن نعود بالله من شياطين الصحفيين .
واشهدوا جميعاً أنني أرجو صديقنا الدكتور زكي مبارك
أن لا يكتب شيئاً من هذه الأحاديث في البلاغ ، فإن
قلمه معروف بالشطط والجموح . وأخشى أن يثير فتنة
قبل أن نمضي في هذا المشروع الجليل

زكي مبارك - لن أكتب عنكم حرفاً في جريدة
البلاغ . ومن حقكم على أخيكم أن يُطمئنكم من هذه
هذه الناحية . وما أذكر أنني وعدت يوماً فأخلفت ،
وسترون صدق ما أقول .

محمد خالد - ما دتم تعملون في سبيل الله ، لا في
سبيل الشهرة ، فما الذي يمنع من الانضمام إلى جمعية أبوللو
والتعاون مع الدكتور أبي شادي

محمد الأسمر - هذه مسألة أخري

زكي مبارك - انا أويد اقتراح الأستاذ محمد خالد

محمد خالد - أنا لست بشاعر . ومع ذلك أعطف

على مجلة أبولو لأنها تخدم الشعر خدمة صادقة .

محمد الأسمر - أنا أحب أن تسمى جمعيتنا (عكاظ)

وأن يكون موسمنا أول ذي العقدة ، وأن نترك مسألة

المولد النبوي لأن الشعراء فيهم المسلم والمسيحي ، والمولد

النبوي يفرض أن تكون أشعار الموسم كلها إسلامية ، وفي

هذا حجر على الشعراء المسيحيين

عبد الله عفيفي - ما الذي يمنع المسيحي من أن

يقول شعراً في المولد النبوي ؟ إن أشعار شوقي نصفها قيل

في المسيح

زكي مبارك - نصف أشعار شوقي قيل في المسيح؟

ما كنت أعرف ذلك من قبل !

عبد الله عفيفي - أعني أنه قال كثيراً في المسيح

محمد الأسمر - جمعيتنا يجب أن تسمى عكاظ ، وأن

يكون موسمها في أول ذي القعدة ، وأن ترك الذكرى
النبوية على ناحية

عبد الله عفيفي - إن الموالد النبوي تذكري ذكره
قرايح الشعراء

زكي مبارك - كيف ذلك وملاحدة الإسلام كانوا
جميعاً من الكتاب والشعراء

عبد الله عفيفي - أنا لا أوافق على ذلك ، وعلى
الأخص في عصر النبوة

زكي مبارك - وأنا أوكد لك أن الشعراء والكتاب
ابتدأوا إلحادهم في عصر النبوة ، ولك أن ترجع إلى رسائل
الجاحظ لترى صحة هذا الاتهام .

محمد المهرابي - الشعر الصحيح يعاون الدين .

زكي مبارك - هذا كلام تسترون به زيفكم ، يا معاشر
الشعراء ، ولو رأكم رسول الله لساقكم إلى السجن .

عبد الله عفيفي - أنت على هذا تمنع أن يجتمع

الشعر والدين ؟

زكي مبارك — أنا أقول في صراحة : إن الدين يدعو
إلى النظام ، والشعر يحرض على الثورة . والرسول كان على
حق حين حارب الشعراء : لأن أكثرهم من أشعياع
الطيش والاروق ، والصلاح منهم قليل .

محمد الهراوي — وما رأيك في القصائد التي نشرتها
في البلاغ ؟ أتذكر القصيدة القفطانية :

قل للشباب المسلمين تحية
من مسلم ثبت على إيمانه
ويزيده في الله حسن عقيدة
ما جرّه الالحاد من خسرانه

فخذوا سبيل الدين فهو كفيلكم
ليرد سبيل الغرب عن طغيانه
فالدين للدنيا والأخرى معاً
وسعادة الدارين في قرآنه

زكي مبارك — هذه القصيدة وأمثالها شاهد على

إلخادك : فالشعراء ملحدون بين المؤمنين ، وأنت ملحد

بين الشعراء !

محمد خالد - لم تتفق على شيء في أساس الموسم

الشعري .

محمد الهراوي - استمعوا ما يقوله الدكتور طه حسين :

إنه يوصي بأن لا يخرج الشعر عن السيرة النبوية وأن

تحتكر مجلة الرسالة نشر ما ينظمه الشعراء .

عبد الباقي ابراهيم - وما شأن الدكتور طه حسين

بالمولد النبوي ؟

زكي مبارك - شأنه شأن سائر المسلمين .

عبد الباقي ابراهيم - أنا أخشى أن يتحول الدكتور

طه حسين إلى صفوف الرجعية .

محمد الماحي - وهل الشعر في الدين رجعية ؟

عبد الباقي ابراهيم - إذا قيل عن إخلاص فليس

برجعية ، ولكنه إذا قيل حبًا في حسن السمعة لدى

الجمهور فهو أسوأ من الرجعية .

زكي مبارك - مسكين الدكتور طه ! إن شك في
بناء الكعبة فشكّه إحداد ، وإن دعا إلى قصر الشعر على
ذكرى المولد النبوي فدعوته رياء ! وسبحان مقسم
الخطوط !

عبد الجواد رمضان - اتفقنا على أن يكون الموسم
الشعري منفصلاً عن المولد النبوي .

محمد الأسمر - وهل يمكن غير ذلك ؟ إن موضوعات
الشعر عديدة ، وقصرها على ذكرى المولد يُضيق المجال
أمام الشعراء . وكيف يكون الحال لو قُدمت إلينا قصيدة
جيدة في غزل المذكر ؟ أنرفضها رعايةً للمولد ؟ أم نقبلها
ونعرض أنفسنا لسخرية المتزمتين ؟

محمد الماحي - ما دمنا اتفقنا على غض النظر عن
مناسبة المولد فلنتخير موسماً أنسب من فصل الصيف .

عبد الباقي ابراهيم - ليكن ذلك في مَشرقِ الربيع .

محمد الأسمر - في أول ذي القعدة ، في أول ذي القعدة ،

كما كانت التقاليد في سوق عكاظ .

أحد الحاضرين - اسمعوا إن شئتم محضر الجلسة :

« اجتمع لفيف من الشعراء ... » .

محمد الأسمر - اشطب كلمة (لفيف) فهي تذكرنا

بطلبة الملاحق

محمد الهراوي - اكتب : « اجتمع رهط من

الشعراء »

زكي مبارك - اشطب كلمة « رهط » فانها غير

شعرية .

عبد الجواد رمضان - اكتب : « اجتمع جمهور

من الشعراء »

عبد الباقي ابراهيم - « اكتب جمهرة »

محمد الهراوي - اكتب « اجتمعت جمهرة من الشعراء

وقررنا إقامة موسم الشعر في المولد النبوي »

محمد الأسمر - نحن لم نقرر ذلك ، بل قررنا أن

يكون موسم الشعر منفصلاً عن المولد

عبد الله عفيفي - وما الذي يمنع أن يكون متصلاً بالمولد ؟

محمد الأسمر - إن اتصاله بالمولد يشرفنا كل التشريف ،

ولكننا لا نريد الخلط بين الشعر والدين

محمد الهراوي - وقررت الجماعة إقامة حفلة فرعية

لإحياء المولد النبوي

محمد الأسمر - ولا هذا أيضًا . فاننا لم نقرر شيئاً من

ذلك ، وحاشاكم أن تكذبوا على الشعراء الذين انصرفوا

قبل أن تُكتب صيغة محضر الجلسة ، وليس من الحكمة

أن تضطرونا إلى التكذيب في الجرائد فيقول الناس :

« أول القصيدة كفر »

محمد الهراوي - « اجتمعت جمهرة من الشعراء

وقرروا إقامة موسم للشعر يدعى إليه أقطاب الأدب في البلاد

العربية . وسيجتمعون في المرة المقبلة يوم ٢٦ مايو »

أما بعد فهذه هي الصورة الصحيحة لمضبطة مجلس

الشعراء كما جاء في (الورقة السحرية) ومنها يتبين الفرق

بين رواية الاهرام ورواية البلاغ

عند حلبي باشا

القراء يعرفون أن هناك جمعية حديثة أُلِّفت لاقامة
(موسم الشعر) وأن أول صوت رُفِع لتأليف هذه الجمعية
كان صوت الأستاذ محمد الهراوي . ويعرف القراء كذلك
أن هذه الجمعية مكوّنة من عناصر مختلفة تجمع بين القديم
والحديث في فهم الشعر ودرسه وقرضه . وقد شهدنا الاجتماع
الأول وقدمناه للقراء ممثلاً في (مضبطة مجالس الشعراء)
واتفق أن شُغِلنا عن حضور الاجتماع الثاني فتألفت اللجنة
التنفيذية في غيبتنا ، وحيل بيننا وبين متابعة هذه الظاهرة
الأدبية ، فلما جاء موعد ذهاب اللجنة التنفيذية لشكر
وزير المعارف على رعايته لموسم الشعر قدّرنا أن سيكون
في هذه المقابلة كلام وحديث ، وأن وزير المعارف سيتكلم
عن الشعر والشعراء والعام والتعليم . فاستأذنا معاليه في
حضور هذه الجلسة القصيرة لنستطيع متابعة ما يجري من

مختلف التيارات الأدبية ، ففي ذلك نفع لمحور النقد الأدبي
الذي يهيمه أن يقف بنفسه على بواعث التطور في الأدب
الحديث

وقف الأستاذ خليل مطران فألقى كلمة طيبة في
شكر وزير المعارف وتقبلها الوزير بأحسن القبول

انتهول الموازين الأدبية :

واندفع معالي الأستاذ حامى عيسى باشا يتكلم بقوة عن
وجوب العناية بتوجيه النثر والشعر وجهة صالحة ، ومن
رأي معاليه أن الموازين الأدبية اختلفت أشنع الاختلال ،
وأصبح الشعر فوضي لا يعرف الشبان ما قديمه وما حديثه ،
ولا يدرون كيف يكون النظم الجيد وكيف تكون
الأساليب المختارة ، فن الناس من يدعو للقديم ومنهم من
يدعو للجديد ، وأولئك وهؤلاء لا يبينون بالتحديد ما هي
العناصر التي يجب استبقاؤها من التراث القديم ، وما
العناصر التي يجب أن تضاف إلى الأدب الحديث ، وأن
الشبان منذ عشرين عاماً كانوا يعيشون في ظلال نماذج

أدبية مستقرة يبنون على أساسها كيف شاءوا ، أما شبان
اليوم فيقفون حيارى مترددين بين مذاهب القديم والجديد ،
ولهذه الحيرة وذاك التردد خطر في تكوين شباب هذا
الجيل .

مجلة لدرسي الشهر :

وأشار معاليه إلى رغبته في إنشاء مجلة خاصة بالدراسات
الشعرية يشرف على تحريرها أساتذة إخصائيون ، وتكون
هذه المجلة أداة لنشر الآراء الحصيفة التي تحب وزارة
المعارف أن تذيعها بين المدرسين والطلاب ، وأنه يرجو إذا
صححت هذه الأمنية أن تقدم مصر للأقطار العربية طلائع
جديدة لنهضة الأدب الصحيح .

المجلات الأدبية العنبرية :

وعرض معاليه للغذاء السيء الذي يتلقاه التلامذة عن
بعض الصحف الأسبوعية ، وهو يرى أن بعض المجلات
تُكتب بلغة رديئة ممسوخة ، وتنشر آراءً سقيمة مدخولة .
ثم وازنَ بين العهدين : العهد الذي كان فيه معاليه طالباً

والعهد الذي يحياه تلامذة اليوم ، وبين أن المجالات لعهد
كانت قليلة جداً ، وأن الصحف اليومية كان اهتمامها بنشر
الأدب ضئيلاً ، ولكن الأساتذة في ذلك العهد كانوا
يوصون تلاميذهم بدراسة أصول الأدب القديم مثل نهج
البلاغة والامالي والعقد الفريد ، وبالرغم من صعوبة تلك
المؤلفات كان الطالب يستفيد منها ، ويسير روحها إلى
أسلوبه من حيث لا يحتسب . أما تلميذ اليوم فيجد من
يفهمه بسوء نية أن الأدب القديم دالت دولته ، وأن المرجع
إلى الأدب الحديث ، فاذا فكر في متابعة الأدب الذي
دعوه اليه وجده في الأغلب مقالات تافهة المعنى ضعيفة
الاسلوب . هذا إن كان بلغ سنَّ الفهم والادراك ، أما
أكثر التلامذة فيقرأون تلك الصحف السخيفة وهم
يتوهمون أنها لا تنفت إلا سحر البيان . ونحن لا نخشى
عادية تلك الصحف على الشبان الناضجين الذين يميزون بين
الغث والسمين ، ولكننا نخاف أشد الخوف على الناشئين
الذين لا يفرقون بين الزائف والصحيح ، ويرون محرري

الصحف أساتذة في جميع الأحوال ، مع أن فيهم من لا يصاح أن يكون تلميذاً فضلاً عن أن يقف موقف الأستاذ . ولو أن هذه الصحف السخيفة وُجدت منذ عشرين أو ثلاثين عاماً لكان خطرها يسيراً ، لأن القراء كانوا قليلين ، أما اليوم فقد بلغ المصريون خمسة عشر مليوناً ، وانتشر التعليم ، وكثر القراء ، وبذلك صار شر الصحف العابثة مضاعف الإيفك والفتك بالعقول والأخلاق .
الدكتور أبو شادي - ألا ترى معاليكم أن تكون وزارة المعارف هي التي تهيمن على التصريح بصدور المجالات الأدبية ، فإنها حينذاك تستطيع أن تشرط الضمانات الصالحة لترقية الأفكار والأساليب ؟

حامي باشا - هذه مسألة لا نعرض لها الآن ، ومن رأي أن خير الطرق لقتل المجالات السخيفة هو النهوض بالمجلات الجديدة التي تنشر العلوم والآداب والفنون . والشر يندحر إذا هاجمه الخير ، نخذوا بيد الفضيلة وادعوا إليها في قوة وإخلاص ، وسترون كيف تنهزم جيوش الرذيلة ،

وكيف يتوارى الهازلون . ومن أجل هذا أدعركم إلى مضاعفة الجهد في نشر الأدب الصحيح ، فان هذا هو السبيل لحماية الشبان من عبث اللاعبين باسم الآداب والفنون .

حماية عوام الممثلين :

ولم يقف وزير المعارف عند جناية الصحف الهزلية التي تكتب بلغة ضعيفة في موضوعات سخيفة ، بل انتقل إلى عوام الممثلين الذين يملأون الروايات بالرطانة العامية ، ويرى في ذلك تضييعاً لجهود أساتذة المدارس ، فان التاميد يتلقى في المدرسة لغة ، وفي المسرح لغة ، وما يتعب المدرس في تقويمه صباحاً ، يبده الممثل مساءً ، والتاميد ضائع بين هذا وذاك ومن رأي معاليه أنه يجب أن يكون المسرح مكملاً للمدرسة ، ومن أجل هذا تقصر الوزارة إعانة المسرح على الروايات الفصيحة التي تساعد على تنمية جيد الأذواق والأساليب .

في الجامعة المصرية :

حامى باشا - وفي سبيل الحرص على تقوية اللغة العربية أشرفت بنفسى على وضع لأئحة كلية الآداب ووضعنا مادة تنص على أن رسائل الدكتوراه لاتكون إلا باللغة العربية .

الحاج محمد الهراوى - بارك الله فيك يامولاى !
زكى مبارك - هذا فى كلية الآداب . أما كلية الطب
وكلية العلوم وكلية الحقوق ؟

حامى باشا - فى هذه الكليات الثلاث للطالب الحق
فى أن يقدم رسالة الدكتوراه بلغة أجنبية .

زكى مبارك - وما الحكمة فى ذلك يا معالى الوزير ؟
حامى باشا - الحكمة هى أننا نبادل الجامعات
بالرسائل ، ومن المستحسن أن تكون بلغة أوربية ليعرفوا
بعض ما عندنا من التفوق فى دراسة العلوم والقوانين .

زكى مبارك - ونحن أيضاً نبادلهم بالرسائل التى ثمرها
كلية الآداب ، فما الحكمة فى أن رسائل الآداب هى التى

لا تكتب بغير العربية ؟

حامى باشا - أنت متعب ، يا أستاذ مبارك ، اتركنى

أتكلم ، من فضلك !

زكى مبارك - يستحيل أن أضيع هذه الفرصة . إن

معالي الوزير يعلم أن الجامعات فى الأمم الحية لا تكتب

رسائل الدكتوراه بغير اللغة الوطنية ، فاذا تخدلق أحد

طلبة الحقوق مثلاً وكتب رسالة الدكتوراه باللغة الانجليزية

وبعثت رسالته إلى إحدى الجامعات كان أول ما يخطر

بذهن من يتلقاها أنها قادمة من بلاد الانجليز ، أو من

إحدى المستعمرات الانجليزية

حامى باشا - ما أظن !

زكى مبارك - يا معالي الوزير ، أتمم صنيعك ،

وضع هذا الحجر بيدك فى أساس الجامعة المصرية ، إن

كتابة رسائل الدكتوراه بلغة أجنبية تفتح بابين من الشر ،

فهي أولاً عنوان التسامح فى القومية ، وهي ثانياً مضيعة

لنشر نتائج البحث بين قراء العربية

حامى باشا - سنفكر فى ذلك

زكى مبارك - ولغة التعليم فى كلية الطب وكلية العلوم ، ألا يرى معالى الوزير أنه يجب أن يكون التعليم فى هاتين الكليتين باللغة العربية ؟

حامى باشا - أنا أفضل أن يكون بلغة أجنبية ليساعد على تمكن الطلبة من نواصي اللغات الحية ، فإن الطلبة عندنا مجهلون اللغات الأجنبية جهلاً شائناً ، والوسيلة النافعة لتقويتهم فى اللغات الحية هى أن تكون لغة الدرس فى الكليات .

الأستاذ محمد الهياوى - وما رأى معاليكم فى أن الطلبة عندنا مجهلون اللغة العربية كما مجهلون اللغات الأجنبية ، وأن الميل إلى التأليف باللغات الأجنبية سببه الضعف عن التأليف باللغة العربية ؟

حامى باشا - أعرف ذلك جيداً ، ولهذا فرضت على أعضاء البعثات أن ينشروا أبحاثهم باللغة العربية ليرتاضوا على التأليف بلغة البلاد ، وليدلوا مواطنيهم على

قيمة ما استفادوه من الدراسة في الخارج ، وقد خصصنا مبلغاً من المال لاعانة أعضاء البعثات على نشر أبحاثهم باللغة العربية

الأستاذ محمد الهياوي - ألا ترى معاليكم أن من أسباب ضعف الطلبة أن مناهج التعليم مناهج آلية؟
حامي باشا - المناهج ليست آلية ، فهي ككسائر المناهج في العالم ، والطلبة هم الذين يتلقونها بطريقة آلية ، لأن الروح السائد في مصر يعوق دون وصولهم إلى المنازل الرفيعة في الدراسات العلمية والأدبية والفنية ... الجو المدرسي جوٌّ عاميٌّ ، والأساتذة في الأغلب متمكنون من علومهم ، ولو حضرت دروسهم لوجدتهم على شيء ، ولكن الطالب حين يخرج من المدرسة لا يجد من بيئته ما يذكره بأعماله المدرسية ، ولا كذلك الطالب في الأمم الغربية : فهو هناك في جوٍّ مشبع بآثار العلم والأدب والفن ، وهو حيث أتجه يجد ما ينمّي عنده ما تلقاه في يومه من مختلف الدروس . فأصلح البيئة الاجتماعية أولاً في مصر ثم عد

إلى المدارس فطالبها بما تشاء من وجوه الإصلاح .

الامتحانات العمومية :

لقد كثرت الشكوى من صعوبة الأسئلة في الامتحانات العمومية ، ولا أخفي عليكم أنني أوصيت بالحزم في تصحيح الأوراق ، لأنني أخشى عواقب ما يدعوننا إليه من الرأفة واللين . لقد تحدثوا طويلاً بأن الطلبة في الأمم الغربية يُمتحنون في مواد قليلة ، وهذا صحيح ، ولكن المدارس تعلم الطلبة هناك نفس المواد التي نعلمهم إياها هنا ، والفرق بيننا وبينهم أنهم يمتحنون الطلبة في أهم المواد ، ونحن نمتحنهم في جميع المواد . وعذرنا في ذلك أن الاهتمام بغير مواد الامتحانات ضعيف ، وخصوصاً في المدارس الأهلية ، فالمدرس الذي يعلم مادة لا يمتحن فيها الطلبة قد يتراخي ويتكسل ويُهمل ، وفي اليوم الذي يحرص فيه جميع المدرسين أو أغلبهم على الاهتمام بالواجب لذاته ، بغض النظر عما يتبعه من نتائج الامتحانات العمومية ، في ذلك اليوم — ولعله قريب — نكتفي بامتحان الطلبة في أهم

المواد ، أما الآن فلا رحمة ولا هوادة ، وسنمتحن الطلبة في جميع الفروع . ولا تنسوا أن المدرسة هي التي تقوم بالعبء في نشر الثقافة ، ولا يساعدها أولياء أمور الطلبة إلا قليلا ، لأن الجوَّ الاجتماعي كما قلت لكم لا تزال تنقصه عناصر كثيرة من العلم والتثقيف ، فإذا فكرنا في تخفيف المناهج عن طريق حذف بعض المواد فسيظل الطلبة مجهولون مانعفيهم منه طول الحياة .

محمد الماحي - عندي اقتراح مهم يحضرات الاخوان

محمد الهيباوي - نعم ، ياسيدي !

محمد الماحي - تعلمون جميعاً أن وقت صاحب المعالي

الوزير وقتٌ ثمين ، وقد تركنا الوفود تتزاحم بالمناكب في

مكتب الأستاذ سعد اللبان ، و ...

محمد الهراوي - بسّ عاوز تقول إيه ؟

محمد الماحي - أنا عاوز أقول إن وقت معالي الوزير

ثمين ، وإن الوفود تتزاحم بالمناكب في مكتب الأستاذ

سعد اللبان ، وأنا أسمع خفق أقدام في الغرفة التي تلي هذا

المكتب المعمور ، و ...

أبو شادي - يعني تقترح حضرتك أن تحتم المشعرة ؟

محمد الماحي - إذا سمحتم ، فان وقت معالي الوزير

نفيس ، و ...

حامى باشا - أشكر لكم هذه الزيارة اللطيفة ،

وسأكون إن شاء الله عند ظنكم الجميل

محمد الهراوي (ينهض لصاحبة الوزير وهو ينشد

بصوت جهوري رزين)

رجل الفضل والمكارم والنبل -

جميعاً لقد ملكت النفوسا

نحن وفد الأشعار جاءك يسعى

مستعيناً برب عيسى وموسى

يطرد اليأس بالرجاء ويجلو

من عزيز الآمال فيك عروسا

نحن باسم الآداب نشكر محيي الشـ

عر عيسى والروح آية عيسى

٢٩ يونيه سنة ١٩٣٣

ملحات من حياة شوقي^(١)

سيداتي سادتي :

تفضلت محطة الاذاعة فدعتني للاشتراك في إحياء

ذكرى أمير الشعراء .

وقد نظرت فرأيت الكلام على شوقي كثير جداً ،

وأنا نفسي كتبت في نقد شعره كثيراً ، وأخشى أن أقع

في الحديث المعاد .

فلم يبق إلا أن أقدم اليكم بعض الصور من حياة

ذلك الشاعر العظيم ..

كانت شهرة شوقي قد بلغت مبلغاً عظيماً قبل الحرب

العالمية ، ولكن الجمهور كان هواه مع منافسه الخطير

حافظ إبراهيم ، لأن حافظاً كان شاعر الوطنية ، وكان من

(١) محاضرة أُلقيت في محطة الاذاعة المصرية في اكتوبر سنة ١٩٣٨

السابقين إلى محاربة الاحتلال ، وكان شوقي كذلك شاعراً
وطنياً ، ولكن مركزه الرسمي في معية سمو الخديو عباس
كان يحول بينه وبين الشجاعة التي امتاز بها حافظ في
محاربة الاحتلال .

ثم وقع حادث لم يكن في الحسبان ، وهو عزل سمو
الخديو عباس عن عرش مصر بسبب انضمامه إلى تركيا في
الحرب العالمية الماضية .

وفي تلك اللحظة الرهيبة تقدم حافظ ابراهيم فهناً
السلطان حسين بالعرش مع جماعة من الشعراء ، ودعاه إلى
الثقة بالانجليز فقال :

ووالِ الانجليزَ فهم رجالٌ من الآداب قد نهلوا وعلموا
وحينئذ تلفت الجمهور ينظر إلى ما يصنع شوقي ،
وكان تخلف عن تهنئة السلطان حسين . وما هي إلا أيام
حتى نشر شوقي لاميته المشهورة التي عطفتم الجمهور عليه :
المَلِكُ فيكم آلَ اسماعيلَا لا زال ملككم يظلّ النيلَا
وكانت هذه القصيدة شؤماً على الشاعر : فقد وقعت

ففيها آيات كانت مشاراً للتفسير والتأويل ، وهي هذه
الآيات :

يا أهل مصر كُأوا الأمور لربكم
فأله خير موثلاً وكفيلاً
جرت الأمور مع القضاء لغاية
وأقرها من يملك التحويلاً
أخذت عناناً منه غير عنانها
سبحانه متصرفاً ومُدبلاً
هل كان ذاك العهد إلا موقفاً
للسلطتين وللبلاد وبيلاً
يعتز كل ذليل أقوام به
وعزيزكم يلقي القياد ذليلاً
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت
إلا نتائج بعضها وذيوها
وانقض ملعبه وشاهده على
أن الرواية لم تم فصولاً

وقد سارت هذه القصيدة في ذلك الحين مسير
الأمثال ، ولا سيما هذا البيت :
رؤيا عليّ يا حسينُ تحققت ما أصدق الأحلام والتأويلا
وكان الناس يعدُّون ذلك من التورية

وقد انزعج الانجليز من كثرة القيل والقال ، فأمرُوا بنفي
شوقي من البلاد ، وكان ذلك النفي فاتحة لعهد جديد من
شاعرية شوقي ، وابتدأ بقطعته النثرية في وصف قناة
السويس ، وهي قطعة نادرة النظائر والأشباه .

* * *

وكان شوقي يخاف أن ينساه أهل مصر فهو الذي
قال إن مصر بلدٌ

كلُّ شيء فيه ينسى بعد حين .

فأخذ يرسل قصائده بلا انقطاع إلى مجلة عكاظ ، وكان
لهذه المجلة تأثير شديد في توجيه الأدب الحديث ، ولكن
الجمهور نسيها بسرعة لأن صاحبها كان أفسد ما بينه وبين
أكثر الأدباء من صلوات . .

ثم اتفق لشوقي أن ينظم النونية المشهورة ، وهي
قصيدة رقّ فيها حنينه إلى مصر والنيل :

يا نأئحَ الطلحِ أشباهَ عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا
ماذا تقصّ علينا غير أن يداً
قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
أخا الغريب وظلاً غير نادينا
كلُّ رمته النوى ريشَ الفراق لنا
سهماً ووسلاً علينا البين سكيننا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدعٍ
من الجناحين عي لا يلبينا
فان يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا
إن المصائب يجمعن المصاينا
لم نأل ماءك تحناناً ولا ظمأً
ولا اذكراً ولا شجواً أفانينا

تَجْرُ مِنْ فَنِّ ذِيلاً إِلَى فَنِّ

وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا

أساة جسمك شئ حين تطلبهم

فمن لروحك بالنطس المداوينا

وفي هذه القصيدة مجّد مصر والنيل أعظم تمجيد

إذ يقول :

لم يجرٍ للدهر إعدارٌ ولا عرسٌ

إلا بأيامنا أو في ليالينا

ولا حوى السعد أطفى في أعبته

منّا جياداً ولا أرخى مياديننا

نحن اليواقيت خاض النارَ جوهرنا

ولم يهن بيد التشتيت غالينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل

قبل القياصر دناها فراعينا

ولم يضع حجراً بانٍ على حجرٍ

في الأرض إلا على آثار بانينا

كأن أهرام مصر حائطٌ نهضتُ

به يد الدهر لا بنيان بانيننا

وختمها بالشوق إلى أمه في حلوان فقال :

كنزٌ بحلوان عند الله نطلبه

خير الودائع من خير المؤدينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا

لم يأته الشوق إلا من نواحيننا

إذا حملنا لمصر أو له شجننا

لم ندر أي هوى الأمان شاجينا

وفي أواخر سنة ١٩١٩ فيما أتذكر رجع الشاعر من

منفاه ، وتلهمتُ لرؤيته ، فرأيتُه أول مرة في منزل المرحوم

عبد اللطيف الصوفاني بك بالحامية الجديدة .

رأيتُه رجلاً خالياً من الأبهة والوجاهة في ملبسه

وهندامه ، رجلاً قليل الكلام كثير الصمت ، لا يدلُّ

مظهره على شيء ، وإن طبقتُ شهرته الآفاق .

وقد عرفوني يومئذ إليه ، فأنشدته قصائد كثيرة من شعره البليغ ، وكان يأنس إلى من يروون أشعاره ويعترفون بعظمته الشعرية .

ثم وقع بعد ذلك أن نظم قصيدة في الدعوة إلى قبول مشروع منار سنة ١٩٢٠ وقد قرأت تلك القصيدة وأنا في غيابة الاعتقال ، فثار غضبي عليه ، وصممت على إيذائه حين أجد السبيل إلى تنسم هواء الحرية .

ولما خرجت من الاعتقال في خريف سنة ١٩٢٠ كان أول ما كتبت مقالة في نقد شوقي بمناسبة قصيدته في مشروع منار ونشرتها في جريدة المحروسة ، فغضب الشاعر ، وأضاف اسمي إلى خصومه الألداء .

ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وأراد . .

واليكم أسوق الحديث :

كان شوقي بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده

إلجياذ إلا في جريدة الأهرام ، وكانت جريدة الأهرام تسميه « أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع » .

وقد احتالت جريدة السياسة للتفرد بنشر تلك القصائد الجياد فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيهاً إلى الجمعية الخيرية الاسلامية في كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي . ورأى شوقي أمام هذه الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة بأشعاره ، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته ، لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية . انتقلت قصائد شوقي من الأهرام إلى السياسة . . . فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل ، ولم تعد تسميه « أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع » حين تجيء مناسبة لذكر اسمه ، وإنما صارت تسمية صاحب العزة احمد شوقي بك .

وقد تنهتُ إلى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده ، وكان يومئذ طالباً بمدرسة الطب ، فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها في جريدة الصباح . .

وقد قرأ شوقي ما كتبتُ وما كتب صديقي سعيد

فطرب وراآنا من النوابع ا

وأرسل ابنه حسين إلى صاحب الصباح يدعونا
جميعاً للغداء بكرمة ابن هانيء في المطرية ..

ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعداً
بأحد أندية القاهرة ، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا إلى
المطرية مكرّمين معزّزين ، ومعنا الصديق احمد علام الذي
صار فيما بعد مجنون ليلي في رواية شوقي ..

* * *

قد أنسى كل شيء ، ولكنني لن أنسى كيف رأيت
شوقي في ذلك اليوم .

كان الرجل جاوز الخمسين ، ومع ذلك بقيت له ابتسامة
عذبة حلوة تفتن وتُشوق ، وبقيت في وجهه ملامح من
الصباحة تظهر في نونين تُشرقان في خديه ، وانطلق فحدثنا
عن خصوماته القديمة مع الزعيم سعد زغلول ، وأنشد أبياتاً
من قصيدته التي نظمها في السخرية من عُرابي يوم عاد من
منفاه ، وعاتبني على المقال الذي نشرته في الهجوم عليه

مجريدة المحروسة . وأوضح الأسباب التي دعت لنظم قصيدته
في مشروع ملزقائلاً إنها استجابةً لالحاح المكبائي والنحاس
وكان ذلك اليوم بداية صداقة حقيقية بيني وبين
شوقي . . .

وزادت الألفة فكنا نلتقي كل يوم بمكتبه في شارع
جلال .

ثم شرع في طبع ديوانه سنة ١٩٢٥ فتلطّف واقترح
أن أكتب مقدمة لذلك الديوان ، وقد قبلتُ بسرور
وارتياح .

ورجعت إلى نفسي فرأيت أن كتابة المقدمات توجب
التغاضي عن الهفوات ، فأرسلت إلى شوقي خطاباً أعتذر
فيه عن كتابة مقدمة ديوانه ، وعللت الاعتذار بأني وقفت
قاهي على النقد الأدبي ، وقد أهجم عليه في يوم من الأيام ،
وذلك لا يأتلف مع الثناء عليه في مقدمة الشوقيات .

وفي مساء اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب لقيت
الأستاذ الدكتور طه حسين بمنزله ، وكان يومئذ يسكن في

مصر الجديدة : فأخبرته بما وقع بيني وبين شوقي ، وكان
الدكتور طه في ذلك العهد من خصوم شوقي ، فتأسف
وقال : ليتك حدثتني بذلك قبل أن تكتب اعتذارك ، فإن
كتابة مقدمة لديوان شوقي شرفٌ عظيم ، ولو أنه طلب
مني ذلك وأنا من خصومه لسارعت إلى القبول لأن
شوقي في رأي أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي .

وكان اعتذارى عن كتابة مقدمة للشوقيات بداية
قطيعة بيني وبين شوقي ، مع أنني أنصفته في كتاب « الموازنة
بين الشعراء » إنصافاً لم يوفق إليه أحد من النقاد الذين
أعجبوا بشعره أشد الإعجاب .

وتعليل غضبه سهل : فقد كان شوقي لا يصدّق أن
شعره كلام كسائر الكلام فيه المقبول والمردود ..

ولم تصرفني هذه القطيعة عن الايمان بعظمة شوقي .
وزاد في عظمي عليه أنني رأيت رأي العين محفر

قبره بيديه .

رأيته يسرف إسرافاً شديداً في نظم الشعر ، والشعر
يأخذ وقوده من الأعصاب والحواس . رأيته ينظم
طوائف من الروايات المسرحية في زمن قليل ، فعرفت أن
الرجل يقدم صدره لسهام الموت .

وآخر مرة رأيت فيها شوقي كانت بمسرح حديقة
الأزبكية في ربيع سنة ١٩٣٢ ، رأيته نحيلاً هزيلاً تنموج
عيناه ، وتضطرب يداه .

وقد هممت يومئذ بتقبيل يمينه ، ثم تذكرت ما بيني
وبينه فاتقبض صدري وانصرفت .

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم

يومُ الفراق فعلت ما لم أفعلِ

وعصف الدهر بشاعر النيل حافظ إبراهيم فسكاه شوقي

بكاءً من ينتظر الموت .

وكذلك كان صيف سنة ١٩٣٢ عهد شؤم ، فقد

انطفأت فيه حياة شاعرين عظيمين رفعا مصر مكاناً علياً .

سيداتى سادتى

عاش شوقى للشعر ومات بالشعر ، ففي الساعة التى
كان يجود فيها بروحه كانت الأنسة ملك تطرب الجمهور
بتغريدة شوقى :

يا حلوة الوعد ما أنساك ميعادى
وفي صباح اليوم الذى جهز فيه نعشه كان المنشد
ينشد قصيدته في مصنع مشروع القرش ، فهتف هاتف :
يحيا شوقى !

وصفق الجمهور ، وأغرب في الهتاف .
ولكن هاتفاً آخر رفع صوته وقال : يرحم الله شوقى !
وتلفت الجمهور وهو مذعور فعرف أن المقادير انتزعت
من بين يديه كنزه الثمين .

سيداتى سادتى

تلكم كلمة وجيزة عن أمير الشعراء ، وهي ذكريات
حزينة ، ومن ذا الذى لا يحزن ولا يبتئس حين يتصور
ما تصنع الدنيا بالشعراء ؟

وهو رحمه الله قد صور حاله مع دنياه : دنيا الجمال
والحب ، بالأنشودة الخالدة التي يغنيها تلميذه وصفه
محمد عبد الوهاب :

بُلبِل حيران بين الغصون

في سبيل الجمال والحب مصرعك ، أيها البلبيل الذي
قتلته أشواك الأزاهير !

وفي ذمة الله شاعر مصر والعروبة والاسلام والشرق
في ذمة الله من يقول :

وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه

تازعتني اليه في الخلد نفسي

وهذا بالفؤاد من سلسبيل

فلما للسواد من عين شمس

لجنة إحياء الأدب العربي

كلمة الأستاذ أحمد أمين - آراء الدكتور
طله حسين - اعتراضات الأستاذ محمد المبراوي
- اقتراح الأستاذ مصطفى عبد الرازق -
رأى الدكتور منصور فهمي - مراجعات
زكي مبارك - كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام
- ملاحظات الأستاذ إبراهيم مصطفى -
- رأى الأستاذ توفيق الحكيم - أهواء
وآراء - لجنة تؤلف من كبار الأدباء
ولا تعبر غير أسبوعين !!

محضر جلسة أدبية

نشر حضرة الأستاذ أحمد أمين مقالاً في مجلة الرسالة
عنوانه (محضر جلسة) فظانه القراء دعابة أدبية ، وفاتهم
أن الأستاذ أحمد أمين رجل رزين لا يستبيح افتعال
الأحاديث ، فليعرفوا أن لذلك المقال أصلاً من الواقع ،
وليثقوا أني دهشت حين اطلعت عليه ، لأنه يخالف
الرغبة التي أبدأها صاحب العزة الدكتور طه حسين بك ،
فقد اقترح أن لا ينشر شيء من أخبار « لجنة إحياء الأدب
العربي » ليستطيع أعضاؤها أن يحققوا كلمة المرحوم قاسم أمين

إذ قال « الوطنية الصحيحة تعمل ولا تتكلم » وكان من رأيه أن لا يذاع خبر تأليف اللجنة إلا يوم يظهر الكتاب الأول ، ليكون ظهوره شاهداً على خطر تلك اللجنة وصلاحتها للحياة . . . وقد اعترضتُ على اقتراح الدكتور طه حسين ، ولكني احترمتُ رأي الأغلبية فلم أشر في مقالاتي إلى إنشاء تلك اللجنة بحرف واحد ، فكيف يصح لحضرة الأستاذ أحمد أمين أن يخرج على ذلك الرأي ، وأن ينشر محضر الجلسة الثانية في مجلة الرسالة ؟

لقد أجهدت نفسي في فهم هذا السر ، ولم أصل إلى فرض معقول ، فلم يبق غير توجيه العتب إلى الدكتور طه حسين ، ولذلك اتصلت به تليفونياً لأعرف رأيه في هذه المخالفة الصريحة لرأي الأغلبية ، فضحك ضحكة رجّت أسلاك التليفون وقال :

« أكنت تمسبنا جادين حين قررنا طي أخبار اللجنة إلى أن تظهر بواكيرها الأدبية ؟ إن الكذب قد يحلوه له أن يستبيح ما لا يباح . »

فقلت : أنا إذن في حلٍّ من نشر محضر الجلسة الأولى ؟

فقال : على شرط أن تقف عند الشؤون الجدية : كما صنع الأستاذ احمد أمين .

فقلت : وهل هناك بأس من إيراد ما وقع في تلك

الجلسة من النوادر والفكاهات : وأخبار الكتاب والشعراء والخطباء ؟

فقال : أكل الأمر في ذلك إلى ذوقك ، وقد آن لك

أن تعرف بعد الذي مرَّ بك من التجارب أن المرء قد يطوي بعض ما يعرف في أكثر الأحيان .

فقلت : ألم تقل منذ لحظة : إن الكاتب يستبيح

ما لا يباح ؟

فقال : لكل شيء حدود ، وأرجوك يادكتور زكي ألاَّ

تخرجني معك ، وأن تلاحظ أن الأستاذ الشيخ مصطفى

عبد الرازق يضايقه أن يُقرَن اسمه في الجرائد بالنوادر

والفكاهات والتعرض لأخبار الناس ، وهو من تعرف في

الحرص على التوقر والاستحياء .

فقلت : اطمئن ، فلن أكتب إلا ما تحب ويحب ا

وإلى القراء يساق الحديث بعد حذف ما وقع فيه من

شوائب الإسراف

الأستاذ احمد أمين - يهمني في مطلع هذه الجلسة

أن أبين السبب الذي حداني على دعوتكم ، فقد قررت

لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تقوم بنقل المؤلفات

العالمية في العلوم والآداب والفنون ، بمساعدة وزارة المعارف

العمومية ، فكان من المنطق المقبول أن تقوم اللجنة أيضاً

باحياء الأدب العربي ، لتقدم للجماهير فنين من الثقافة :

أحدهما عربي قديم ، وثانيهما أوروبي حديث

زكي مبارك - أنا أول من اقترح نقل المؤلفات

العالمية إلى اللغة العربية ، وقد أقرت وزارة المعارف

ما اقترحتُ وجعلتهُ فرضاً على أعضاء البعثات ...

الدكتور طه - ألم أنك يا دكتور زكي عن

الإسراف في التحدث عن نفسك ، وعن آرائك وأعمالك؟

إن العالم الخالص ينسى ما يقدم لأمته من محمود الجهود
زكي مبارك - أنا أذكركم بنفسي : لأنني أراكم
تنسون أو تتناسون

الأستاذ أحمد أمين - وهذا أيضاً خطأ ، فالذي
يذكر الناس بنفسه يتناساه الناس عامدين ، وقد أشرت
إلى ذلك حين نظرتُ كتاب « النثر الفني »

الأستاذ محمد الهراوي - تذكر ما أخذ الناس منك ،
وتنسى ما أخذت أنت من الناس ، هل تستطيع يا صديقي
أن تنكر أنك استفدت واستفدت من آراء القدماء
والمحدثين ؟

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - لعلني قرأت في كتب
الصوفية كلاماً يشبه ما يقوله حضرة الأستاذ محمد الهراوي ،
ولكن أين قرأت ذلك ؟ الآن تذكرت أنني قرأت في
« لطائف المنن » لسيدي عبد الوهاب الشعراني كلاماً في
هذا المعنى ، وكأني به يقول وهو يتحدث عن غرور العلماء :
« من أراد أن يعرف مرتبته في العلم الذي يزعم أنه من

أهله فليردّ كل قول إلى قائله ، وكل علم إلى عالمه ، وكل شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته إلى من استفاد منه ، وينظر نفسه بعد ذلك «

زكي مبارك - هذا ليس من كلام الشعرائي ، وإنما هو من كلام الخوّاص ، وقد أثبتّه في كتابي عن (التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق)

الدكتور طه - لا تشغلنا بنفسك يا دكتور زكي ،
الله يلف بك !

الأستاذ أحمد أمين - نعود إلى الكلام في إحياء
الأدب العربي

الأستاذ محمد الهراوي - أنا أعترض

الأستاذ توفيق الحكيم - يافتاح يا علم

الأستاذ إبراهيم مصطفى - تعترض على إحياء

الأدب العربي ؟

الأستاذ الهراوي - الأدب العربي في أذهانكم هو

الأدب القديم ، وأنا أرجوكم أن تفكروا قليلاً في الأدب

الحديث ، ألا يكفي ما يصنعه القسم الأدبي بدار الكتب
المصرية ؟ ألا يكفي ما تصنع وزارة المعارف في مساعدة
دار المأمون ؟ ألا يكفي ما يصنع المستشرقون ؟ إن الأدب
الحديث مجهول في هذا البلد ولا يفكر فيه مخلوق ، ونحن
والله نحقق كلمة الشيخ محمد عبده إذ قال « عاش القدماء
لأنفسهم ولنا ، ونحن نعيش لهم ونموت لأنفسنا » .

الدكتور طه - يجب أن ينهض الأدب الحديث
بنفسه ؛ فإن أصحابه أحياء ، أتريد أن تصنع لجنتنا مثل
ما صنعت لجنة التأليف حين نشرت كتاب « وحي القلم » ؟
الأستاذ أحمد أمين - وأيُّ عيب في هذا ؟

الدكتور طه - لقد هممت وأنا عضو في اللجنة أن
أعرض على هذا الصنيع ، ولكنني خشيت أن أتهم بالكيد
للأستاذ مصطفى الراجحي ، وكانت بيني وبينه أحقاد ؛ وأنا
بصراحة لا أفهم كيف تنشر اللجنة كتاباً أخذت مواده
من رسائل نشرت في الجرائد والمجلات .

زكي مبارك - هذه سعة ذهن من لجنة التأليف ؛

وهي خلية بالثناء .

الأستاذ الهراوي - الرافي كاتب عظيم بلا جدال
الدكتور طه - ماذا تعني بسعة الذهن يا دكتور
زكي ؟ أنا لا أقول إن من البدعة أن تُنشر المقالات وتُجمع
في كتاب ، ولكني أقول إن اللجان الأدبية تنشر ما يعجز
الأفراد عن نشره ، وكان الرافي يستطيع نشر كتابه
إن شاء .

الدكتور عزام - كتاب (وحي القلم) كتاب
نفيس ، هو كتاب في تمجيد الفضيلة والطهر والعفاف ،
فنشره يعدّ من حسنات لجنة التأليف

الدكتور طه - قلت لكم إني لا أخاصم الرافي ،
ولكني أقول إن اللجنة حين نشرت كتابه لم تأت بشيء
جديد ، لأنها أعادت ما نشر وقرأه الألوفا .

زكي مبارك - أنا أرى هذا الصنيع شهادةً بإعزاز
الأدب الحديث

الأستاذ توفيق الحكيم - وهو أيضاً خطوة في تنظيم

النشر ، فقد كان مفهوماً إلى اليوم أن المقالات التي نشرت

من قبل لا تستحق عناية الناشرين

الدكتور طه - إذن أستطيع أن أقدم إلى اللجنة

منتخبات مما نشرت ؟

الأستاذ احمد أمين - بالتأكيد . وقد نشرت لك

كتاباً نشرته من قبل .

زكي مبارك - وأنا أيضاً أستطيع أن أعرض على

اللجنة كتاب (أكواب الشهد والعلقم)

الأستاذ احمد أمين - العنوان مخيف ، ويظهر أن

هذا الكتاب يتضمن هجماتك على الأساتذة لطفي جمعة

وزكي باشا وطه حسين وعبد الله عفيفي

الدكتور طه - ويكون ظريفاً أن تنشر اللجنة كتاباً

يطعن مؤلفه في أحد أعضائها !

الأستاذ توفيق الحكيم - هذا شيء معروف في فرنسا

زكي مبارك - وقد تكلمتُ عنه في كتاب « ذكريات

باريس » .

الدكتور طه - يا دكتور زكي . ارحمنا من الكلام
عن نفسك وعن مؤلفاتك
الأستاذ احمد أمين - نعود إلى الموضوع
الأستاذ الهراوي - أنا أعترض
الأستاذ ابراهيم مصطفى - على إيه يا أخي ؟
الأستاذ الهراوي - على الوقوف عند الأدب القديم
وإهمال الأدب الحديث
الأستاذ مصطفى عبد الرازق - قبل أن ننساق إلى
الخلافا ، أرجوكم أن تحددوا المراد من الأدب العربي
الدكتور طه - الأدب العربي معروف الحدود ، وهو
يدرس في كلية الآداب .

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - ماذا تريد بالضبط ؟
الدكتور طه - أريد الشعر والنثر الفني .
الأستاذ مصطفى عبد الرازق - وأنا أضيف
النثر الفلسفي ، وأقترح أن يكون في أعمال اللجنة إحياء
مؤلفات ابن سينا والفارابي وابن رشد وابن طُفَيْل والغزالي

وابن مسكويه والمكي والطوسي ، ومن إليهم من المؤلفين
الذين جمعوا بين الأدب والأخلاق .

زكي مبارك - ولا تنسوا أبا حيان التوحيدي ، فهو
في رأي أعظم أديب مفكر عرفته اللغة العربية .

الدكتور طه - ستظهر مؤلفات التوحيدي بين
مطبوعات كلية الآداب .

زكي مبارك - تلك وعود تشرق وتخاف ، وهيئات
أن ننتظر ما يعدنا به عميد كلية الآداب .

الدكتور طه - لقد كنت معناني الكلية ، يا دكتور
زكي ، وأنت تعرف أن العزيمة موجودة ، ولكن يعوزنا
المال ، وقد بذلت ما بذلت من الجهد عند مدير الجامعة فلم
أصل إلى شيء ، والأمر لا يزال عند اللجنة المالية ، فإن
أمدونا بألف أو ألفين من الجنهم - فسترى العجب
العجاب .

زكي مبارك - ومن غيري ينتظر العجب العجاب ،

من كلية الآداب !؟

الأستاذ مصطفى عبد الرازق — المهتم أن تقرر أن
النثر الفلسفي جزء من الأدب ، وأن من الحتم أن تفكر
فيه حين تفكر في إحياء الأدب العربي .

الأستاذ ابراهيم مصطفى — وما رأيكم في مؤلفات
النحاة ؟ ما رأيكم في مصنفات المبرد والسِّيرافي ؟ أليس
من المخجل أن مجهل أدباؤنا رجالاً عرفهم المستشرقون ؟
الدكتور طه — تلك من أعمال كلية الآداب ، أي
من مطبوعات كلية الآداب .

الأستاذ ابراهيم مصطفى — فان عجزت الكلية ،
فماذا نصنع ؟

الدكتور طه — هذا كلام مشدود من شعره ، كما
يقول الفرنسيون .

الأستاذ الهراوي — والفرنسيون يُذكرون أيضاً في
حارة الكرداسي ؟

زكي مبارك — ومن يدريك ، لعل الكرداسي
فرنسي الأصل !

الأستاذ توفيق الحكيم - أحب أن أعرف ماذا
تريدون من إحياء الأدب العربي ؟
الأستاذ أحمد أمين - نطبع الكتب القديمة طبعات
علمية ونبيعها بثمن مقبول .

زكي مبارك - ولين تطبعونها ؟
الأستاذ أحمد أمين - للجمهور ، جمهور أهل مصر
والأقطار العربية

زكي مبارك - وكتب النحو أيضاً تطبعونها
للجمهور ؟ يا ناس ، اتقوا الله !
أتريدون أن نطالب في وساوس نحوية ، إلى يوم الدين ؟
الأستاذ إبراهيم مصطفى - أنت يا دكتور زكي
لا تعرف النحو

زكي مبارك - اسمع ، يا أستاذ ، أنت أخذتها بالنبوت
وأنا سأخذها بالمسند !
الدكتور طه - أنا من رأي إبراهيم في (إحياء

زكي مبارك - وأنا أرى أن تُجسب المشكلات
النحوية في حجرات الأزهر وغرفات دار العلوم ومدرجات
كلية الآداب

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - ماذا تريد بالضبط ؟
زكي مبارك - أنا أريد قطع دابر الخلافات النحوية ،
أريد بصراحة أن نقف عند الأوليات من نحو اللغة
القرشية ، فلا يكون في كل مسألة قولان أو أقاويل
الأستاذ توفيق الحكيم - هذا تخفيف
الأستاذ أحمد أمين - ولكنه لن يبيح كتابة
الروايات باللغة العامية !

الأستاذ عزام - هذا تعريض لطيف
الأستاذ توفيق الحكيم - في فرنسا يحترمون لغة
الشوارع

الأستاذ ابراهيم مصطفى - فرنسا شيء ومصر شيء
الأستاذ توفيق الحكيم - لقد نهضت فرنسا
باللحن ، وتأخرنا نحن بالافصح

الدكتور طه - وهل يلحن الفرنسيون ؟ أنت
مخطيء يا أستاذ توفيق ؟

زكي مبارك - فرنسا لا تلحن أبداً
الأستاذ الميراوي - أنا أقترح أن تؤلف لجنة لإحياء
الأدب الفرنسي !

الدكتور عزام - لم يبق إلا هذا
الأستاذ ابراهيم مصطفى - يظهر أن فرنسا بلدٌ جميل ،
ولولا ذلك ما ظفرت بأمثال هؤلاء الأصدقاء الذين يفضاؤونها
على وطنهم وينظمون في مدحها فرائد العقود
زكي مبارك - ليتك يا أستاذ ابراهيم قرأت كتب
النحو الفرنسي ، ليتك اطلعت على كتاب برونوفيا بين
النحو والفكر من الصلات !

الدكتور طه - برونو باحث عظيم
زكي مبارك - ما أظنك يا سيدي الدكتور عرفت
هذا الرجل ، أنا الذي حضرت دروسه في السوربون ، وهو
كما تقول باحثٌ عظيم .

الدكتور منصور فهمي — ليس عندي من الوقت
ما يساعد على مشاركتكم في هذا الحوار الطريف ، ولا
يهمني في هذه اللحظة أن أستعيد ذكريات السوربون
أو أشهد الدعاية بين التلميذ وأستاذه كالتندر الذي يقع بين
زكي مبارك وطه حسين ، وأنا منصرف لإنجاز بعض
الأعمال في المجمع اللغوي ، ولكنني أحرص على مصارحتكم
بأن الأدب العربي لا يحيا بنشر المستظرف من أخبار
الشعراء والندماء ، وإنما يحيا بنشر المؤلفات القيمة التي
خلفها العبقريون

الدكتور طه — الأدب القديم يراد في الأغلب لما
فيه من الأخيلة والتعابير وصور المجتمع القديم .
الدكتور منصور — لا تهمني الأخيلة ولا التعابير ،
وإنما يهمني السموة العقلي والروحي .

الدكتور طه — أنت إذن تبحث عن الحقيقة ،
وحقائق القدماء أصبحت في الأغلب من الأباطيل . وهل
يكون ابن خلدون إلا طفلاً إذا قيس تفكيره بتفكير

الفلاسفة من أهل هذا الجيل ؟

الدكتور منصور - لا يهمني غير العدوى العقلية .
وقراءة كتب العبقريين تحمل الذهن على التحليق ، وتنقل
القارئ إلى آفاق من العظمة الذاتية ؛ وإن أصبحوا في
رأينا جهلاء .

زكي مبارك - أريد أستاذنا الدكتور منصور أن
تكون المطالعات كلها من الجد الصراح ؟

الدكتور منصور - الحياة يا أستاذ زكي لا تتسع للهزل
زكي مبارك - وهي أيضاً تضيق عن الجد .

الدكتور طه - فلنجعلها مزاجاً من الجد والهزل .
الدكتور منصور - تريدون الهزل للترويح عن
النفوس ، وأنا أرى أنه يكفي أن ينتقل القارئ من الصعب
إلى السهل حين يدركه الملل ، لأن قراءة الهزل تترك أثراً
في النفس قد لا تحمد عقباه ، والكتاب الماجن كالصديق
السفيه يفسد كرائم الخلال .

الدكتور طه - كان ذلك رأيي حين تقدمت كتاب

« مدامع العشاق » لما فيه من إثارة الشهوات .
زكي مبارك — الشهوات عنصر أصيل من الثروة
الانسانية ، وهي لا تحيا إلا في الأمم القوية .
الدكتور طه — أنت تسيء إلى نفسك يا دكتور زكي
بنشر هذه الآراء .

الدكتور منصور — الشهوات من الحوافز الانسانية ،
ولكن لا بد من تهذيبها .

زكي مبارك — وهل تُهذب ما لم يُخلق ؟ فلنخلقها
أولاً ، ثم نهذبها بعد ذلك
الدكتور منصور — وهل انعدمت الشهوات حتى
تفكر في خلقها من جديد ؟

زكي مبارك — وهل ترى التحذير من الشهوات باباً
إلى السلامة من خطرهما المخوف ؟ إن الشهوات في الشرق
تقوى وتستفحل بفضائل الاسراف في التخويف منها ،
والنهي عنها ، فلنغض عنها إغضاء الكرام ليتناسى الناس
ما فيها من طرافة وبريق

الأستاذ احمد أمين - نعود إلى الموضوع ، فقد

بعدنا منه

زكي مبارك - ما بعدنا عن الموضوع ولكن الحديث

ذو شجون

الأستاذ احمد أمين - إحياء الأدب العربي هو نشر

مؤلفات القدماء بطريقة عامية

الأستاذ الهراوي - ومؤلفات المحدثين أيضاً : أي

الذين يعيشون في عصرنا هذا

زكي مبارك - هنا مسألة يجب النص عليها ، وهي

الاتصال بمن يشتغلون بإحياء الأدب العربي ، فان الناس

في مصر لا يفقهون للتعاون معنى ، وقد يُطَبَّع الكتاب

الواحد طبعتين في وقت واحد

الدكتور عزام - هذا مدهش

زكي مبارك - ألم تسمع بكتاب خزانة الأدب ؟ ألم تعرف

أنه طبع مرتين في وقت واحد ، فنشره الأستاذ اسماعيل

مظهر ونشره الأستاذ محب الدين الخطيب ؟

الدكتور عزام - هذه منافسة ينكرها الأدب
الصحيح .

زكي مبارك - من واجب أهل العلم أن يتعاونوا ،
وأن يشد بعضهم أزر بعض .

الأستاذ ابراهيم مصطفى - قل هذا الكلام في
غير مصر .

الأستاذ أحمد أمين - وهل كفرت مصر ؟ أنتم
تسيئون إلى كرامة هذه البلاد .

الدكتور طه - نرجع إلى ما كنا فيه .

الأستاذ أحمد أمين - إحياء الأدب العربي هو نشر
مؤلفات القدماء بطريقة عامية وبيعها بثمن مقبول .

الأستاذ توفيق الحكيم - هذا لا ينفع ، وبالعربي
الفصيح لا يغني فتيلاً .

زكي مبارك - وهل تعرف ما هو الفتيل ؟

الأستاذ توفيق الحكيم - لا تصرفني عن المهم ، أنا
أرى أن الأدب القديم لا يحيا إلا بتحويله إلى أقاصيص .

ولعلكم رأيتم تباشير هذا الفن في كتابي (محمد) .
زكي مبارك - أنا أنكر ما صنعت يا أستاذ توفيق ،
فأنت لم تزد على تحويل السيرة النبوية إلى حوار مصطنع
وأنا أفضل ما صنعه أستاذنا الدكتور طه حين ألف كتابه
(على هامش السيرة) فهو تحفة من قصص التاريخ .

الدكتور طه - تعجبني يا دكتور زكي ، فأنا من
النوابغ حين رضى وأنا من الجاهلين حين تغضب ،
ويا ضيعة الحق بين غضبك ورضاك !

زكي مبارك - وهذا أيضاً حالي عندك ، يا سيدي
الدكتور ، فأنا كنت عندك من النوابغ حين ألفت كتاب
(حب ابن أبي ربيعة) فلما أصدرت كتاب (النثر الفني)
تفضلت فقلت : كتاب من الكتب أخرجته كاتب من
الكتب .

الدكتور طه - ما كذبت في الأولى ولقد صدقت
في الثانية .

الأستاذ أحمد أمين - وما الذي يغضبك من ذلك ؟

أليس كتابك كتاباً من الكتب ، وألست أنت كاتباً
من الكتاب ؟

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - أو كنت تريد أن
يقول : كتاب من الكتب أخرجه عفريت من الجن ؟
الدكتور عزام - عشت حتى رأيت الأستاذ مصطفى
عبد الرازق يمزح .

زكي مبارك - وعلى حسابي !

الأستاذ الهراوي - أمرك لله !

الأستاذ احمد أمين - نعود إلى الموضوع .

الأستاذ ابراهيم مصطفى - وهل خرجنا من الموضوع حتى
نرجع إليه ؟ نحن نناقش المبادئ التي يقوم عليها الأدب العربي
الأستاذ توفيق الحكيم - هو لا يحيا إلا بتحويله
إلى أقاصيص

زكي مبارك - الأقاليم عكاز العاجزين في هذا الزمان

الأستاذ توفيق الحكيم - وماذا تقول في الأقاليم

الأوربية ؟

زكي مبارك - الأَقاصيص هناك فنُّ أصيل ، وهي هنا فنُّ يقوم على التزويق والتحويل ، ودليل ذلك أنها في الأغلب من فنون الناشئين . . ، إن الكاتب الأوربي لا ينشئ قصة إلا بعد أن يدرس آراء المفكرين في القديم والحديث وبعد أن ينظر في مشكلات عصره نظر الباحث المتعمق فيعرف ما يحيط به من العضلات الذوقية والاجتماعية والاقتصادية ، فيكون لقصته مغزى مأخوذ من أزمات النفوس والقلوب . . . أما في مصر فالقصة مطيعة من لا يعرف ، وعوامُّ الناشئين يؤكِّدون أنها فن جديد ، وأن الأدب لا ينهض إلا إذا أطال القول في التحدث عن الحاجة خدوجة والحاج مشحوت ، وهم يزعمون أن القصة فن يوجب التحلل من القواعد النحوية والإنشائية ، ولا يصلح له غير المفتعل من الأساليب . وأكثر ما نراه من الأَقاصيص العصرية ليس إلا انتهاءً من القصص الصغيرة التي تباع في محطات أوربا ليتهاي بها المسافرون . فإن لم يكن بدءٌ من فن القصة في مصر فلنُفهم هؤلاء المتأدبين .

أن العنصر الأساسي في كل قصة هو وصف الأدواء
المحلية ، ومخاطبة الناس بما يفهمون ، أما انتهاب الأزمات
الوجدانية والاجتماعية من الأقصيص الأوربية فهو تقليدٌ

سخيّف

الأستاذ توفيق الحكيم - هذا تعريضٌ بالجيل الجديد

زكي مبارك - وأين الجيل الجديد حتى نواجهه بالتعريض؟

الدكتور طه - لا تخرج عن الموضوع

الأستاذ المراهوي - أحب أن أعرف ما هو الموجب

للتعلق بأهداب الأدب القديم؟

الدكتور عزام - بفضل الأدب القديم يعيش موظفو

دار الكتب المصرية !

الأستاذ المراهوي - يا خويا ، أنا هناك رئيس حسابات

الدكتور طه - الأدب القديم أساس الأدب الحديث ،

كما كان الكلاسيك أساس الرومانتيك

زكي مبارك - هذا كلام يحتاج إلى تعديل

الدكتور طه - لم يبق إلا أن تصحح آرائي في

الأدب الفرنسي ، يا دكتور زكي !

الأستاذ توفيق الحكيم - للمدينة الحديثة رجعات
إلى المدن القديمة ، وقد كنت أرى في بعض حانات
باريس جدراناً تلبس ثياب القديم ، وهي عند التأمل
زُخرفت كذلك لتُشوق الناظرين ، وقد نرى في بعض
المعارض زجاجات من الصهباء مغبرة معفرة لتُوهم الناظر
أنها معتقة ، وقد لا يكون مضي عليها أكثر من شهرين ،
والذي يزور مونتارتر يرى الأعاجيب !

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - ويكون معنى ذلك
أننا نحى صور الأدب القديم لننفض على الأدب الحديث
غبار العصور الخوالي

زكي مبارك - هذه عبارة مبتكرة ، وهي في رأيي
من وثبات الخيال

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - لا تغرقي في لجة

من الثناء

الأستاذ توفيق الحكيم - وهذه أيضاً عبارة مبتكرة ،

وبالعربي الفصيح عبارة مُحوية

الأستاذ ابراهيم مصطفى - أهذا هو « إحياء النحو »

يا حضرات الزملاء ؟

زكي مبارك - نترك الصور الباريسية التي عرضها

الأستاذ توفيق الحكيم ، وننظر فيما نراه بأعيننا في بعض

المساجد ، ألا ترون المصابيح الكهربائية وقد وُضعت في

هيئة الشموع ؟ ألا تفتنكم تلك المناظر حين تتخيّلون

المصباح القديم وقد استمدّ نوره من التيار الحديث ؟ نحن

كذلك نريد صوراً قديمة تحييها الأفكار الحديثة على نحو

ما نرى صورة الشمعة وهي مصباح تمدّه الكهرباء

الدكتور عزام - وهذا ما فعله العرب قديماً حين

نقلوا الأخيلة الفارسية

زكي مبارك - وما صنعه الأوربيون حين نقلوا

الاساطير اليونانية

الأستاذ توفيق الحكيم - وهذا ما يفعله الجيل الجديد

وهو ينقل الاخيلة العامية

الأستاذ إبراهيم مصطفى - في عبارات العوامّ أشياء
تفسر اختلاف بين الكوفيين والبصريين والبغداديين
زكي مبارك - وفي عبارات العوامّ ألفاظ تشرح الصلة
بين العربية والعبرية

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - وفي كلامهم عبارات
تمثل اختلاف المذاهب الفلسفية

الأستاذ الهراوي - وماذا لا تؤلف لجنة لتخليص
اللغة من هذه الديون؟ أتم والله تذكروني بما صنعت وزارة
الأشغال حين فكرت في عرض مسابقة دولية لتجميل
ميدان العتبة الخضراء . أفي كل عبارة ؛ وفي كل لفظة ؛
وفي كل إشارة ؛ صدّي لأصوات الفرس والروم واليهود
والفرنسيس والانجليز والألمان ؟

الدكتور طه - من الصعب يا أستاذ أن تظفر
المدنيات بالاستقلال المطلق ؟

الأستاذ الحكيم - وهل خلت مصر من السمات
الأجنبية ؟ إن في القرى المصرية شواهد لذلك ؛ ففي

المنوفية بلد اسمه شطانوف ، وبقليل من التأمل نعرف أنه
اسم فرنسي .

زكي مبارك - لا تقل ذلك ، يا أستاذ ، فشطانوف
ليست من (شاتونيف) كما تتوهم ، وإنما هي في الأصل
شط النوف ، ولها حديث في أقوال الشعراء .
الأستاذ توفيق الحكيم - لقد سمعت أن كلمة « عرب »
كلمة عبرية .

زكي مبارك - وأنا سمعت أن كلمة (عبر) كلمة
عربية .

الأستاذ إبراهيم مصطفى - هذا يسمى القلب المكاني
عند علماء الصرف .

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - كنت أنتظر أن
أسمع غير هذا الكلام ، كنت أنتظر أن تقولوا مثلاً إن
الأدب القديم يمثل مدينة لم يبق لها سلطان أدبي ، وإنما
نحيا في العصر الحديث متأثرين بما فيه من لغات وتقاليد .
الأستاذ الهراوي - هو ذلك يا فضيلة الأستاذ .

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - ولكن هل يصح
هذا القول على إطلاقه ؟ أليس من الحق أننا في أكثر
المذاهب الحيوية نصطنع أفكار القدماء ؟

الدكتور طه - النظام البرلماني في العصر الحديث
مقتبس من نظام الآتينيين ، ولا جديد تحت الشمس .
كما يقول الفرنسيون .

الدكتور عزام - والذي يقرأ الشهامة يدرك أن
غرام الملك إدوارد الثامن ليس إلا صورة لما عرفه الفرس
الأقدمون من جموح الأهواء .

الأستاذ الهراوي - أليس في تاريخ مصر ما يصلح
لضرب الأمثال ؟

زكي مبارك - وتاريخ مصر هو أيضاً شيء قديم .

الأستاذ الهراوي - قديماً ولا جديد الناس .

الأستاذ توفيق الحكيم - هذه الكلمة تصلح

موضوعاً لقصة اجتماعية

الأستاذ أحمد أمين - نعود إلى الموضوع

الأستاذ مصطفى عبد الرازق - أقترح أن نبدأ بنشر المؤلفات التي يعجز عن نشرها الأفراد ، فهناك مؤلفات مطولة أخشى أن لا تُنشر مرة ثانية ، مثل تاج العروس وشرح الإحياء والفتوحات الملكية الدكتور طه - اسمحو لي أن أستعمل سلطة الرئيس المؤقت فأرفع الجلسة ، على أن نجتمع في مثل هذا المساء من الأسبوع المقبل .

أما بعد فهذا محضر الجلسة الأولى من جلسات لجنة إحياء الأدب العربي ، فان سأل القارئ عما تم بعد ذلك فأنا أخبره أنني لم أحضر الجلسة الثانية ، ولكنني عرفت من مقال الأستاذ احمد أمين أن أكثر الأعضاء تخلفوا ، وأن الجلسة الثانية ضاعت في مناقشة لفظة واحدة ، وفهمت أيضاً من كلام الأستاذ أن اللجنة قد لا تنعقد مرة ثالثة إلا في الشمس !

نحن في مصر ، أيها القراء ، نحن نتكلم كثيراً

ونعمل قليلاً ، ولو رأيتم الحماسة التي ثارت في الجلسة الأولى لظننتم أننا سنُخرج ألف كتاب في العام الواحد ، ولكنكم رأيتم كيف عجزت تلك الحماسة عن البقاء ثلاثة أسابيع . والرئيس المؤقت الدكتور طه حسين . ما عذرُهُ المقبول ؟ وكيف رضي أن يشهد انحلال هذه اللجنة قبل أن تفرغ من صيغة التأسيس ؟

أهذه هي الحماسة للأدب العربي ونحن نزعم أننا وارثوه وحارسوه ؟

وأي الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟ ومتى ينشر المكنون من النثر الفلسفي ؟

إن في مصرع هذه اللجنة عبرة لمن يظنون أن الدنيا تُهدَم وتُبنى في جلسة واحدة ، ومن يفوتهم أن الأدب لا يحيا إلا بالمصابرة والاجهد الموصول

وسننظر ، فلعل أعضاء هذه اللجنة ينتبهون بعد قراءة هذا الحديث .

تسعة أيام في بغداد

- ١ -

في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر (مايو سنة ١٩٣٩) مضيت إلى محطة باب الحديد أودع الجارم بك بمناسبة سفره إلى بغداد للاشتراك في تأيين الملك غازي رحمه الله . ولم يكن من عادتي أن أراعي الواجب في توديع المسافرين من الأصدقاء ، لأن الأيام لم تدع لي من الفرص ما يسمح بمراعاة الواجب أو الذوق ، ولكنني شعرت يومئذ بالشوق إلى توديع من يرحل من القاهرة إلى بغداد عساني أحمله تحية إلى أحبائي في العراق .

وجاء الجارم بك إلى المحطة ومعه طفلاته الحلوة العذبة التي تسمى « أميرة » وهو اسم أحبه لأن له نظيراً في بغداد ، ولأن البواكير تشهد بأن صاحبة هذا الاسم قد تنقل قلمي من مكان إلى مكان ، إن قضى الله أن أعيش إلى أن تصبح رعبوبة هوجاء ؟

ثم جاء جاد المولى بك والدكتور عبد الوهاب عزام
وجماعة من كرام الزملاء

وبعد لحظات رأينا رجلاً كبير الهامة ، فارح الجسم ،
يدخل المحطة في موكب وحاشية فسارعنا إلى التسليم عليه
لنوؤدي واجب الأدب نحو المؤرخ الكبير صاحب السموّ
الأمير عمر طوسون ، حفظ الله حياته الغالية !

وجاء المصور ليقدّم إلى الصحف صور المسافرين إلى
بغداد ، فتهياً الجارم بك لوقفه شعرية تكون زاد النواظر
يوماً أو يومين ، ولكن المصور قال : لو سمح سمو الأمير
بالظهور في الصورة لكان الموقف أجمل وأروع . فتقدم
الجارم بك إلى سمو الأمير وهو يقول : يسمح أفندينا
بأخذ صورته ؟ نخاع سمو الأمير نظارته واستوى واقفاً في
نافذة القطار ، وبالتقرب منه فؤاد أباطه باشا سنديباد
العصر الحديث

وتسابقنا جميعاً إلى الظهور في الصورة مع سمو الأمير
ثم راعنا أن يقول : أين المسافرون إلى بغداد ؟ فتقدم

الجارم وعزام ، فأشار سموه بأن يقفأ إلى جانبه : فعرفنا
أن ظهورنا في الصورة أصبح من المستحيل ، وبذلك
ضاعت فرصة من أعظم فرص التشريف

وفي اليوم التالي ظهرت الصورة في الجرائد وفيها
شخص ثالث هو صديقنا زكي مبارك ، فهل يكون ظهوره
في الصورة بشيراً بأن يسافر إلى بغداد ؟

كانت لجنة تأيين الملك غازي قررت دعوة الهيئات
لا الأفراد ، فدعت وزارة المعارف والأزهر والجامعة
المصرية والصحافة ، أما وزارة المعارف فأوفدت الجارم بك
وأما الأزهر فأوفد الشيخ ابراهيم الجبالي ، وأما الجامعة
فأوفدت الدكتور عبد الوهاب عزام ، وناب عن الصحافة
الأستاذ أسعد داغر والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

ولكن التليفون يدق في المنزل وفيه هاتف يقول :

« يامولانا ، بغداد تحب أن تراك »

وأتأمل الصوت فاذا هو صوت السيد عبد القادر

الكيلازي فأجيب : إني لا أملك الموافقة إلا بعد استئذان

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف

وأمضي في اليوم التالي فاستأذن معالي الدكتور

هيكل باشا وأتأهب للسفر إلى بغداد

ولكن بأية صفة ؟ لا أدري ! باسم وزارة المعارف ؟

لا . باسم الأزهر ؟ وكيف ! باسم الجامعة ؟ يجوز ! باسم

الصحافة ؟ تلك أيامٌ خلتُ !

لم تبق إلا صفة واحدة هي أن أسافر باسم مصر .

وكذلك صنعتُ ، ومصر تعرف أني ابنها الوفي الأمين .

وقضيت لحظات في إعداد خطبتي ، ولكنها لم تعجبني

فأرجأت النظر في إكمالها أو تهذيبها إلى أن أدخل بغداد

وأتنسم هواء العراق

وفي فطار الصباح رأيتني في صحبة الوطني العظيم

طلعت حرب باشا فذكرته بنفسي ، وما كنت رأيتُه بعد

أن تلاقينا في باريس منذ عشر سنين

وفي الباخرة نظرت فرأيت مكاني في المائدة التي
يجلس اليها أصحاب المعالي والسعادة حافظ عفيفي باشا
وتوفيق دوس باشا وطلعت حرب باشاً وحسين فهمي بك
والسيد محمد شتا

وكانت الساعات التي قضيتها في صحبة هؤلاء الرجال
ساعات درس ، فأنا لم أعرف حافظ باشا عفيفي من قبل ،
ولم تكن معرفتي بتوفيق باشا دوس وطلعت باشا حرب
إلا معرفة سطحية . وحديث المائدة مع هؤلاء الرجال
يفتح الشبهة : لأنهم في الأغلب يخاعون أردية التوقر
والتحفظ ، ويتكلمون في شجون من الأحاديث فيها مُتعة
للذهن والذوق والعقل والوجدان

ومن تلك الأحاديث عرفت أن رجلاً كبيراً أضع
منصبه في الدولة بسبب البخل : فقد كان يركب السيارات
العمومية وهو في بذلة التشريفات !

فهل للدولة أن تنصفني وأنا رجلٌ كريم إلى حد

الاسراف ؟

وعرفت أشياء كثيرة من أسرار المجتمعات
الاريسستوقراطية ، وسأنتفع بما عرفت يوم أكون من
أقطاب الزمان . وما ذلك على الله بعزير

وفي لحظة من لحظات السمر تلتطف طاعت باشا فقال :
هل لك يادكتور أن تقص علينا كيف استحضرت روح
نسيم باشا ؟

فقلت : وما الذي يهيك من ذلك يامولاي ؟

فقال : لأن مجلة الصباح اقتضبت حديثك مع نسيم
باشا بعض الاقتضاب .

فقلت : يتفضل الباشا فيأمر باحضار مجلة الصباح
فضى كاتبه وأحضر المجلة وقرأ طلعت باشا بنفسه
فقرأت من ذلك الحديث ، فظاهر الاهتمام على توفيق باشا
دوس ورجاني أن أشرح بالتفصيل ما وقع في الجلسة التي
استحضرت فيها روح نسيم باشا

فقلت وأنا أبتسم : لم يقع من ذلك شيء ، ولم أر
وجه نسيم باشا في حياته ، ولم أخطب روحه بعد مماته ،

وما كان ذلك إلا حديثاً زخرفه أحد المحررين في
الصباح !

وعندئذ نهض رجل من حاشية طلعت باشا وصاح :

« هذا مستحيل ، هذا مستحيل »

فقلت : وما هو ذلك المستحيل ؟

فقال : مستحيل أن يُنشر خبر كاذب في مجلة الصباح .

فقلت : يا أخي ، أنا صاحب الشأن الأول في هذه

القضية ، ومن واجبك أن تصدقني .

فقال : أنا لا أكذبك ، ولكن ذهني لا يسيغ أن

تفتري مجلة الصباح عليك ، وقد قابلت القشاشي في بنك

مصر وسألته عن الحديث فقال : إنه صحيح .

كان توفيق باشا دوس أظهر رغبته في الاتصال

بمجريدة المقطم ليعرف وجه الحق في مسألة استحضار

الأرواح ، فلما رأني أكذب ما نسب إليّ في مجلة الصباح

فترت رغبته في مواصلة البحث ، واقتنع بأن الأمر في

جملته فنّ من المناورات الصحفية .

فاعترض طلعت باشا قائلاً : وكيف كانت هذه

المناورات من نصيب هذه الأيام ؟

فقلت : كذلك يكون الحال في الأيام التي تسبق

الحروب ، وستعرفون صحة ذلك بعد حين !

ولكن يظهر أن روح نسيم باشا كانت حضرت

بالفعل : فقد فُتِح حديث المائدة في اليوم التالي بقصة ذلك

الرجل ، وكان المتحدث هو توفيق باشا دوس .

هل أستطيع أن أصور ما وقع في ذلك الحديث ؟

إن ذلك لا يتم إلا بعد استئذان الرجلين توفيق دوس

وحافظ عفيفي .

وإنما يحتاج ذلك إلى استئذان لأنه ليس من اليسير

أن أسجل في مثل هذا الكتاب أن حافظ باشا عفيفي

غضب غضبة تشهد بأنه نشأ في الريف بين قومٍ تأبى

عليهم الفتوة أن يترفقوا حين يغضبون .

وقد وقع دوس باشا في حرج : فلا هو يستطيع أن

مجادل ، ولا هو يستطيع أن ينسحب ، وكاد الطعام يقف
في الحلق .
ونظرتُ إلى طلعتُ باشا أدعوه إلى وقف القتال بين
الرجلين العظيمين .

فهل استطاع طلعتُ باشا أن يحسم النزاع ؟
وكيف وقد انفجر حافظ عفيفي كما ينفجر الفلاح
الشريف حين يغضب . وللفلاحين الشرفاء غضبات .
وانتهت المائدة بما يشبه السلام ، ومضى توفيق دوس
إلى جانب ، وحافظ عفيفي إلى جانب ، وعدت إلى نفسي
أتأمل ما بين رجالنا من فروق في تصور ما في الحياة من
جدٍّ ومزاح .

أشهد أن ذلك الموقف أطلعني على جوانب من
الرجولة المصرية : فقد كنت أظن أن الرجال الذين وصلوا
إلى أعلا المناصب في الدولة قد صقلتهم الأيام وأبعدتهم
عن مواطن القسوة والعنف ، فلما رأيت ما وقع بين
توفيق دوس وحافظ عفيفي عرفت أن الفطرة المصرية

لا تزال بحمد الله سليمة ، وأن الرجل المصري لا يزال صالحاً
للتأثر بعوامل الرضا والفضب ، والحمد والملام .

فمن يبلغ نسيم باشا أنني استحضرت روحه في الباخرة
لا في مجلة الصباح ؟

من يبلغ نسيم باشا أن العدوان عليه لم يعض بلا عقاب ؟
قلت إن توفيق باشا دوس وقع في حرج : فلا ذكر
أنه احترم غضبة زميله كل الاحترام لأنه أحس أنه يفصح
عن قلب عامر بالوجدان

أولئك رجال ، والرجال لا تؤذيهم الصراحة ،
ولا يكرههم المنطق ، وهم لا يتصافون إلا صادقين ، ولا
يتعادون إلا صادقين

وحين اقتربنا من بيروت مضيت إلى مكتب الباخرة
لأدفع حسابي فعرفت أن أحد الباشوات دفع الحساب عن
جميع المصريين ، فمن هو ذلك الباشا الذي دفع عنا ؟

ليتني أعرف من هو لأسأل الله أن يدفع عنه جميع
المكارة ويسبغ عليه ثوب العافية !

كان في منهج الرحلة أن أمتطي سيارة من بيروت إلى دمشق لأستريح هناك ليلة ثم أسافر إلى بغداد. ولكنني فوجئت بخبر مزعج هو إضراب أصحاب السيارات ، وإنما كان هذا الخبر مزعجاً لأنه يوجب أن أسافر بالقطار وهو يقطع في اثنتي عشرة ساعة ما تقطعه السيارة في ساعتين اثنتين ! وذلك شاهد جديد على عنف المنافسة بين السيارات والقطارات

وما كدت أدخل دمشق حتى عرفت أنه يجب أن أسافر إلى بغداد في الحال ، لأن السيارة تنتظر قدومي : فقد حضر المسافرون ولم يتخلف أحد سواي . ومعنى ذلك أن أقضي ليلتين متواليتين في سفر بدون أن أستريح والله المستعان على متاعب الصحراء !

وشرع الخاطر يستعيد ما مرّ في الرحلة من الطيبات : فتذكرت العروسين اللذين رأيتهما في الباخرة ، وتذكرت

اللحظات التي قضيتها في بيروت ، وتذكرت الحبيبين اللذين
قضيا الليل متعائنين في القطار ، وأنا أشهد صراع العواطف
وصيال القلوب .

ولكن ذلك كله لم يؤنس روحي .
وتأملت فجأة فرأيتني أقاتل الدكتور طه حسين وهو
يحاول الخلاص فلا يطيق .

ولكن كيف قاتلت الدكتور طه حسين وأنا في
الطريق إلى بغداد ؟

كان هذا الباحث الكبير ألقى محاضرة في الإذاعة
المصرية منذ أشهر عن الصور التي انتقلت من الشعر
الجاهلي إلى الشعر الاسلامي ، وهي محاضرة قامت على غير
أساس ، ولكنها مع ذلك ظفرت بالقبول من المستمعين :
لأن لأحاديث هذا الرجل بريقاً يصور الخطأ بصورة الصواب .
قال الدكتور طه مامعناه :

« كان الشاعر الجاهلي يصف رحلته إلى ممدوحه
فيصورها شاقة متعبة ، فجاء الشاعر الاسلامي ونقل عنه هذا

الوصف ، مع أن السفر صار في العصر الإسلامي سهلاً لئناً .
ذلك كلام قاله الدكتور طه حسين ، وسمعه الملايين
من الناس .

فهل يستطيع هذا الباحث الكبير أن يثبت كيف
سهلت الأسفار في عصر بني أمية أو عصر بني العباس ؟
هل يستطيع أن يثبت أن الخلفاء شقوا طريقاً واحداً
بين بغداد والبصرة ، أو بين الكوفة والموصل ، أو بين
دمشق وبغداد ؟

لقد عانيت العذاب وأنا أقطع بالسيارة ما بين النجف
وكرבלاء ، على قرب ما بين هاتين المدينتين .

ولو قضى الدكتور طه خمساً وعشرين ساعة وهو
محبوس في السيارة بين دمشق وبغداد لعرف أن الشكوى
من عذاب السفر شكوى طبيعية لا ينقلها الشعر الإسلامي
عن الشعر الجاهلي إلا إذا أراد الباحث أن يسلك مسلك
الدكتور طه في الهيام بأودية الفروض !

ثم وقع حادث صرفني عن مشاغبة الدكتور طه حسين :

فقد رأينا سرباً من الطباء الوحشية يعدو عدواً سريعاً ؛
ولم يكن لذلك السرب بدءٌ من اعتراض السيارة ؛ والظباء
لا تخلو من حمق ؛ فصبوبٌ نخري بك البارودي مسدسه
وأطلق على السرب رصاصتين فضاعتا في الهواء ونجت الطباء .

أيها القناص ما أحسنت صيد الطبّياتِ

فاتكَّ السَّرب وما زوِّدت غير الخسراتِ

وسألت عن السبب في حرص ذلك السرب على اعتراض

طريق السيارة فقال أحد الخبراء : إن الغزلان لا تنحرف

عن الطريق الذي رسمته لنفسها حين تعدو ، ولو لقيت الختف ا

فيا أيها الطباء ؛ إياكم والعناد ا

كانت الرحلة متعبةً جداً؛ ولم يخففها إلا الشعور بشرف

الغرض : وهو مواساة العراق

فكيف لقيت بغداد ؟

وكيف كانت حفلة التأيين ؟

وكيف جال الخطباء والشعراء ؟

وصلنا إلى الرمادي مع طلوع الفجر ، والوصول إلى
الرمادي هو بشير القرب من بغداد ، إلا في هذا الموسم :
موسم طغيان الفرات .

ولم نكد ندخل الرمادي حتى رأينا في استقبالنا جماعة
من كرام الموظفين هناك ، وتلطف مدير الشرطة في تلك
المنطقة فأوفد في صحبتنا شُرطياً يجتاز بنا طريقاً يوفر من
الوقت نحو ساعتين . وبعد أن كلفت السيارة ما كلفت
في الطواف حول مياه الحبانية وصلنا إلى الفلوجة ونحن
من التعب أنضاء .

والفلوجة قرية على شاطئ الفرات بينها وبين بغداد
مسير ساعة بالسيارة ، وهي اليوم مقر الشاعر معروف
الرصافي ، وإليها حججت في العام الماضي لأؤدي إليه تحية
الأديب للأديب .

وكانت رؤية الفلوجة إيداناً صريحاً برؤية بغداد ،

ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان : فقد أرادت بغداد أن تُفهمنا بلغة صريحة أن لا بدَّ من الشعور بقوة الجيش لمن يواجهه « دار السلام » .

خطت السيارة خطوات ، ثم وقفت ، لأن هناك فارساً يشير إليها بالوقوف .

وجاء الفارس فأفهمنا أن الجيش في مناورة قد تدوم نحو ساعتين ، وأن السير نحو بغداد قد يعرضنا لخطر الرصاص .

وعندئذ أشار أحد الرفاق بالرجوع إلى الفلوجة ، ولكنني كنت أعرف ما يريد ذلك الرفيق ، فعارضتُ في الرجوع ، وهل كان يريد إلا الظفر بأنس ساعة أو ساعتين في ضيافة السيد إبراهيم صالح شكر متصرف الفلوجة ؟ !
و في تلك الغمرة من ضجر الانتظار في أعقاب ذلك السفر الشاق تلفتُ فرأيت ذهني يعالج مشكلة لغوية : فقد نطق الفارس كلمة « مناورة » بفتح الميم لا بضمها ، كما ينطق المصريون ، فقلت : ألا يمكن أن تكون كلمة

مناورة تعريباً للكلمة الفرنسية Manoeuvre وكان التفكير في هذه المشكلة اللغوية كافياً لنجأتي من متاعب ذلك الانتظار الثقيل .

قد يكون ما افترضته صحيحاً ، إلا أن يتقدم أحد أعضاء المجمع اللغوي فيثبت أن كلمة مناورة كانت معروفة في التعابير العسكرية العربية ، كما استطعت أنا أن أثبت أن علماء البلاغة ظلوا مئات السنين يهرفون بما لا يعرفون في انتقاد قول المتنبي :

فان يكُ بعض الناس سيفاً لدولةٍ

ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولٌ

فقد زعموا أن المتنبي أخطأ حين جمع بوقاً على بوقات ، وكانوا هم المخطئين ، لأن بوقات ليست جمع بوق ، وإنما هي جمع بوقة ، وهي لفظة اصطلاحية في الأنظمة العسكرية العربية ، ولها شواهد تعدُّ بالآلاف لمن يراجع كتب التاريخ .

ثم تلتطف أحد الفرسان الذين يرقبون المناورات فاختار
لنا طريقاً ندخل به بغداد في أمان
الله أكبر والله الحمد !

هذه بغداد ، وهذا قيظ بغداد ، وهو على روعي

رَوْحٌ وريحان

وأولئك إخواني يلقونني بالابتسام والعناق

ولكن هل خففَ قلبي لرؤية بغداد ؟

وكيف وقد شعرت أنني ما فارقتها من قبل ؟ وكذلك

لم أتمثل بقول الشريف :

فيلقى بها بغدادَ كلُّ مكبر

إذا ما رأى جدرانها وقبابها

مع أنني كنت أتمثل بهذا البيت حين أفد إليها من

البصرة ، أو من الموصل ، أو من كربلاء

وهل فارقت بغداد حتى أشعر بنعمة الرجوع إلى

مربع بغداد ؟

إن بغداد لم تفارقني ولم أفارقها منذ تلاقينا أول مرة في

موسم التمر سنة ١٩٣٧ ، ومن المؤكد أنني لن أفارق هذا
البلد أبداً ، ولن أنساه ، ولن أفرط في حبه ، ولن أترك
فؤاده خالياً من هواي ، ليحتله عاشق سواي

وأحملُ في ليلي لقومٍ ضغينة
وتحملُ في ليلي عليَّ الضغائنُ

نزلت في فندق مود مع وفد مصر ، وأسرعت
فأصلحت من شأني لأستعد للتحيات والتسلميات ، وفتحت
النافذة لأمتع بصري برؤية السائرين في شارع الرشيد ، ثم
أقبل الخادم يقول : الجارم بك يسأل عنك .

الجارم يسأل عني ؟

هذا والله غاية العجب !

ونزلت فرأيت سعادة حمد باشا الباسل ففرح بلقائي
فرحاً شديداً ، وسألت عن الجارم فعرفت أنه ذهب
لزيرة الأستاذ طه الراوي

وبعد لحظات جاء الجارم ، وما كان ينتظر أن يراني

هذه المرة في بغداد ، فسلم تسليم الشوق : ونطقتُ
معارف وجهه بالابتهاج والارتياح ، وتناسى ما كتبتُ عنه
في كتاب « ليلي المريضة في العراق »

فن هو الجارم الشاعر ؟
أعترف بأني ألقى عنتاً في الحديث عن هذا الرجل ،
لأن بيننا ترات تمورُ عقابيلها من حين إلى حين
ولكن لا بدَّ من تسجيل رأيي في الشاعرية التي
تفجرت في صدر هذا الرجل منذ أعوام
في صيف سنة ١٩٣٢ مات الشاعران حافظ وشوقي
فكتبت في البلاغ مقالاً أقول فيه ما معناه : « لقد استبد
حافظ وشوقي بالشعر وأخماً مئات من الشعراء ، فهل
يكون موت هذين الشاعرين فرصة لظهور المواهب التي
أخفاها ذلك الاستبداد ؟ »

ولقيني الجارم بعد ظهور تلك الكلمة فقال : الحقُّ معك
يادكتور زكي ، هذه فرصة نظهر فيها يا حضرة الأخ ،

ومن الواجب أن نحفظ راية الشعر لهذه البلاد .
غير أن الجارم لم يستفد من موت حافظ وشوقي ولم
يوفق إلى شيء طريف .

ثم شاءت المقادير أن يصير شاعراً كبيراً تُنصب لشعره
الموازين : فقد مات ابنه الأكبر ، وكان من النوابغ بين طلبة
كلية الهندسة ، وبموت ذلك الابن النابغة خلق الجارم خلقاً
جديداً ، فهو اليوم أكبر شعرائنا في نظم قصائد الرثاء .

فإن رأيتم الجارم يلبس شارة السواد في جميع الأوقات
فاعلموا أنه حزينٌ حزناً أبدياً ، ثم تذكروا أن هذا الحزن
هو الذي خلق منه ذلك الشاعر الذي تعرفون

أحسن الله عزاءك أيها الشاعر ، وكتب العافية
لقلبك الجريح !

كنا مشغولين بالتفكير في رثاء الملك غازي ، ولكن
حمد باشا كان له شاغل آخر ، شاغل مزعج : هو الخوف
من أن لا يوفق إلى الصلح بين القبيلتين المتعاديتين قبيلة
شمر وقبيلة العبيد .

ومضينا لتناول الغداء عند نخامة رئيس الوزراء فلم
يُخفِ حمد باشا جزعه على مصير قضية الصلاح ، فابتسم
رئيس الوزراء وقال : ولكن ما مصدر هذا التخوف ؟
فقال حمد باشا : أنا في بغداد منذ يومين ولم يحضر
أحد من المتخاصمين للتسليم عليّ . فقال رئيس الوزراء :
إن المتخاصمين يقيمون في بغداد في مكانين متباعدين ،
والحكومة تسهر عليهم لئلا تتجدد أسباب القتال .

وقد تأذيت حين سمعت هذه الكلمة : فمنها عرفت أن
مهمة حمد باشا ليست هينة ، ودعوت الله أن يجزيه على
حسن نيته فيجمع ما تنافر من تلك القلوب

وما هي إلا لحظة حتى استطاع الجارم أن يغير

مجرى الحديث

ولكن كيف ؟

أخذ يسأل عن أخبار ليلى ويشير الخصومة بيني وبين
فخامة نوري باشا السعيد بحجة أنني أسندتُ إليه وقائع في
كتاب ليلى المريضة في العراق ، وهي وقائع محتاج إلى تحقيق ا

ورجعت إلى الفندق لأستريح ، فقد كنت قضيت
أياماً في أسر غبار الطريق ، وما كدت أداعب الأحلام
حتى سمعت صوت الخادم :

دكتور ، دكتور ، تليفون من كربلاء !
وأسرعت إلى التليفون فرأيتني أواجه الكاتب الذي
شغل نفسه بحديث الليل في القاهرة والقاهرة في الليل ،
وهو السيد عبود شلاش

ورجعت فرأيت جماعة من الإخوان في انتظاري فلم
أستطع الانصراف عن إمتاع النفس بحديثهم الجميل
وفي المساء شرعت أستعد لأكمال خطبتي في رثاء
الملك غازي . ولكن الأستاذ المازني كان حضر بالطيارة
ولم يكن بد^ه من الأانس بسؤاله عن أندية القاهرة وعن
شارع فؤاد

وجاءت سيارة الأستاذ طه الراوي فنقلنا إلى داره
العامة فقضينا هنالك صدر الليل

متى أكل خطبتي؟

أكلها بعد أن أسأل عن جيرانى فى المنزل الذى كنت

أقيم فيه بشارع الرشيد

يا له من منزل ، ويا لهم من جيران !

اهتديت بنور القلب إلى الشقة رقم . . . بالرغم من

سواد الظلام

ولكن نحن فى نصف الليل ، فهل من الذوق أن

أطرق باب الجيران القدماء فى نصف الليل ؟

ليتني فعلت ، فما كان بينى وبين أولئك الجيران حجاب !

ومضيت فطوفت بشارع العباس بن الأحنف وشارع

صريع الغواني لأتنسم أرواح ليلي وظمياء

وهل كان يمكن أن أبيت فى بغداد ولا أطوف بدار

ليلي ودار ظمياء ؟

أين خطبتي ؟ أين ؟ أين ؟

لقد كتبت منها صفحات في ليلة السفر ، ولم تعجبني ،
فما الذي أصنع ؟

أترك ذلك إلى الصباح ، فلنهار عيون ، كما يعبر أهل
سينتريس .

ما هذا ؟ وما الذي جدَّ من الشؤون بعد أن فارقت
بغداد ؟

أولئك تلاميذ يسرون في الطرقات في ملابس جديدة
ووفقاً لنظام جديد يسمى نظام الفتوة ، فما هو ذلك النظام ؟
وما قيمته في حياة التعليم ؟

هل جئت للاشتراك في تأيين الملك غازي ؟ أم جئت
لتسجيل ما جدَّ من الأنظمة في وزارة المعارف ؟

إن حفلة التأيين سيشارك فيها خمسة من المصريين ،
فليكن من واجبي أن أقضي هذا اليوم في عمل آخر هو
فهم هذا النظام الذي ابتكرته وزارة المعارف العراقية ،

وهل أعددت خطبتي حتى أطلب مكاني بين الخطباء في
حفلة التأبين؟

إلى وزارة المعارف

إلى وزارة المعارف

فقد أستفيد شيئاً أنتفع به في الأيام المقبلة .

في صباح يوم الأحد وهو اليوم الخالص بتأبين الملك
غازي شغلت نفسي بمسألتين : الأولى إعداد خطبتي ،
وكانت الحفاوة بالمازني شغلتنني عنها ليلة أمس ، بغض النظر
عن اللحظات التي قضيتها في التعرف إلى معالم الهوى
في بغداد

والمسألة الثانية هي زيارة وزارة المعارف للتسليم على
إخواني هناك ، ولمعرفة بعض التفاصيل عن نظام الفتوة
الذي فرضته تلك الوزارة على التلاميذ

أما الخطبة فيظهر أنني لن أكملها أبداً ، لأن إكمالها
يوجب أن أخلو إلى قلبي بضع لحظات ، وذلك في حكم
المستحيل : لأن من عادة أهل بغداد أن يسلموا على
ضيوفهم ويؤنسونهم بالزيارات ، وفي هذا ما يشغلي عن
الخلو إلى قلبي

وبقليل من التأمل عرفت أنه لا موجب لأن أهتم
بالقاء خطبة في الحفلة التي ستقام بعد العصر في أمانة
العاصمة ، لأني آخِر من حضر من مصر ، ولأن منهيح
الحفلة طُبع قبل أن أحضر ، وليس من العقل أن أطلب
بمكاني في ذلك الاحتفال وأنا أعرف أنني تأخرت في الحضور
وأعرف أن خطبتي لم تكتب بأسلوب يرضيني .

وما الغرض من الاشتراك في حفلة التآيين ؟

الغرض هو إظهار العطف في مواساة العراق ، وهذا
العطف سيظهره خمسة من رجال مصر لهم في الشعور
والخطابة مكان مرموق .

فإن لم يكن بدٌّ من أن أتكم فهناك مجال آخر هو
الاذاعة اللاسلكية ، وتلك فرصة باقية سأنتفع بها حين أريد .

بقيت المسألة الثانية وهي زيارة وزارة المعارف لدرس
نظام الفتوة ، ولكن كيف أستطيع ذلك وأنا مسئول
عن مصاحبة الوفود العربية لزيارة الضريح الذي دفن فيه

الملك فيصل وغازي ؟

إن هذه الزيارة لها قيمة معنوية ، وفيها يلتقي الوفود بعضهم مع بعض ، وسنذهب لزيارة الوزارات بعد أن نعيد أسماءنا في سجلات البلاط .

وفي حومة التفكير في هذه الشؤون قدم لتحتي صديق عزيز ، فقال والدموع في عينيه : شكر الله سعيك يا دكتور ، فبغداد تستحق منك المواساة ، لقد كانت بغداد في زينة العروس أيام آذار ، ففيه احتفلنا بميلاد الملك غازي الأول ، وفيه احتفلنا باستعراض الجيش ، وفيه احتفلنا بفتح سدّة الكوت ، ولم نكن ندري أن المقادير ستفرض على بغداد أن تلبس بعد ثوب العرس ثوب الحداد .

وعزّ عليّ أنّ أسمع هذه التفاصيل المبكيات ، ثم تعزيت حين تذكرت أن الحزن والفرح لوانان أساسيان من ألوان الوجود .

...

يقع ذلك الضريح في الأعظمية ، والأعظمية محلة

عزيزة غالية ، فيها مراتع للطباء ، ومرابض للأسود ، وهي صلة الوصل بين الكاظمية وبغداد .

والأعظمية منسوبة إلى الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، وهو في رأي أعظم الفقهاء لأنه درس الحياة قبل أن يدرس التشريع .

والطريق بين بغداد والأعظمية يشبه الطريق بين مصر الجديدة والعباسية ، ولا يعوزه إلا الترام الأبيض ليكون نزهة الأبخار في الضحى والأصيل .

مضيت إلى الضريح وأنا حزين ، وكم كنت أود أن أرى الأعظمية في غير أيام الأحزان ، فما خلقت تلك المحلة إلا لتكون بهجة الأرواح والقلوب .

ما أنت والحزن ، أيتها الأعظمية ؟

إن الضريح في أديمك الغالي هو الخال في صفحة الخلد

الأصيل .

ما أنت والحزن ، أيتها الأعظمية ، وقد خلقت من

الأنوار ، وخلق الحزن من الظلمات ؟

أمثلي يسير فوق ثراك وهو محزون ، بعد أن ذاق
في حماك أفويق النضرة والنعيم ؟

لغير قلبك الخفاق يكون الشقاء ، أيتها الأعظمية !
ولغير لياليك البيض يكون السواد ، أيتها الأعظمية !
والعيش كله فداءً للحظة من نعيم الحب في مَفنَّاك
الأمين ، أيتها الأعظمية !

حماك الله ، يادار الهوى ، من اللواعج والشجون !
حماك الله ، يادار أحبابي وأصدقائي ، من كل ضيم ،
وردني بخير وعافية إلى لياليك المقمرات ، فما كنت إلا
بدرًا بدد الظلمات من غمرات قلبي !

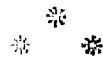
دخلنا فزرنا الضريح ، ضريح الملكين فيصل وغازي ،
وآذانا أن تتذكر أن العراق فقد ملكين في إمدة تشبه
أعمار الورود ، وزاد الحزن حين تذكرنا أن العراق كان
يتشوف إلى ثبات الاستقرار في عهده الجديد ، ثم تعزينا حين
عرفنا أن العراق أقوى وأعظم من أن تعصف به عواصف
الجزع والقنوط .

وحين دخلنا البلاط خلعتنا عن قلوبنا أردية الأكتتاب ؛
وأحسنا أرواح البهجة تحيط بنا من كل جانب ، ورجونا
أن تدوم الهيبة لذلك العرين

وفي البلاط أخذ أبناء العروبة يتعرف بعضهم إلى
بعض ، وكان المصريون بحمد الله أظهر الرجال في ذلك
اليوم المشهود

وتقدم أحد شعراء لبنان فقال : حيث حأت مصر
حمت البركات والطيبات

فقلت : لأن مصر تشعر أن لها سناداً من القلوب
العربية ، والسناد الأقوى هو سناد القلوب



ثم توجهنا إلى رئاسة مجلس الوزراء فقضينا لحظات في
ضيافة حضرة صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، ومضينا
بعد ذلك إلى وزارة الخارجية ، ثم عرجنا على أمانة
العاصمة فابتسم أحد العراقيين وقال : هذا معالي السيد
أرشد العُمري أبو السدارة ! فصالحني معالي الأمين وهو

يقول : نريد نعمل لنا فرد حكاية جديدة !

فقلت : ليت أيامي وأيامك تعود ، يامعالي الأمين !

وكان ذلك إشارة طريفة إلى الحوادث التي سجلتها في

كتاب « ليلي المريضة في العراق »

ومضيت إلى وزارة المعارف فوجدت الوزير في لجنة

علمية ، فأتجّهت إلى السيد محمد حسين الشبيبي أسلم عليه ،

واستأذنت بعد لحظات لأرى تلاميذي بدار المعلمين العالية

فصاح : يا فرحتاه ! يا فرحتاه ! !

إي والله ، يا فرحتاه ، يا فرحتاه ! !

كيف شاءت المقادير أن أرى تلاميذي بدار المعلمين

العالية وقد ودعّتهم بالدمع السخين منذ أحد عشر شهراً ؟

وهل اتفق لأحد من الأساتذة أن يحب تلاميذه كما

أحببت تلاميذي في بغداد ؟

لقد توجع تلاميذي لفراقي توجعاً لم يعرفه أبرار الأبناء

لفراقي الآباء الأعزاء ، فكيف أنسى تلاميذي في بغداد ؟

كيف أنسى تلاميذي هناك وما كانوا إلا صوراً لطيفة
لتلاميذي الأوفياء بالجامعة المصرية ؟

كيف أنسى تلاميذي في العراق وبهم عرفتُ كيف
يقوى القلب ويسمو الروح ؟

كيف أنسى الأبناء النجباء الذين أحاطوني بأكرم
معاني الرعاية والعطف ؟

كيف أنسام وبفضاهم استطعت أن أضع أحجاراً
متينة في بناء الحياة الأدبية في العراق ؟

كيف أنسى تلاميذي بدار المعلمين العالية وقد أوقدت
في صدورهم جذوةً لن تخمد ولن تبيد ؟

كيف أنسى تلاميذي في العراق ؟

كيف ؟ كيف ؟

إن أيامي في العراق هي الغرة الواضحة في حياتي
الأدبية ، فليحفظ الله تلاميذي في العراق ، وليجعلهم

ذخيرة الأدب وشرف الجيل الحديث !

— ألو . ألو

-- من يتكلم ؟

— الدكتور عقراوي ؟

— ليس ، من يتكلم ؟

— طيب ليلي يتكلم !

— الدكتور مبارك ؟ أين أنت لأحضر اليك ؟

— أنا الذي سأحضر اليك !

— بل أنا الذي أحضر اليك

— أنت لا تهمني بالدرجة الأولى ، يا دكتور .

— ومن الذي يهمك ؟

— يهمني تلاميذي ، فاحجزهم حتى أحضر اليك .

وفي دقائق أو ثوان كنت في دار المعلمين العالية .

هل أستطيع أن أشرح كيف فرحت حين رأيت

الدكتور عقراوي بصحة وعافية ؟

لقد كدت أطيّر من الفرح حين اطمانت على صحة

ذلك الزميل العزيز

ومضينا فدخلنا الصفوف بدون استئذان .
فيا ربّ كيف تلطفت ففضيت أن أرى تلاميذي
في العراق مرةً ثانية ؟

لقد وثبت قلوبهم وثبةً عنيفة حين رأوني .
أما أنا فقد عقل الفرح قلبي ، وبلبل لساني . والفرح
الشديد أكثر سيطرةً على القلب من الحزن العنيف .

— تلاميذي الأعزاء ، كيف أنتم ؟

— وكيف أنت ، أيها الأستاذ الغالي ؟

وجرت ألفاظ وتعايير لا يدرك مغازيها غير أصفياء

القلوب .

وانطلقت مع الدكتور عقراوي أدرس ما جدّ من
البنائات الملحقة بدار المعلمين العالية ، وسرني أن أعرف
أن تلك الدار لن تهزم بعد اليوم

إن دار المعلمين العالية هي رجاء العراق في عهده
الجديد ، لأنها تُعدُّ الأساتذة للمدارس الثانوية . وإعداد

المعلم المثقف هو الحجر الأول في بناء الشعوب

ثم رجعت إلى الفندق فرأيت حمد باشا لا يزال في قلق على مصير قضية الصلح بين القبيلتين المتعاديتين ، وعرفت أنه سيشير إلى ذلك في الخطبة التي سيلقيها في حفلة التأبين ، فقلت : يسمح الباشا باطلاعي على نص الخطبة ؟ فقال : فيه شيء ؟

فقلت : أحب أن أعرف على أية صورة تشير إلى هذه القضية في خطبتك ؟

فأمر خادمه بإحضار الخطبة بدون تردد وهو يقول :
أتم أبناءونا ، والاستئناس بأرائكم ينفع كل النفع .
ونظرت في الخطبة فرأيتها غاية في الدقة حتى ليحسب القارئ أن ألفاظها وضمت في الميزان .

وعند العصر مضينا إلى بهو أمانة العاصمة لنحضر حفلة التأبين ، فهل أجاد الخطباء والشعراء ؟ سنعرف ذلك في المقال المقبل إن وجدنا من الشجاعة ما نقول به كلمة الحق .

هفلة عربية:

نحن في بهو أمانة العاصمة في « عصر الأحد » كما
عبر منهج الاحتفال ، وكنت أحب أن يقال : « عصرية
الأحد » فان كلمة « عصرية » كلمة جميلة ، وهي كذلك
كلمة حية في الريف المصري ، وهي تماثل التعبير الفرنسي
Après-midi فأرجو أن يذيع استعمالها بعد اليوم

وهو أمانة العاصمة بناية كبيرة منقولة في أصل الوضع
عما يسميه الفرنسيون Hotel de ville وترجمتها « دار المدينة »
أو « دار المحافظة » بالتعبير المصري يوم يكون لمحافظة
القاهرة دار تتسع لإقامة الحفلات كما يتسع بهو أمانة
العاصمة في بغداد

والظاهر أن « بهو الأمانة » يختلف في المدلول عما
كان يسميه العرب قديماً « دار الإمارة » فدار الإمارة هي

الدار التي كان يجلس فيها الخليفة أو نائبه لاستقبال الوفود
أما الـ Hotel de ville الذي كان يعرفه العرب فهو
المسجد الجامع ، فالى المسجد الجامع كان يتوجه الخليفة أو
نائبه للإبلاغ الجماهير ما يهمهم من عظيم الشؤون ، وفي
المسجد الجامع كانت تذاع أخبار الحرب والسلام ويُعرض
على الناس ما جد في العالم السياسي من مشكلات .
وخطبة الحجاج في مسجد الكوفة هي من الشواهد التي
تؤيد ما نقول .

وأذكر بهذه المناسبة أني شهدت في العام الماضي
أعمال التنقيب على جدران دار الامارة بجانب مسجد
الكوفة . ويوم تظهر مساحة تلك الدار سنعرف بعض
الشيء عما كانت تصلح له في ذلك الزمان .

تقاليد بهو الامانة :

ولبهو الامانة في بغداد تقاليد جديدة تقامها معالي السيد
أرشد العمري عن نظام الأوتيل دي قيل في الممالك
الأوربية : عرفت ذلك يوم اقترحت على معاليه أن يسمح

بأن ألقى محاضراتي الأدبية في ذلك البهو لأصل إلى أسمع
السواد الأعظم في بغداد

حدثني معاليه قال : لم أجد بهو الأمانة في أوروبا
يُستعمل لغير السهرات الراقصة وحفلات القبول

فقلت : أيباح الرقص في البهو ولا يباح الدرس ؟
فأجاب : نعم ، هو ذا ، لأن للمدرس أماكن تغني عن
هذا المكان

وأنا أرجو معاليه أن يعدل هذا التقليد بعض التعديل .
فقد لاحظت أن النقل عن أوروبا لا يصلح في جميع
الأشياء ، وأكاد أجزم بأن بغداد معرضة لخطر عظيم
بسبب إقبالها على أنظمة المباني الأوربية : فبغداد في هذه
الأيام تقيم المنازل الجديدة على طريقة البناء بالأسمنت المسلح ،
والبناء بالأسمنت المسلح لا يصلح أبداً في العراق ، وستكون
له نتائج سيئة في تهديم الأعصاب

وإذا جاز لمصر أن تؤثر البناء بالأسمنت المسلح فإن

ذلك لا يجوز للعراق ، لأن مصر قد ازدحمت بالسكان
ازدحاماً أوجب غلاء الأرض ، ولا كذلك العراق ففيه
مساحات واسعة تمنع ذلك الغلاء ، ولأن جو مصر أكثر
اعتدالاً من جو العراق

والمأمول أن تصل هذه الرغبة إلى آذان أهل بغداد ،
ولعاني لا أسرف إذا رجوت معالي السيد أرشد العمري أن
يراعي ذلك في إرشاد أهل بغداد إلى متابعة النظام المألوف
في الأبنية القديمة ، ذلك النظام الذي كان يفرض عرض
الجدران لتقي الناس برد الشتاء وحر الصيف

بمراية الراهة قال

ونظرت فرأيت الحفلة تأخرت دقائق عن موعدها ،
ثم حضر صاحب السمو الأمير عبد الإله فعرفت أنهم كانوا
ينتظرون ذلك التشريف

بدئت الحفلة بآيات من الذكر الحكيم ثم تقدم صاحب
الفخامة رئيس الوزراء فألقى خطبته وهو جالس ، ولم تكن
خطبة وإنما كانت ضرباً من المحاضرة قامت على أساس

القول بأن حالة العرب في العصر الحديث تشبه حالتهم في
المدة التي سبقت ظهور الاسلام . . .
والخطبة تجعل الرسول بطلاً عربياً ، ولعل نخامة
نوري باشا يحدد هذا المعنى في خطبة ثانية ، فالرسول كانت
مطامحه أوسع وأعم وأشمل ، ولم يكن يقصر مساعيه على
العرب وحدهم ، وإنما كان يريد أن يقوم العالم كله على نظام
العدل والتوحيد

فالقول بأن الرسول بطل عربي هو قول خلقتسه
الظروف التي أوجبت أن يتخلص العرب من سلطان
لأتراك ، ويوم تزول الظروف التي قضت بأن يبغي بعض
المسلمين على بعض سنعرف أن للعروبة غاية باقية هي
الدعوة إلى أن يسود العدل والتوحيد في الشرق والغرب
فتى يأتي ذلك اليوم ؟ ومتى تعود السيطرة الروحية
للغة العربية ؟

لقد كان العرب إنجليز زمانهم ، وكانوا يرون الحنين
إلى الوطن ضرباً من الضعف ، فتى يستعدون للتخلق بأخلاق

الرسول الذي دعاهم إلى اغتنام المنافع المعنوية والمادية بالشرقين

والمغربين ؟

متى ؟ متى ؟ إن ذلك ليس بالمستحيل إذا صححت العزائم

وصدقت القلوب .

هو الحفلة

أرادت لجنة التأبين أن تصطبغ الحفلة بصبغة القومية

العربية ، فلم يتكلم فيها من أهل العراق غير اثنين ، وتكلم

واحد من شرق الأردن ، وثلاثة من سورية واثنان من

لبنان واثنان من فلسطين ، وتكلم خمسة من مصر ، منهم

معالي الدكتور هيكل باشا ، وقد ألقى خطبته الأستاذ

محمد بهجت الأثري

وقد ظفرت أكثر الخطب والقصاصد بالقبول ، ولم

يضمجر الجمهور إلا من رجلين اثنين : الشيخ إبراهيم الجبالي

والشيخ محمد اليعقوبي

فهل أستطيع أن أقول كلمة الحق في الضجر من

هذين الرجلين ؟

نحن في مصر تعودنا الجهر بكلمة الحق وعلى الأخص
حين توجه إلى رجل يصلح للحكم على نفسه مثل فضيلة
الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي ، فما الذي يمنع من التصريح
بأنه لم يوفق في الخطبة التي ألقاها في بغداد ؟

الشيخ ابراهيم الجبالي رجل معروف بالعلم والأدب
والفضل ، وتفسيره لسورة النور يشهد بأنه قد استنار
بأساليب البحث الحديث ، وهو في الواقع من أكبر العلماء
في الأزهر الشريف ، ولكن خطبته في بغداد ألفت
بمجموع المستمعين في هاوية من السامة والملال .

فن أين وصل الخطأ إلى هذا الرجل الحصيف ؟

هل كان يعجز الشيخ الجبالي عن إعداد خطبة

تناسب المقام ؟

هل كان يعجز عن أسر من يستمعون إليه في بغداد ؟

أظن أن الخطأ وصل إلى هذا الرجل من توهمه أنه

يمثل الأزهر واعتقاده أن الأزهر لا يطالب منه غير إلقاء

العظات .

وكذلك وقف الشيخ الجبالي موقف الواعظ في مقام
لا يصلح للوعظ والإرشاد !

قد يقال : إن مقام الرثاء يتسع للوعظ .

وهذا حق ، ولكن تلك الخطبة لم تكن من الوعظ

المقبول

وما أحب أن أدخل في التفاصيل فهو يعرف والذين

سمعوه يعرفون .

بقي موقف الشيخ محمد اليعقوبي ، وكانت قصيدته

جيدة ، ولكنه ظلم نفسه : فقد توهم أن الناس سئموا طول

الاحتفال فأسرع في إلقاء قصيدته إسراعاً أضاع بهجة القصيدة

فحسبها الناس من الشعر الضعيف . وهي من الشعر القوي

الرصين

أما الذين ملكوا ألباب الناس في ذلك اليوم فهم

ثلاثة : أولهم علي الجارم وثانيهم بدوي الجبل وثالثهم شبلي

ملاط ، وذلك لا يمنع من الاعتراف بالاعجاب الذي ظفرت

به قصيدة الأستاذ محمد الشريفي وقصيدة فؤاد باشا الخطيب .

وقد كثرت أقاويل الناس في بغداد حول مراكز الخطباء والشعراء ، ولكنهم اتفقوا على أن الجارم هو أول شاعر ماجت لشعره القلوب في ذلك اليوم . حتى صرح للأستاذ طه الراوي أن يقول إن الجارم خليق بكامة ابن رشيق حين قال :

« ثم جاء المتنبى فلاً الدنيا وشغل الناس »

وما أقول إن الجارم أكبر الشعراء في هذا الزمان . ولكن لا جدال في أنه صنّاعة العرب في هذه الأيام ، فهو ينشد الشعر إنشاداً يفيض بالمدوبة والرنين . ولو سجل الحماكي بعض أناشيده لكانت نماذج من التطريب الجميل .

مذهب « تيسير النحو »

كانت وزارة المعارف المصرية ألفت لجنة في العام الماضي لتيسير النحو ، وكانت لتلك اللجنة آراء لا تخلو من تكاف وافتعال .

وفي حفلة التآبين ألقى الأستاذ شبلي ملاحظ قصيدته وفيها

هذا البيت :

وكانها في صبرها وجهادها ابن الوليد وطارق بن زيادا

ومنعُ « زياد » من الصرف مع إثبات ألف الاطلاق

ضرورة قبيحة جداً، وقد اعترض عليها شاعرنا الجارم ،

فقلت : هذه الضرورة تجري على مذهب تيسير النحو

فصاح : يالذاع ، يالذاع ، كيف السلامة من شرك

وعُدوانك ؟

فلسطين فلسطين

وقد تعرّض كثير من الخطباء لمحنة فلسطين ، وكان

الظن أن يكون هذا خروجاً على الموضوع ، ولكن ظهر

من حماسة المستمعين أن الكلام عن فلسطين له مكان في

هذا المقام ، ومعنى ذلك أن محنة فلسطين أصبحت محنة

قومية يرى العرب من واجبهم أن يشيروا إليها في كل

مجال ، وبلغت حماسة المستمعين لهذه القضية أن يعترض

بعضهم على أنه لم يكن لها نصيب وافر في خطبة صاحب
المنخامة لظفي الحفار .

أين خطبتك ؟

وفي نهاية الحفلة أقبل جمهور من الأصدقاء العراقيين
وهم يقولون : أين خطبتك ، يادكتور ؟ فأجبت : سألقيا
في الأذاعة .

فقالوا : متى ؟

فقلت : بعد ساعة واحدة .

فاتصل الأستاذ ابراهيم حامي العمر بالأستاذ فائق
السامرائي (تليفونيا) يدعوهُ إلى حفظ مكاني بين الخطباء
الذين سيلقون كلمات التأيين عن طريق الاذاعة اللاسلكية .
ولكن كيف أُلقي خطبة كتبتها ليلة السفر في لحظات
ولم تعجبني ؟

كيف أعرّض نفسي لمقام لم أتخذ له العُدّة الكافية ؟
كيف أُلقي الناس بكلمة ضعيفة بعد أن سمعوا كرام

الخطب وحياد القصائد ؟ كيف أُوذي سمعتي الأدبية في
بغداد ، ولي فيها أحباب وأعداء ؟
وكيف يكون حالي بعد إلقاء هذه الخطبة الضعيفة
عند ليلى وظمياء ؟
سأكون أشد الناس حمقاً إن عرّضت سمعتي في بغداد
للغمز والتجريح . ولكن كيف أنسحب ومديرُ الدعاية
ينتظرني بوزارة الداخلية ؟

مفاهمة غريبة

قلت في نفسي : ما الذي يمنع من أن أأكل تلك
الخطبة بالارتجال ؟
أنا أرتجل الخطب بسهولة ، وفي مقدوري أن أصل
إلى أسماع الجماهير حين أريد .
ومضيت إلى الفندق لاحتضار الخطبة التي كتبتها ليلة
السفر ولم تعجبني
فما الذي رأيت ؟

لن ينقضي عجبى مما رأيت :

رأيت الخطبة في غاية من الجودة ، وليس فيها إلا
عيب واحد : هو الإيجاز . ومتى كان الإيجاز من العيوب
حتى أحمل نفسي ما لا تطيق بافتعال الاطناب ؟
وانطلقت مع الأستاذ فائق السامرائي إلى محطة الاذاعة
وأنا راض عن خطبتي . ولولا أن تصح كلمة من يتهموني
بحب الثناء على نفسي لقلت إنها كانت أفصح ما قيل في
ذلك اليوم !

درس ينفع

وهذا الدرس أقدمه لنفسي ولتلاميذي :
وأنا أوصي نفسي وأوصي تلاميذي بالقناعة بما تجود
به الفطرة ، فليست البلاغة في الاحتفال بما نكتب وما
نقول ، وإنما البلاغة في الاستجابة لصوت الفطرة والطبع
والوجدان .

وإذا لم يكن بدٌّ من الاهتمام بما تلقى به الجماهير من

خطب ورسائل فليكن ذلك الاهتمام يقظة وجدانية وروحية وعقلية . أما الحرص على الزخرف والتنميق فهو آفة البيان .

والأصل في البلاغة أن تقدر على أن تشغل المستمعين والقراء بأنفسهم ، ولا نصل إلى ذلك إلا حين نسيطر عليهم بقوة المعنى وقوة الروح ، أما الزخرف فهو يشغل القراء والمستمعين بالتفكير في شخصية الكاتب والخطيب ، وتلك غاية صغيرة لا تستهوي كبار الرجال .

والكاتب الحق هو الذي ينسيك نفسه ليشتغل بنفسك .

الكاتب الحق هو الذي يجعل وجدانك وعقلك وقلبك ميداناً للمصاولات الأدبية والعقائمية فينتقلك من حال إلى أحوال .

أما الكاتب الذي يشتغل بنفسه وهو ينمق ويزخرف ويعتسف فقد يحوئك إلى خصم للفكرة التي يحاول أن ينقلها اليك .

ولا يصلح أهل البيان للسيطرة على من يقرأون ومن
يستمعون إلا إذا كانت الفكرة غلبت على عقولهم وألبابهم
غلبة قوية بحيث يكون كل حرف من كلامهم ^{محملاً} بصورة
المعاني والأرواح . وهل كان الغرض من البيان إلا جعل
المعنى رسالة الروح ؟

وفي اليوم التالي حضرنا الحفلة التي أقامها حضرة صاحب
السمو الأمير عبد الإله على شرف الوفود العربية . بعد
أن زرنا ثكنات الجيش ، فما الذي رأيناه هنا وهناك ؟ (١)

(١) سنرى أن السكاتب شغلته ليلاه عن الوفاء بهذا الوعد فلم يصف حفلة
البلاط ولم يتكلم عن الجيش ، ولعله اكتفى بما ورد من أمثال هذه الشؤون في
كتاب (ليلي المريضة في العراق) .

— إيش لون ليلى ؟

— عوفيت ليلى ومرض الطبيب !

انقسم وفد مصر في بغداد إلى طوائف : الطائفة الأولى
مكوّنة من سعادة حمد باشا الباسل وإخوانه أعضاء لجنة
الصلاح ، والطائفة الثانية مكوّنة من العلماء والأدباء الذين
قدّموا بغداد للاشتراك في حفلة التأيين ، والطائفة الثالثة
مكوّنة من الدكتور زكي مبارك الأديب والدكتور زكي
مبارك الطبيب ، والدكتور زكي مبارك الحيران بين الأدب
والطب والعشق ! !

والواقع أن أيامي الجديدة في بغداد كانت تستوجب
الشفقة والعطف : فقد كان لسائر الزملاء غرض واضح
محدود : أما أنا فقد تفردت بالحيرة ، وهيام القلب .

كنت أريد أن أعرف ما جدَّ من الشؤون بوزارة
المعارف .

وكنت أحب أن أُلقي درساً أو درسين على تلاميذي
بدار المعلمين العالية .

وكنت أحب أن أجدد العهد بالديار التي عرفتها
بالرصافة والكرخ والكرادة والأعظمية والكاظمية .
وهناك غرض أهم من كل أولئك الأغراض ، وهو
الأنس بزيارة ليلى وزيارة ظمياء .

واحرَّ قلباه من شماتة الشامتين !
من الذي يصدق أن ليلى لم تسأل عني وقد قضيتُ
ثلاثة أيام في بغداد ؟
من الذي يصدق أن ليلى تركت دارها بشارع العباس
ابن الأحنف ؟

طوّفتُ بذلك الشارع ليلتين متواليتين ثم تشجعتُ
فطرقت دار ليلى في منتصف الليل ، فوجدت هناك ناساً

لم أعرفهم من قبل فحدّثوا في وجهي طويلاً ثم قالوا :

« الطيب المصري ، غير ؟ ؟ »

فقلت : « وهذه دار ليلى ، غير ؟ ؟ »

فقالوا : « إن ليلى تحولت »

فقلت : « تحولت عن عهدي ؟ ؟ »

فقالوا : « تحولت عن الدار »

فقلت : « وإلى أين ؟ »

فقالوا « لا ندري إلى أين »

ورجعت إلى الفندق كاسف البسال فرأيت جماعة من

المصريين والعراقيين يَسْمُرُونَ بجانب الشط فابتسم حمد باشا

وهو يقول : ما هذه السُدارة على رأسك ؟ فقال الجارم بك :

هي طاقية الإخفاء ، ألم تلاحظ يا باشا أن الدكتور زكي

يلبس الطربوش في النهار ويلبس السُدارة في الليل ؟

وما كنت لأزعج من دعاية الجارم ، فتلك شِشْنَةُ

أعرفها من أخزم ! ولكن البلاء كل البلاء هو في تحول

ليلى عن دارها بشارع العباس بن الأحنف وتفريطها الأثيم

في السؤال عني : وأنا الذي عطرت باسمها جميع الأندية ،
وجعلت حديثها شغل الأفتدة والقلوب .

ما الذي أنكرت ليلى من أمري حتى تصدف عني ؟
ليتنى أعرف ! ليتني أعرف !

...

ومضيت إلى غرفتي لأستريح من كرب اليأس وجاجة
بعض الأصدقاء .

وما كدت أخلع أثوابي حتى جاء الخادم يصيح :
سيدي ، أنت مطلوب بالتليفون !

فقلت : تليفون بعد نصف الليل ؟ أنا غير حاضر
للتليفون !

وبعد لحظة رجع الخادم مبهوراً وهو يصيح : سيدي ،
إن ليلى هي التي تطالبك !

وأسرعت فارتديت ثيابي من جديد وخرجت فرأيت
الدنيا تموج من حولي وقد حضر الذين كانوا بجانب الشط
ليسمعوا شيئاً من حديث ليلى .

— ألو ، ألو ، مَنْ يتكلم ؟

— ليلى !

— ما هذا صوت ليلى .

— بلى ، هو صوت ليلى .

— أبداً ما هو صوت ليلى .

— ولا صوت ظمياء ؟

— ولا صوت ظمياء .

— دكتور ، دكتور ، أنا فوز !

— وماذا تريد ، يا فوز ؟

— أريد أن أبلغك رسالة من ليلى .

— وما رسالة ليلى ، يا فوز ؟

— ليلى تقول إنك لم تفهم كيف اختارت الإقامة

بشارع العباس بن الأحنف !

— إيش لون ؟

— ليلى تقول إنها كانت اختارت الإقامة بشارع

العباس بن الأحنف لأنه الشاعر الذي تفرد بإجادة القول

في الكتمان ، فهو الذي يقول :

لأخرجنّ من الدنيا وحبّكمُ
بين الجوامح لم يشعر به أحدُ
حسبي بأنّ تعاملوا أنّ قد أحبّكمُ
قلبي وأنّ تسمعوا صوت الذي أجدُ

وهو الذي يقول :

كذبتُ على نفسي فحدثت أنّي
سلوت لكم كما ينكروا حين أصدقُ
وما من قلبي مني ولا عن ملالةٍ
ولكنني أبقى عليك وأشفقُ
عظفت على أسراركم فكسوتها
قيصاً من الكتمان لا يتخرقُ

وهو الذي يقول :

قد سحبّ الناسُ أذيالَ الظنون بنا
وفرقّ الناسَ فينا قولهم فرقا

جَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ

وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَادِقًا

— تلك رسالة ليلى ، يا سيدتي ؟

— نعم ، هي رسالة ليلى

— فهل تبأغين ليلى أني كتبت هواها كل الكتمان ؟

— أنت كتبت هوى ليلى وقد فضحت نفسك في

حما بكتاب يقع في ثلاثة مجلدات ؟ !

— وهل يفتضح المرء حين يشرح هواه بكتاب في

ثلاثة مجلدات ؟ !

— أشهد أن التضليل لا يعظم عليك !

— أنا مضلل ، يا فوز ؟

— حوشيت من التضليل !

— اسمعي ، يا فوز !

— قل أسمع !

— بأغني ليلى أن العباس بن الأحنف هو أيضاً الذي

يقول :

أما الهوى فهو شيءٌ لا يخفأ بهِ
شتان بين سبيلِ الغيِّ والرَّشْدِ
إنَّ المحبين قومٌ بين أعينهم
وسمٌّ من الحب لا يخفى على أحدِ
- ثم ماذا ؟

- وهو الذي يقول :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم
حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فاما قت منتصباً
بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم
قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

- اسمع ، يا دكتور ، واعقل

- إن بقي لي سمعٌ وعقل !

- إن ليلى توصيك برياضة نفسك على اليأس ، وترجو

ن ترحم نفسك من الهيام بشوارع بغداد في الليل ، فلن

تهتدي إلى دارها الجديدة ولو استظهرت بألف دليل ؛
وسلامٌ عليك بين المهامين في أودية الضلال !

أفي الحق أني لن أدخل دار ليلي بعد اليوم ؟
أفي الحق أن ما كان بيننا لن تكون له رجعة
ولا معاد ؟

وماذا تريد هذه الحقاء ؟

أكانت تريد أن أكون قطعةً من ثلوج الشمال
لا تصهرها الشمس ؟

أكانت تريد أن أكون صخرةً خرساء لا تحسُّ
نسمات الأصيل ؟

أنا أستأهل التأديب ، فقد شغلتُ نفسي وقلمي ولساني
بالحديث عن الملاح ، في زمن لا يقيم دولةً للحسن ولا
يعترف للجبال بساطان .

وليلي نفسها لا تحفظ العهد ولا ترعى الجميل .

وإلا فكيف ضاعت الأقسام والعهود ؟

وكيف بدد الأثير ما كان لقبلاتنا من رنين ؟
الآن توصيني ليلى بأن أروض قلبي على اليأس ، وهي
التي كانت تثور حين أملاك الصبر عنها يوماً أو بعض يوم !
سأنتقم ! سأنتقم !
سأقول كما قال أنصاري في العراق : إن ليلى شخصية
خيالية أبدعها قاهي ليمد اللغة العربية بألوان جديدة من
السحر والفتون .

وهل أسرف أنصاري حين قالوا بذلك ؟
إنهم كانوا يريدون أن ينجوني من دسائس الخاقدين
والأئمين ، وكانت حجبتهم أنني معلم صالح ، والمعلم الصالح
لا يتحدث عن الهوى والفتون إلا وهو يرمز إلى حقائق
وأصايل من أسرار المجتمع وسرائر القلوب .
وقد نجح أنصاري في الدفاع عني ، فأنا عند أهل
العراق شخصية صوفية لا تقل روعة عن شخصية ابن
الفارض وشخصية الخلاج .

نجح أنصاري في الدفاع عني .

نُجِّحُوا ، ثم نُجِّحُوا .

ولكني أعرف ، وأسفاه ، أن ليلاي في العراق
ليست شخصية خيالية ، وإنما هي امرأة من لحم ودم
وأعصاب ، تأكل القلوب وتذرع الأرض من الزوية إلى
الكاظمية ، وتصنع بأرواح الوجود ما تصنع الصهباء !

سأنتقم ! سأنتقم !

سأنكر أن ليلى أرهفت قلبي .

سأنكر أن ليلى سحرت قلبي .

سأنكر أن ليلى سوداء العينين ، وسأنكر أن حديثها

أطيب من بُغام الأطباء ، وسأقول في كل أرض إن ليلاي

مجدية لا عراقية ، وربما تحولت فنقلتُ هواي إلى لبنان !

كل ذلك ممكن ، ولكني أخشى أن يصبح تحقيقه

من المستحيل .

لو كانت ليلى تعقل لعرفت أن التجني على رجل مثالي

إثمٌ صُراح .

أشهد أنني أحمق وأن ليلى حقا .

فلو كنت أعقل لاستنجدت بسعادة حمد باشا الباسل

ليصاح ما بيني وبينها ، وهل كان ما بيني وبين ليلى أقل

خطراً من العداوة التي ثارت بين القبائل العراقية ؟

ولو كانت ليلى تعقل لعرفت أن أيامي في بغداد

أقصر من أن تحتمل لدَدَ الخسومة وشطاطَ العتاب .

ولكن متى عرف الملاح معنى العقل ؟

إن الملاحه توحى بالنزق والطيش : وهي أخطر من

عصير النخيل والأعناب . وهل أخطأ البهاء زهير حين

تخوَّف من سكر الدلال !

إن ليلى توصيني بأن أروض قلبي على اليأس

وهل نسيت ليلى أنني مصري وأن المصري لا يحتاج

إلى أن يروض قلبه على اليأس ؟

هل نسيت ليلى أنني مصري وأن المصري يحيا ويموت

بلا صديق ؟

هل نسيت ليلى أني مصري وأن المصري مكتوب
عليه أن يقضي العمر وهو حزين ؟

هل نسيت ليلى أني مصري وأن المصري يواجه النهر
من جانب والصحراء من جانبيين ؟

إن ليلى لا تستطيع أن تقول إنها أجمل امرأة في
العراق ، ولكني صيرتها بقمي وبياني أجمل امرأة في الوجود.
فكيف كان جزائي ؟

صدت عني بلا ترفق وصيرتني ملهاة السامرين في مصر
والعراق .

إن عشتُ يا ليلى — وعمر الصادقين في مصر أقصر
من عمر الورد — فسأجعل من هواك فتنةً تعصف بما في
الدنيا من أصول الرزاة والعقل ، وسأريك كيف يكون
كيد التلوّم وعنف الصدود . وأنا أستطيع الثورة على
الحسن حين أشاء

كذلك كان حالي بعد تلك المحادثة التليفونية : فقضيت

الليل في غمّ وكرب ، ولم ينقذني من همومي إلا هاتفٌ
يهتف في الصباح :

— أعدّ نفسك يا دكتور ، لزيارة معسكرات الجيش .

— أنا حاضر ، فقد أنسى جيش الأحرار الذي صاولته

في ظلمات الليل .

كنت في حرب ؟

كنت في سلام !

— وكيف ؟

— لا أدري كيف !

في مجلس سهر

صاحبنا « أبجد » افندى — لا جديد
فوق الصحن — شطحات أبجد افندى —
الدين والمدنية في التعليم — الفرق بين الاسلام
والمسيحية — هل يتعلم الأزهريون لغة أجنبية
— أى اللتين أقرب إلينا : الفرنسية أم
الانجليزية ؟ — ما هو أساس الاصلاح —
أسباب الفلق في المعاهد الدينية — هل نجح
الفرنسيون في تعميم التعليم ؟ — ما هى
حادثة المقطم التى اعتمد عليها سمبكة باشا ؟
— أوهام أبجد افندى فى فهم المعجزات .

يتكون المجلس فى هذه المرة من أربعة أشخاص على
رأسهم رجل مهذب من الفرنسيين هو الميودى كومنين
المراقب العام لمدارس الليسيه فرانسيه بالقاهرة ، وهو
رجل مستظهر صفاته فى خلال الحديث .
وثانيهم الدكتور توفيق فهمي ، وهو مصري فاضل
حلو الشمائل كريم الخصال ، وليس فيه إلا عيب واحد :
هو أنه لا يقرأ الجرائد المصرية ، وذلك عيبٌ خطيرٌ ،
ومن نتأجه الشنيعة أنه لا يقرأ مقالاتي فى البلاغ !

والثالث موظف مصري هو مزاج من الرقة والفظاظة
والفهم والغباء : كله عيوب وليس فيه إلا فضيلة واحدة
هي أنه يفني لأصدقائه : فيلاطفهم إن حضروا : ويشتاق
إليهم حين يغيبون . وعيوبه الكثيرة ترجع إلى رذيلة
واحدة هي أنه كثير الشغب واللجاج : يتكلم كثيراً بلا
ترتيب : وهو مع هذه الأثرثرة لا يحسن الاستماع : وقد
لا يتركك تتكلم إلا إن ملّ الكلام أو شعرَ بصُداع .

تلك صفاته المعنوية : أما صفاته الحسية فهو يذكر بما
جاء في التاريخ من أن الفراعنة ملكوا الصُّومال : ومن
المحتمل أن يكون أسلافه الأبعدون نزحوا إلينا من هناك .
وهو كسائر الناس له أنفٌ وعينان وشفقتان . غير أن في
أذنيه شيئاً من الطول !

وقد أخبرته أنني سأشير إليه في مقالتي وأصفه
بصراحة وسألته إن كان يسمح بذكر اسمه فتردد : ثم
تشجع وقال : اذكر اسمي وقال ما تشاء !

ولكنني أخبرُ به وبغيره من أذعياء الشجاعة : ففي

مصر كثير من الناس يؤكّدون لك أنهم لا يحبّون ولا يخافون ، فإذا عرضت لهم بسوء غضبوا منك وناصبوك العداة .

وأنا سأتوسط في الأمر فأعطي بعض البيئات التي تعين اسمه وتقربه من الأذهان : واسمه يتدّى بأحد الحروف الهجائية ، ولزيادة التخصيص أذكر أن اسمه لا يخرج في مجموعه عن العشرين الأولى من الحروف الهجائية ، ولأجل هذا سأسميه (أمجد افندي) وكان في النية أن أسميه (الوحش) لأنه متوحش في محادثاته ، ولكنني لاحظت أن التوحش يفترض الشجاعة ، وصاحبنا يخاف من الكلاب ، ولا يدخل منزل المسيو دي كومنين إلا بعد أن يؤكّد له البواب أن الكلب مربوط !

المسيو دي كومنين — من فضلكم ، ترجوا لي بعض ما كتبه اليوم صديقنا مبارك في البلاغ .
أمجد افندي — المسألة تتلخص في جملة واحدة : هي

أن الأزهر والجامعة المصرية ووزارة المعارف زفت في
زفت ا

الدكتور فهمي - الأزهر ؟ كنت أحب أن أعرف
شيئاً عن نظامه الجديد .

مبارك - تعرف حضرتك الكلمة التي تقول :
لا جديد تحت الشمس . فاعلم إذن أنه يصح أن يقال :
لا جديد فوق الصحن ا

أبجد افندي - صحن إيه ياسيدنا انت ؟ .

مبارك - صحن الأزهر يا شيخ أبجد !

الدكتور فهمي - دعونا من المزاح . أنا أحب أن
أعرف ماهي وجوه الإصلاح التي تريدها يا مبارك . فهل
أنت تريد مثلاً أن تُخرج الأزهر عن صبغته الدينية
وتحوِّله إلى جامعة مدنية ؟

أبجد افندي - هل قرأتُم مقالة زكي باشا في الرد
على سميكة باشا ؟

المسيو دي كومنين — من فضلك ، انتظر ، واترك
هذه الشطحات .

مبارك — أنا أريد أن يهتم الأزهر بالحياة المدنية ،
وأحب له في الوقت نفسه أن يحتفظ بصبغته الدينية .

الدكتور فهمي — ولكن كيف تجتمع المدنية والدين
في التعليم ؟

مبارك — يبدو لي يا دكتور أنك تعطي الإسلام
نفس الصفات التي تعطيتها للمسيحية . وبذلك ترى من
الصعب أن تجتمع الدنيا والدين . ولكن الواقع أن الدين
الإسلامي يختلف عن الدين المسيحي اختلافاً جوهرياً :
فالدين المسيحي يروض أتباعه على العبادات الروحية الصرفة
وينقلهم إلى حظيرة الرب حيث يتركون ما لقيصر لقيصر
وما لله لله . أما الدين الإسلامي فتنقسم تعاليمه إلى قسمين:
العبادات والمعاملات ، فهو بذلك يروض أتباعه على أن
أن يكونوا من أهل الدنيا ، وإن كان يُعدُّهم إلى الفوز
في الآخرة والتمتع بنعيم الفردوس .

أبجد افندي — وهل من الدين يامسيو مبارك أن تقرأ
شتائم زكي باشا في الرد على سميكة باشا ؟
الدكتور فهمي — فهمت أن الاسلام يجمع بين الماديات
والروحيات ، فما هي الوسائل عندك لاصلاح الأزهر حتى
تسود فيه الروح المدنية ، كما سادت فيه التقاليد الدينية ؟
مبارك — أنا أدعو أولاً إلى أن يتعلم الأزهريون
لغة أجنبية .

أبجد افندي — والله كان الشيخ الظواهري يأمر
بإحراقك !

مبارك — الشيخ الظواهري مستعدٌ أتمَّ الاستعداد
لتعليم اللغات الأجنبية ولو مراعاةً للظروف والملايسات !
دي كومنين — ولكن أي لغة ؟ أنا أختشى أن
يعلموا اللغة الانجليزية .

أبجد افندي — هذا هو الأرجح : لأن المشايخ يحبون
بالطبع أن يعرفوا اللغة التي يتفاهمون بها حين يزورون
قصر الدوبارة في رمضان !

دي كومنين — مسألة اللغة مسألة مهمة .

فهمي — ما أهميتها ؟

دي كومنين — تفتح عيون الأزهر على آفاق جديدة

من الحياة .

مبارك — اللغات الأجنبية ضرورية ، وليس في العالم
اليوم أمة يكتفي فيها المتعلم بلغته ؛ مهما كانت لغته قوية
ومنتشرة . ومن رأي أن الأزهرين يجب أن يتعلموا
الفرنسية لا الانجليزية لسببين : أولهما أن اللغة الفرنسية
سهلة النطق ، لأن المصريين والفرنسيين متقاربون في
تكوين الحلق ؛ لأنهم جيران لا يفصل بينهم إلا البحر
الأبيض المتوسط ، وثانيهما أن صلتنا بالفرنسيين
صلة وداد وليس بيننا وبينهم مشا كل سياسية ، فليس
يضيرنا في شيء أن نتعلم لغتهم . ولو جلا الانجليز عن
بلادنا لفكرنا في التخير بين لغتهم وبين لغة الفرنسيين ،
ولكنهم يعملون لتثبيت أقدامهم بوسائل كثيرة أهمها نشر
لغتهم ، فلنحرص على سلامة الأزهر من ذلك النفوذ

المخوف ، وتلك كانت أكبر مؤاخذة وجهها الجمهور المثقف إلى الشيخ المراغي حين رأى أن يتعلم الأزهريون اللغة الإنجليزية ، ومنهم من اتهمه بأنه رأى ذلك مصانعةً لقصر الدوبارة . والله أعلم بما في الصدور .

أحمد افندي - معقول أن يتقرب المشايخ إلى قصر الدوبارة بتعلم اللغة الإنجليزية فإن زكي باشا هو أيضاً يهاجم سمكة باشا لنفس الغرض .

دي كومنين - متى تخلص من هذه الحكاية !
أحمد افندي - يامسيو دي كومنين أنت لا تعرف غرض زكي باشا . لقد وضعتُ جريدة الأهرام عنوان مقاله في حروف كبيرة جداً . وياله من عنوان :

« أسطورة قبطية ملعونة »

هل هذا وقت تصحيح أساطير الأقباط ؟
مبارك - وهذه هي الساعة المناسبة لتصديع رؤوسنا بالدفاع عن سمكة باشا ؟

الدكتور فهمي - من فضلكم، عودوا بنا إلى إصلاح الأزهر.

دي كومنين — هل تريد يا أستاذ مبارك أن أقول
لك كلمة صريحة ؟

مبارك — قُلْ أَسْمِعْ

دي كومنين — أنت حين تهتم باصلاح الأزهر ، هل
تفكر في نفسك أم في سعادة الإنسانية ؟

مبارك — أنا بالطبع أفكر في سعادة الإنسانية .

دي كومنين — وأنا أرى أن الأزهريين في حالتهم
الحاضرة سعداء ، وأنت حين تفكر في تغيير حالهم إنما
تفتح لهم أبواب الشقاء : فالطالب الأزهري يجلس على
الخصير مستريحاً إليه ، ويقرأ كتابه أحياناً وهو مضطجع
أو ممدد الرجلين ، فالذي يستفيده حين تقهره على الجلوس
فوق مقعد ، والذهاب لتلقي الدروس في ساعات محدودة ،
وقد كان قبل ذلك من السعداء ؟

مبارك — إنه ليضايقني حقاً أن أرى الأزهريين
يعيشون عيشتهم الحاضرة .

دي كومنين — أنت إذن تفكر في نفسك وتريد أن

تطبعهم على الذوق الذي اكتسبته من عيشتك في فرنسا
ومن معاشرة الأوربيين . ألا فلتعلم يا صديقي مبارك أن
الاصلاح لا يكون خيراً إلا إن ظمئت اليه النفوس وعشقتة
واطمأنت إلى الداعين إليه ، ورحبت بمبادئهم كل الترحيب .
مبارك — الأزهريون غير راضين عن حالتهم الحاضرة .
دي كومنين — ابحت أولاً عن أسباب قلقهم
وامتعاضهم فقد تكون تلك الأسباب بعيدة كل البعد عما
تظنه أنت موجباً لضجرهم ورغبتهم في التغيير .

مبارك — يمكنني أن أفهم أن حياة شيخ الجامع الأزهر
لها دخل في ذلك الامتعاض ، فقد كان الأزهريون قبلاً
من أهل الله ، وكانوا راضين عن حظوظهم في الحياة .
ولكن شيخ الأزهر اليوم له ما لجميع الرؤساء من المظاهر
المادية ، فله مثلاً سيارة لها بوق بغيض الصوت . وله مائدة
منوعة الألوان ، وفي بيته أرائك ووسائد وأبسطة ومصاييح
من الكهرياء ، وله خدم وله حاشية وله مخبرون ينقلون
إليه الطيب والخبيث من أخبار الناس وخاصة العلماء .

وفي هذه المظاهر الدنيوية ما يغري أهل الأزهر بالدنيا
ويعذبهم إلى ما فيها من زخرف الجاه والمال .

دي كومنين - ابدأ إذن باصلاح شيخ الجامع الأزهر
وارجعه إلى حياته الأولى حياة البساطة والقناعة والزهد .

مبارك - أنت تطلب المستحيل يا مسيو دي كومنين ،
فقد تغيرت العقلية تغيراً تاماً ، وصار من العسير أن نطالب

شيخ الجامع بالجلوس على الفروة والاكتفاء بركوب البغلة ،
والرضا بنخب الجراية والبول والكرات ، كما كان يفعل

أسلافه الأولون . ولو قد فعل شيئاً من ذلك لصار سخريّة
للجميع : فشيخ الجامع مضطرباً إلى مراعاة الحال في أنظمته

المعاشية والإدارية ، وهو يفهم أنه « موظف كبير »
قبل أن يمرّ بباله أنه شيخ المسامين .

دي كومنين - الآن تجسّمت أمامي المشكلة ، ويظهر
من سياق الحديث أنك تريد أن تنقل الأزهرين إلى حياة

جديدة تشبه حياة إخوانهم في المدارس الثانوية والعالية .
مبارك - هو هذا .

دي كومنين — وتأمل بهذا أن تمنحهم حياة سعيدة؟

مبارك — نعم !

دي كومنين — أنت مخطيء في تقدير هذا الأمل :

فقد وُجدت الأزمة في المدارس الأميرية وأصبح خريجو

تلك المدارس لا يعرفون كيف يعيشون . والظاهر أنكم

في مصر تقلدوننا في أشياء كثيرة : وفاتكم أن فرنسا تعاني

أزمات عصبية بسبب تعميم التعليم : فإن القانون الذي

فرض التعليم الإلزامي حرّم الأمة الفرنسية من نشاط

أبنائها في استغلال الأرض .

فهمني — كيف ؟

دي كومنين — أنتم تعلمون أن جمهور الآباء يحتاجون

إلى أطفالهم في أعمال كثيرة أخصها رعاية المشية ، فتجيب

الحكومة فتفرض على الطفل أن يظل في المدرسة إلى

الثانية عشرة من عمره ، وفي تلك المدة يتعود عادات سيئة

أظهرها حرصه على الثياب النظيفة والتأخر في النوم ،

فضلاً عن النعومة التي تغلب على جسمه ويديه من الحياة

المدرسية . فاذا انتهت مدة التعليم الاجبارى وعاد إلى أهله في الحقول أخذ يسخط على حياته الجديدة حياة العمل : لأنه مضطراً إلى النهوض من فراشه في الساعة الخامسة وإلى لبس الثياب الخشنة والتعال القمذرة ومعاشرة أجلاف الفلاحين . ومن أجل هذا يرحل أكثر الشبان إلى المدن للبحث عن الرزق بوسائل تلائم ما ألفوه من الوداعة والنعومة . ونتيجة ذلك أن الأرض الفرنسية هجرها أهلها ، وأصبحنا نستعين بالشبان الايطاليين والبولونيين ومن إليهم من الوافدين على فرنسا لزراعة أرضنا ، وكنا قبل ذلك من كبار الفلاحين . ومن رأيي يا صديقي مبارك أن الذي ينقصنا وينقصكم هو التوازن في كل شيء . فنحن أو أتم مسخرون لطائفة من المفكرين يعيشون عيشة مدنية وينسون الجماهير المختلفة التي تتكون منها الشعوب .

أحمد افندي — وهذا هو ما يفعله زكي باشا في الرد

على سمكة باشا .

مبارك - يعجبني فضولك والله يا حضرة الأبخ .
ولكن اسمع : أنا لا أكتمك أني لم أفهم حكاية المعزّ
الفاطمي التي أثارها زكي باشا .

أبجد افندي - لم تفهمها مطلقاً ؟

مبارك - لم أفهم منها ما سماه سميكة باشا « حادثة
المقطم » :

فقد درستُ تاريخ الدولة الفاطمية في الجامعة المصرية
على المرحوم محمد بك الخضري وأديت الامتحان يومئذ
بتفوق ، ولكني لم أسمع بمحادثة المقطم هذه ثم علمت
أن الأستاذ محمد عنان كتب مقالاً في جريدة السياسة عن
الموضوع ولكن فاتني ذلك العدد ولم أعرف عنها شيئاً .
وبعد ذلك كتب أحد الأزهرين المتخصصين في التاريخ
كلمة في جريدة البلاغ فأشار إلى حادثة المقطم إشارة يفهم
منها أنها حادثة مهمة من حوادث التاريخ ، فزاد خجلي من
الجهل بمثل ذلك الحادث الخطير ، فإذا قال الأستاذ عنان
في هذا الموضوع إن كنت قرأت مقاله في السياسة ؟

أمجد افندي - حادثة المقطم مشهورة وخلصتها أن
المعز لدين الله الفاطمي سمع أن في الانجيل آية تشير إلى
أن المؤمن الصادق يستطيع أن ينقل الجبل ، فسأل عن
الصالحين من القسيسين والرهبان في مصر فأخبروه أن
هناك قسيساً معروفاً بالورع والتقوى ، فاستقدمه المعز
وسأله أن ينقل جبل المقطم إن كان من الصادقين ، فصلى
القسيس بعض الصلوات ثم أشار إلى جبل المقطم فانتقل
من مكانه بأذن الله ، وعلى ذلك تنصر المعز لما رأى بعينه
من جلال النصرانية .

مبارك - هذه هي حادثة المقطم ؟ الله يهديك ويهدي
سميكة باشا معك ! أهذه هي الوثيقة التاريخية على أن
المعز تنصّر ؟

أنا أتحدى جميع الصالحين من القسيسين والرهبان
أن ينقلوا داراً صغيرة جداً من مكانها ، ولتكن دار حزب
الاتحاد ، فكيف ساخ أن ينقل أحدهم جبل المقطم وينقل
معه الخليفة المعز من الاسلام إلى النصرانية ؟ !

أعجب أفندي — أنت إذن لا تؤمن بالمعجزات ؟

مبارك — معجزات في عينك وعين سمكة باشا !

أعجب أفندي — إذن ماذا تقول في كرامات السيد البدوي

مبارك — أنا لا أعترف بغير ما أشاهد بعيني من

التغيرات والتقلبات ، ومن العسير أن أفتح أذني لما أسمع

من أباطيل المخدوعين بين المسامين والأقباط !

دي كومنين — خوضوا بنا في غير هذا الحديث .

أول سبتمبر سنة ١٩٣١

ذكريات صحفية

في الأعداد الأخيرة من مجلة (الايماج) فصول طريفة عن الذكريات الصحفية ، قرأتها فأنستُ بأصحابها أنساً شديداً ، وتمنيت أن يتسع وقتي لنشر ما مرَّ بي من أمثال هذه الذكريات ، وهي حوادث لن تُعرف مفصّلة إلا يوم يظهر كتاب « أكواب الشهد والعقلم » وهو كتابٌ خطِر لن ينشر إلا يوم تنفض يدنا نهائياً من وداد الناس ، وأين الناس ؟ !

على أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى ثلاثة حوادث طريفة في أوقات مختلفات :

وقع الحادث الأول في سنة ١٩١٩ وكنت نشرت سلسلة من المقالات عن « دواعي الشعر » في جريدة الأفكار ، وهي مقالات كلها شغب ونضال أضجرت كثيراً من الشعراء ، وحملت السيد حسن القاياتي على دفعها

بفصول طوال نُشِرت بعد ذلك في كتاب « البدائع » واتفق
يومئذ أن تلقيت آياتنا يهجوني بها شاعر سَمَّى نفسه
« الأخطل » وهو شاعر أقسمتُ إن عرفته لأقتلنه ، ثم
مضيت أبحث عنه في الأندية الأدبية ، فاما اهتديت إلى
اسمه سكن غضبي لأنني رأيتُه أباً يعول سبعة أطفال ،
وهو الشاعر الذي قال فيه الأستاذ الشيخ محمد سامحان
« هجاؤه أبرد من سقوط التاميد في الامتحان » وعدت
أبحث عن قطعته لأنشرها ترويحاً عن أنفس القراء ولكني
لم أجدها ، ومنذ شهرين كنت أنقل أمتعتي من بيت إلى
بيت ، فصادفتُ تلك القطعة وقد اصفرَّت وشاخت ،
وهاهي تطالعهم بوجهها الأصفر المقوت .

قال (الأخطل) يهجو صاحب « دواعي الشعر » :

رَبِّ الدواعي مادهاك وما الذي

أغرى يراعك أن يخطَّ هراء

ماذا أصابك من خيالٍ فاحشٍ

حتى رميت بفحشك الشعراء

تالله ما جبنوا ولكن زُمره

عَدِمُوا النَّهْيَ كانوا هم الجبناء

أنت الأحقُّ بما هجوتهمُ به

لو كنت تسوي يا شجاع هجاء

تدعو الجياد إلى السباق ومن لهم

بمجال سبقٍ يُظهر الأَصْلَاءَ

إن كنت ميموناً وكنت (مباركاً)

أرنا بنفسك همّةً ومضاء

أرنا الطريق لتهدي بك دونه

وانحُ الأمام لكي نسير وراء

أما الحادث الثاني فقد وقع في سنة ١٩٣٢ وذلك أني

نظرت فوجدت في جريدة البلاغ خمسة من النقاد ينوشونني

في عدد واحد ، فكررت عليهم في مقال عنوانه :

« سنفرغ لكم أيها الثقلان »

وفي سنة ١٩٣٤ كثر الجدل حول أدب الشاعر الكبير

الأستاذ عبد الرحمن شكري ، وما كنت رأيته من قبل ،

ففكرت في مراسلته لأتعرف إليه ، ثم انصرفت عن ذلك ، وما هي إلا أيام حتى تلقيت منه هذه الكلمات الطيبات :

زُوِّدْتُ مِنْ قَوْلِ (المبارك) دُرْبَةً

بالحق حين يُمَيِّزُ الآراءَ

يتذوقُ الأقوالَ فهو كأنه

متنعمٌ يتذوقُ الصبَاءَ

وكانه أذن الطروبِ تَمَيَّزُ ما

يختلُّ أو ما يستقيمُ غناء

أوصيَرفٌ رجَعَ المخادعُ آيساً

من أن يُسَيِّغَ البهَّرجَ الوضَاءَ

ذوقٌ وتحقيقٌ وليس بقانعٍ

بالذوقِ أحسنَ مرةً وأساء

والمستظرف أن ما هُجيت به في سنة ١٩١٩ وما

مدحت به في سنة ١٩٣٤ وقعا على رويٍّ واحد ، ومن

شاعرين لم أتعرف إليهما من قبل .

فيا أيها الأخطل ، أين أنت ؟ ألا تزال تحقد علي
باحث هجوته منذ سبعة عشر عاماً ؟ إن الحقد لا يليق
برجل يكاد يُجمع أصحابه على أنه أرق من « النسيم »^(١)

٣١ فبراير سنة ١٩٣٦

(١) هو الشاعر أحمد نسيم وقد مات سنة ١٩٣٧ وكان رحمه الله من أفاضل
المصحفين بدار السكتب المصرية ، وإليه يرجع الفضل في تحقيق ديوان مهيار .

وصف مليحة حولاء

في مكتبتني جذاذات كثيرة تُمدُّ بالألوف ، ولولا الترفق
بالمسيو فيشر لقلت إنها تعدُّ بألوف الألوف ، وهي
جُذاذات تدور حول المعاني أكثر مما تدور حول الألفاظ ،
وكنت قيدها لأنقلها إلى حافظتي ، ولكن هيات ، فن
العسير أن أحفظ كل ما أُقيد . واليوم عثرت على بيتين
في وصف حولاء ، فأثرت أن أنقلهما إلى القراء ، ولولا
التوقر لأفصحت عن اسم الرجل الذي أملاني هذين البيتين ،
وما أملاهما والله ، ولكنه كتبهما يميناه ، مع أنه من
أشرف الناس ، وقديماً كان الأدب يفتن الأشراف . واليكم
البيتين :

يعيبونها عندي ولا عيب عندها

سوى أن في العينين بعض التأخر

فان يك في العينين سوءً فانها

مهْفَهْفَةٌ اَعْلَى رَدَّاحِ الْمُؤَخَّرِ

وما أحب أن تفوت فرصة الكلام عن الشعر المختار
بدون أن أتحف القراء ببيتين آخرين لم يضيعا من ذا كرتي
أبدًا ، والشعر الجميل كالوجه الجميل لا تملهُ النفوس ولا تزهد
فيه العيون

تظنون أني قد تبدلت بعدكم

بديلاً وبعضُ الظنِّ إثمٌ ومنكرٌ

إذا كان قلبي في يديك رهينةً

فكيف بلا قلب أصافي وأهجرُ

وهناك بيت يتيم عثرت عليه منذ زمن طويل في
كتاب حياة الحيوان ، وما أذكر أني رأيته في كتاب
سواه ، ولا أتذكر الآن المناسبة التي أنشده من أجلها
الدميري ، ولكن يخيل إليّ أنه جاء في تأويل الرؤيا ،
فان رأيت أيها القارئ في منامك أنك جنّدت فلا تحزن ،
فتفسير هذه الرؤيا . . . أن الدنيا ستقبل عليك ، لأنها

لا تحب إلا المجانين !

واليك البيت :

جَنَّ لَهُ الدَّهْرُ فَنَالَ الْغِنَى

يا وَيَجَّهْ لَوْ عَقَلَ الدَّهْرُ !

وهو بيت يزعج له بعض الناس . وغضبة الله على

الدهر المجنون !

وأحب أيضاً أن أنبه القراء إلى بيت نادر وقع في

قصيدة الكاشف التي زفها إلى صاحب الرفعة علي ماهر باشا

وهو بيتٌ يحفظ ، وإنما ننص عليه لأن فيه نظرة نافذة

إلى سياسة المعاش . وانظروا كيف يقول :

منافع الناس بين الناس صانعةٌ

ما ليس تصنعه الآحاد والجمعُ

والسياسة كلها في هذا البيت : فالمنافع تجمع وتفرق ،

وهي أصل ما بين الناس من المودات والعداوات ، وعندها

تلتقي الأهواء ، وإن اختلف المذهب والدين .

سِرقات شوقى

- ١ -

قضى صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي ثلاث سنين وهو مشغول بجمع سرقات شوقى ، فليسمح لي حضرته بتوجيه نظره إلى سرقة جديدة من سرقات شوقى ، وهي جديدة من حيث الاستكشاف ولكنها من حيث وقوعها قديمة العهد ، واليه البيان :

كان الناس يعجبون من براعة شوقى في بيان حكمة الجهاد ، جهاد الرسول ، إذ قال يصول من وصفوا الرسول بحب الدماء :

قالوا غزوتَ ورُسلَ الله ما بعثوا

لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهلٌ وتضليلٌ أحلامٍ وسفْسطةٌ

فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كل ذي حسب

تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به

ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحصر

وهي أبيات على جانب عظيم من جودة المعنى وقوة

الرصيف ، وكان يُظن أن شوقي هو مبدع هذا المعنى ،

وأنه أول من أفصح عن حكمة الجهاد ، ولكن سرقته

انفضحت يوم أقيم موسم الشعر في الأسبوع المنصرم ،

فقد تبين أنه انتهب هذا المعنى من قول الشاعر محمد الأسمر

الذي قال :

ودعا إلى الحسنى فلما أعرضوا

واستكبروا شرع الرماح فأسمعا

والحقُّ أعزلٌ لا يروعُ فان بدا

مستلماً لاقى الطغاة فروعا

والحق ليس بمعتدٍ لكنه

إن دافعه يد الضلال تدفعا

ومن البرية معشر^ه لا ينتهي

عن غيه حتى يخاف ويفزعاً

والأسمر شاعر مجيد ، ولشعره أفنان يقطف الناس
من ثمارها ما يشتهون . وكان شوقي رحمه الله مغرمًا بأخذ
معاني الشعراء ، فاغارته^ه على معاني الأسمر تدخل فيما أُثر
عنه من الطغيان . ومهمة^ه النقد الأدبي هي ردُّ الحقوق إلى
أصحابها وكشف سرقات الشعراء بعضهم من بعض ، فلا
يتهمنا أحد بالنقض من شوقي والعدوان عليه وهو ميت ،
فإن الحق لا يبالي بالأحياء ولا الأموات .

قد يقول معترض : ولكن أبيات شوقي جزء من
نهج البردة ، وهي قصيدة نظمها شوقي في سنة ١٣٢٧ هـ
ونحن اليوم في سنة ١٣٥٥ هـ أي أنه نظمها منذ نحو ثمانية
وعشرين عاماً ، فكيف يصح اتهامه بالسرقة من الأسمر ؟
ونجيب بأن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ
محمد الأسمر رجل عجوز جداً ، بالرغم من تصايبه ، وقصيدته^ه
التي ألقاها في موسم الشعر نظمها منذ أكثر من ثلث

قرن وألقاها في معهد دمياط ، ونشرها في مجلة «الأمانة»
واطلع عليها شوقي فانتهب منها ما شاء .

ولكن لا بدَّ مع هذا من إنصاف شوقي الذي لا يملك
الدفاع عن نفسه بعد أن أسكته الموت ، وإنصافه سهل :
فقد نص القدماء على أن السرقة لا تعاب دائماً ، وإنما تعاب
حين يسوء الأخذ ، أي حين يكون المعنى المسروق ورد
في صورة أقل جمالاً من الأصل ، وتقبل السرقة حين
يلطف الأخذ ، أي حين يصور المعنى المسروق بصورة
أبرع من الأصل ، وهذا ما وقع لشوقي : فان أبياته أجمل
من أبيات الأسمر ، وهي كذلك أروع وأرشق ، وحسب
الأسمر من الفوز أنه كان السابق ولم يكن المسبوق !

أكتب هذا وأنا أعرف أن أنصار شوقي ستضيق
صدورهم بما أقول ، ولكن لا بأس فقد احتملنا كثيراً
من المكاره في سبيل الحق ، وعند الله لا عند الناس حُسنُ

الجزء (١) . ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٦

(١) لم يظن الأستاذ سلامة موسى إلى جوهر العناية في هذه الكلمة فنقلها إلى
«المجلة الجديدة» شاهداً على سرقات شوقي !

أرسل إلينا حضرة (م.ع) وهو من أدباء الموظفين

كلمة جاء فيها قوله :

« عرضتم في حديثكم منذ أسبوع لسرقات شوقي :

ونبهتم إلى إغاراته على الأستاذ الأسمر في أبيات كشف عنها

موسم الشعر الأخير ، وبذلك فتحتم عيوننا على سرقة أخرى

من سرقات شوقي كشف عنها نقلاً رفات الزعيم

سعد زغلول ، فقد كنا نعجب أيضاً بقصيدة شوقي على

قبر نابليون التي يقول فيها :

قَفَّ على قبرِ بباريس دفين

من فريدٍ في المعاني وثمانين

وافتقدُ جوهرةً من شرف

صدَفُ الدهرِ يقرَّبُها صنين

حتى كان نقلُ رفات سعد وقرأنا للأستاذ علي بك

اجارم قصيدته التي يقول في أولها :

إكشفوا التراب عن الكثر الدفين

وارفعوا الستر عن الصبح المبين

واجتنبوه درةً ساطعةً

صدفُ الدهر بشرواها ضنين

فتحيرنا بأي الشاعرين نعجب . لانا لم ندر أيهما
صاحب المعنى ، بل صاحب الشعر جملة . لتوافق معانيه
وألفاظه في القصيدتين . أجل : إن قصيدة الجارم لم تظهر
إلا بعد وفاة شوقي ، ولكن من يدري ؟ فاعل الأستاذ
الجارم أنشأها قبل أن ينظم شوقي قصيدته . ولعله هو
الآخر نشرها في مجلة « الأمانة » كما فعل الأستاذ الأسمر !
عفا الله عن شوقي فما أكثر ما كان يغير على الشعراء !
أما الموازنة بين القصيدتين فاني أكتبها إليك .

والسلام»

ذلك خطاب الأديب (م . ع) وهو يرى أن شوقي
سرق من الجارم كما سرق من الأسمر ؛ ولكن مهلاً ،

فنحن لا نرى هذا الرأي : لأنه لا يجوز في شرع العقل
أن نحكم بلا بينة : فإنا حين قضينا بسرقة شوقي من
الأسمر كنا نعرف جيداً أن الأسمر نظم قصيدة في مدح
الرسول ونشرها في مجلة « الأمانة » منذ أكثر من ثلث
قرن . وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر رجل طعن في
السن : فهو من أتراب شوقي : وكان لا يبعد على شوقي
أن ينتهب شعره كما فعل بشعر الشيخ عثمان زناطي : أما
الأستاذ الجارم فن الشبان ولم ينشر شعره إلا من عهد
قريب : وقصيدة شوقي في نابليون نُظمت قبل أن يقرأ
الجارم بيتاً من الشعر : فاتقوا الله في شوقي أيها الناس
ولا تكونوا من المسرفين !

١٢ يولييه سنة ١٩٣٦

أفانين من الاحاديث

طيب الحديث عند الفرنسيين - المحدث
المصرى حافظ بك إبراهيم - أجمد افندي يعود
إلى الثروة - هل الاسلام يغير الشخصية -
الفرق بين القبطية والمصرية - الرجل أفضل
أم المرأة - تقديس العذراء ودلالاته على
احترام البيت - الغيرة على المرأة في الشرق
والغرب - هل تطور المصريون ؟

تكون المجلس في هذه المرة من سبعة أشخاص :

فتاتين وسيدة ، وأربعة رجال : اثنين مصريين واثنين
فرنسيين .

أما الفتاتان فأيتان من آيات الحسن المشرق والأدب
الجميل . وأيسر ما يوصف به وجودهما في المجالس أنهما
سعادة شاملة تغمر الجميع بلا استثناء . وقد آثرتا الصمت
البلوغ طول السهرة ، واكتفتا بالابتسام كلما أشار أو
تحدث صاحبنا « أجمد افندي » الذي يعرفه القراء

أمامدام (د) فسيدة مهذبة نشأت في باريس مهد

الاريسٲوقراطية الفرنسية ، وهي تصحب قرينها في مصر منذ سنوات . والصيديقان الفرنسيان أحدهما من رجال التربية وٲانئهما من رجال القانون ، وكلاهما محدث بارع يذكر بما روي من أنه دخل على الحسن بن سهل رجل بعد أن تأخر عنه أياماً فقال :

« ما ينقضي يوم من عمري لا أراك فيه إلا عامت أنه مبتور القدر ، منحوس الحظ ، مغبون بين الأيام »
فقال الحسن :

« هذا لأنك توصل إليّ بحضورك سروراً لا أجده عند غيرك ، وأتسم من أرواح عشرتك ما تجد الحواس به بغيتها ، وتستوفي منه لذتها ، فنفسك تألف مني مثل ما آلفه منك »
وكلمة « محدث » قلما نعرف مدلولها في مصر ، وهي بالطبع غير كلمة « محدث » التي ترد في كتب الرواية والحديث . ونحن نريد بها ما يريد الفرنسيون من كلمة causeur فالفرنسيون من بين الأمم مشهورون بحلاوة الحديث . وقد يتحدث الرجل منهم نحو سبع ساعات تباعاً

فينتقل من فن إلى فن في لطف ورفق ، بدون أن يشعر
السامرون بأدنى سامة أو ملال ، وهم يختلفون في هذا عن
الانجائز أشد الاختلاف ، فان المحدثين من الانجائز قليل .
وإذا أراد القارئ أن يعرف شيئاً عن مدلول كلمة
« محدث » فانا نذكر له على سبيل التمثيل الشاعر الكبير
حافظ ابراهيم فاني لم أرَ من بين المعاصرين من يُشبهه هذا
الرجل في طيب الحديث ، وما رأيتَه مرةً إلا شعرت
بالحسرة على أنه كسائر الناس قد ينتقل بعد عمر طويل
إلى دار البقاء . وكان أهلاً لأن يُمتع بطيب حديثه
جميع الأجيال .

وقد تعلق به المرحوم سعد باشا في أخريات أيامه
تعلقاً شديداً واحتجزه عنده في مسجد وصيف .

أُجِجِد افندي - لا ، يامسيو (ك) لا . لا . لا تبالغ
في تمجيد تاريخ الاسلام إلى هذا الحد ، فان هذا يزيد صديقنا
مبارك زهواً ، وقد رأيت كيف يتعامل على من لا يعتنق

دينه الخفيف .

مبارك - أنا لا أتحامل على أحد ، وليس من حقك
أن تأخذ عليّ أن أعتز بديني فانه جدير بذلك .

أبجد افندي - ولكن لا تنس أن كثيراً من رؤساء
الأزهر ومشايخ الاسلام كانوا من الأقباط .

مبارك - من الأقباط ؟ وكيف اتفق ذلك !

أبجد افندي - صح النوم ، صح النوم ! يظهر أنك
لم تقرّ التاريخ !

مبارك - لعلك تريد الشيخ المهدي وكان قبطياً فأسلم .

أبجد افندي - والشيخ الفيومي أيضاً .

مبارك - أنا لا أعرف أن الشيخ الفيومي كان قبطياً ،
ولكن هذا لا ينهض حجة لك على أن كثيراً من رؤساء
الأزهر ومشايخ الاسلام كانوا من الأقباط ، لأن القبطي
متى أسلم خرج عن قبطيته وتحول إلى إنسان جديد .

أبجد افندي - هل الاسلام يغيّر الشخصية وينقلها

من وضع إلى وضع ؟

مبارك - نعم ، الاسلام يغير الشخصية تغييراً شديداً
حتى لتنكر أصلها القديم .

أبجد افندي - مارأي سيداتي وسادتي؟

المسيو (ك) - أنا من رأي صديقنا مبارك ، لأن
النفس لا تستجيب لدين من الأديان إلا بعد أن تمهياً له : فانتقالُ
الرجل من دين إلى دين معناه تحوُّله من وضع إلى وضع
في أخلاقه وسجاياه ، وتعديلاً ما كان له من غرائز وملكات .

أبجد افندي - إذن يكون المسلمون غير مصريين؟

مبارك - على رسلك يا مسيو أبجد ، فإن هناك فرقاً
بين المصرية والقبطية ، فالمصرية يُلحظ فيها الجنس ،
والقبطية يُلحظ فيها الدين ، وقد لحظت ذلك المعاجمُ
العربية حين قالت : القبط نصارى مصر .

أبجد افندي - شيء يضايق ا

المسيو (ك) - وكيف يضايقك هذا وأنت الذي جنيت

على نفسك حين انصرفت عن الاسلام وهو دين الشرق؟

أبجد افندي - ترى جنابك أنه كان يجب أن أسلم؟

المسيو (ك) - الذي أراه أن الإسلام أوفق الأديان
للشرق : فهو محرم الخمر ، وهي أضرب أنواع الشراب بأهل
الشرق ، ومحرم لحم الخنزير وهو سريع الفساد في جو
الشرق ، وكذلك تستطيع أن ترجع القواعد الإسلامية إلى
واجبات شرقية .

أبجد افندي - نعم ، ياسيدي ، نعم ، ويبيح تعدد
الزوجات ، وهذا من أصلح ما يباح لأهل الشرق ، أليس
كذلك ؟

المسيو (ك) - هذه سيخرية لا موجب لها يا مسيو
أبجد ، فان إباحة تعدد الزوجات من مفاخر الإسلام ، ولنترك
قليلاً النفاق فنذكر أننا قد نعاشر عدداً من النساء في
غير حل ، ونخون الحرمات تحت أستار الظلام . وأشرف
من هذا ما يفعله المسلم حين يتزوج أربع زوجات في حدود
القانون .

مدام (د) - ولكن الإسلام شريعة للرجال .

مبارك - ما معنى هذا ؟

أعجب أفندي — معناه أن الاسلام يفضل الرجل على

المرأة على قاعدة (الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

مبارك — وهذا ما عيبه ؟

مدام (د) — معناه أن الرجل أفضل من المرأة في

نظر الاسلام !

مبارك — ما هذا الإحراج يا مدام ؟

المسيو (د) — أيُّ إحراج في هذا ؟ لك أن تجيب

صراحةً بأن الرجل أفضل من المرأة ، وما ذنب الاسلام

إذا كان هذا هو الواقع ؟

مدام (د) — هذا هو الواقع ؟ كيف !

المسيو (د) — نحن نخضع للمرأة ولكن لانراها

أفضل منا في أي حال .

مدام (د) — الرجل أفضل من المرأة حين يكون

عقله أنضج من عقابها .

المسيو (د) — وهو دائماً كذلك مع استثناء الحاضرات

من الجنس اللطيف ! — « ابتسام من جانب الفتاتين »

أُجِـدُ افندي — خشونة غير منتظرة جرّها علينا المسلم

زكي مبارك !

مبارك — إحمد الله، يا أُجِـدُ افندي، ففي هذا حكم لك بالعقل !

أُجِـدُ افندي — وبالدين أيضاً !

المسيو (ك) — العقلُ والدين من خصائص الرجال ؛

والعطفُ والحنان من خصائص النساء .

المسيو (د) — أحب أن أشرح لكم ما معنى أن

الكثلكة دين المرأة .

أُجِـدُ افندي — لا تقل الكثلكة ؛ ولكن قل

المسيحية ؟

المسيو (ك) — الكثلكة ، الكثلكة ؛ وإن

أغضبك ذلك .

أُجِـدُ افندي — ياساتر ! أنتم كأوليك إلى هذا الحد ؟

المسيو (ك) — أنا است من المحافظين على القواعد

الدينية ، ولكني أحترم الديانات احتراماً شديداً لأن فيها

معاني إلهية ؟

أليس الحواريون الذين نشروا دين المسيح كانوا اثني عشر مجتاراً ؟ وهل رأيت في حياتك مجتاراً يصلح لهداية ؟
فنجاح أولئك البحارين في نشر المسيحية دليل على أن فيها نفحة إلهية . والنبي محمد ما شأنه ؟ ألم يكن رسول تجارة ؟
وهل تظن أن رسول التجارة يصلح لشيء إن لم يكن مؤيداً بقوة إلهية ؟

المسيو (د) — أنا متمسك بالكثلكة ، لأنها دين
أمي ، رحمها الله !

أعبد أفندي — وأنا متمسك بالأرتودكسية لأنها
دين جدتي ودين جدي ، قدس الله روح الجميع !
مبارك — أنتم إذن غير مؤمنين !

أعبد أفندي — وأنت ما شأنك ، أنت والله
لا يرضيك إلا أن يصبحوا مسلمين !

مبارك — من فلك إلى باب السماء !
أرجوك يا مسيو (د) أن تعود إلى شرح معنى أن
الكثلكة دين المرأة .

المسيو (د) - أنت تعلم أننا لا نمجد المسيح إلا
متصلاً بالعدراء؛ فنحن عن طريقه نمجد المرأة، وتستطيع
أن تستخلص من هذا أن المسيحية عبارة عن تقديس
البيت Le foyer ففي كل كنيسة وفي كل معبد تجد صورة
العدراء وعلى صدرها عيسى وهو طفل؛ وأكثر ما تتجه
إليه فكرة المصورين والمثاليين هو تقديس الأمومة في
تمثيل العذراء.

أبجد أفندي - المسيحية تمجد المرأة فهي إذن تمجد
الجمال.

مبارك - وتمجد الجمال الفرنسي بنوع خاص! ولعل
هذا هو سر غرامك بالتزوج من فرنسية!
المسيو (د) - حقيقةً لقد أشقى أبجد أفندي نفسه
بالبحث عن فرنسية.

مبارك - وهل وجد غايته؟

مدام (د) - بالطبع لم يجد؛ لأنه لا توجد
فرنسيات للبيع!

مبارك - للبيوع ؟

مدام (د) - نعم للبيوع ، ومن هي الفرنسية المجنونة
التي تزوج من رجل جاوز الأربعين .

أُجِد أفندي - هذه إهانة !

مبارك - لا تُرَع ولا تُزَعج ، يا أُجِد أفندي ،
فهنالك أخطار تنتظرك إذا تزوجت .

المسيو (د) - ما هي هذه الأخطار ؟

مبارك - يجب أن نلاحظ أن الإسلام أذاع في
مصر والشرق الغربية العنيفة في رعاية المرأة . ولا عبرة
بما يدين به أُجِد أفندي من المسيحية . فهو مسيحي ديناً
ومسلمٌ غيراً . فإذا تزوجتَ فرنسية يا أُجِد فستنتقل
بمشيئة الله إلى مستشفى المجاذيب في أقرب فرصة .

أُجِد أفندي - هل معنى هذا أنني لا أعرف كيف

أصون زوجتي ؟

مبارك - المرأة الفرنسية لا تسمح لزوجها بالتدخل

لعصيانها ، وإنما تتصون هي وتدفع عن كرامتها ما يهددها

من الأهواء ، ولكن الذي أخشاه أن لا تحتمل أن تعيش زوجتك في حرية : فأنت شرقي تأكلك الغيرة وتقتلك الوسوس بلا موجب كأكثر الأزواج .

المسيو (د) - لا تظن يا مسيو مبارك أن الغيرة خاصة بالشرق الإسلامي ، فالفلاح الفرنسي يغار على زوجته غيرة عنيفة ، ويضايقه أن يذكرها أحد بخير ، أو يصف جمالها بعض الأصدقاء ، أو يسأله سائل عن صحتها .

مدام (د) - أظن الحالة تطورت في مصر .

المسيو (د) - تطورت تطوراً سطحياً ، ولكن المصريين في أعماق نفوسهم لا يحبون أن يتكلم أحد عن نسائهم ، وقد يتفق أن أقابل بعض المصريين المهذبن فأسألهم عن زوجاتهم فيبهتون ، وبعد لحظة يضبطون أنفسهم ثم يجيبون ... وقد اتفق أن زارني شابٌ مصريٌّ فسألته عن أخته وكانت تلميذتي فظهرت عليه علامة الخجل والضعف والحيرة ، وبعد لحظات تماسك وأجاب .

أبجد افندي - أنا على كل حال لا أخشى هذا ، لأنني

واثق من امتلاك قلب زوجتي .

مبارك - وكيف تمتلك قلب زوجتك وقد ودعت
عهد الشباب ؟ أم كيف تطمئن إلى قلب عروس تخاطبك
بمثل هذه العبارة :

« يا عمَّ أُمجد : خذ القهوة وارقدُ »

أُمجد افندي - على كل حال سأظل شاباً .

المسيو (د) - لنفرض أن سيكون الفرق بين
عمركما عشرين سنة وأن ستكون هي في سن الأربعين
وأنت في سن الستين ، ثم قديم لزيارتكما شابٌ أتيق في
سن الثلاثين ...

أُمجد افندي - في مثل هذه الحال أوكد لكم أنني
سأغمض عيني ا

مبارك - تغمض عينيك ؟ إذن غضبةُ الله عليك
وعلى جميع الأُمجدين ؟

المسيو دي كومنين - خوضوا ، إن شئتم ، في غير

هذا الحديث . ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١

يا بحر يوسف

- ١ -

ليتني أعرف من هو ذلك السنتريسيُّ الظريف الذي
نقل إلى سنتريس موال :

« يا بحر يوسف ، ياما فيك كل بلطية »

فقد كنت في طفولتي أجد أنساً شديداً بهذا الموال ،
وكنت أغنيه في الصباح والمساء ، وكان يحاول لي أن أترنم
به وأنا أصطاد السمك من التربة العامرية في سنتريس .

وكنت لسذاجتي أفهم أن « البلطية » هي السمكة
الحقيقية التي تعيش في النيل فكنت أمني النفس بسفر
سعيد إلى بحر يوسف لأصطاد من البلطيات ما أشاء .

ثم تعاقبت الأيام وأخذت أتنبه إلى ما في القصائد
والمواويل من الرمزيات .

وأخيراً فهمت أن البلطية اليوسفية ليست سمكة نياية
تتشبهها البطون ، وإنما هي ظبية فيومية تشبهها القلوب .

الآن فهمت مغزى الموال :

« يا بحر يوسف ياما فيك كل بلطية »

ولكنني ، وأسفاه ، لم أفهم إلا بعد فوات الوقت :
لأن الشهرة التي ظفرت بها بحق أو بغير حق جعلتني ممن
يشار إليهم بالبنان ، وأنا أخشى إن مضيت لزيارة بحر
يوسف أن يقال : هذا صياد البلطيات ! وأهل الفيوم
فيما أعرف لا يسرهم أن يكون واديهم غابة صيد !!
فيما أيها الأديب الذي اسمه « محمود » تذكّرني كلما
شاكّتك « بلطية » وتذكّر أن في الدنيا إنساناً يتلف
على ما في بحر يوسف من الأسماك الحقيقية والمجازية !!
وسلام عليك وعلى بلدك من الحب المشتاق .

٩ يولييه ١٩٣٦

كان الأستاذ الدكتور منصور فهمي بك جمع أوائل
المتخرجين في كلية الآداب في شهر مايو سنة ١٩٣٣

وأخذ يزودهم بالنصح ، ويعرض عليهم استعدادهم لمعاونتهم
إذا اقتضى الحال ، وبدا له يوماً أن يسأل كل متخرج
عما يقصد إليه من الأعمال وجاء دور الأستاذ محمود شافعي
فقال : أما أنا فسأعمل مع أبي في تحرير جريدتنا (بحر
يوسف) وكنت بالمجلس فقلت : يستطيع سيدي الدكتور
أن يعاون هذا الفتى فيرسل لجريدته مقالا أو مقالين . فقال
الدكتور منصور : ساعده أنت يا زكي ، فان قامك أطوع .
وانتهز الأديب الفرصة فطلب مني مقالا للعدد الممتاز
من جريدته ، فكتبت المقال ، وفي هذا العام كتب إلي
ذلك الأديب خطاباً طريفاً قال فيه إن لجريدة بحر يوسف
ضريبة سنوية على قلمي ، وهو يتقاضاها ، فأخذت أبحث
عن موضوع أكتب فيه فلم أهتد ، وأخيراً رأيت أن
أشرح الموال :

« يا بحر يوسف يامافيك كل بلطية » .

فقلت إني كنت أغنيه في طفولتي وأنا أصطاد
السماك من ترعة سنتريس ، وكنت لسذاجتي أفهم أن

(الباطية) هي السمكة الحقيقية التي تعيش في النيل ،
فكنت أمني النفس بسفر سعيد إلى (بحر يوسف)
لأصطاد من (الباطيات) ما أشاء ، ثم تعاقبت الأيام وأخذت
أتنبه إلى ما في القصائد والمواويل من الرمزيات ؛ وأخيراً
فهمت أن الباطية اليوسفية ليست سمكة نيابية تتشابهها
البطون ؛ وإنما هي ظبية فيومية تتشابهها القلوب . وأسفتُ
على أن لم أفهم هذا إلا بعد فوات الوقت ؛ لأن الشهرة التي
ظفرت بها بحق أو بغير حق جعلتني ممن يشار إليهم
بالبنان ؛ وأنا أخشى إن مضيت لزيارة بحر يوسف أن يقال
هذا صياد (الباطيات) وأهل الفيوم فيما أعرف لا يسهرون
أن يكون واديهم غابة صيد .

تلك خلاصة الكلمة التي نشرتها جريدة بحر يوسف .
وهي كما يرى القراء دعابة بريئة من الإثم والسوء ؛ فهل
يدرون كيف تقبلها الناس هناك ؛ لقد رأيتها جريدة الفيوم
من الجرائم الأدبية فكثبت تشتتني أقبح الشتم وترميني
بالإفك والبهتان ؛ وانبرت جريدة بحر يوسف للدفاع عني

فنشرت مقالين أحدهما للأستاذ محمود شافعي وثانيهما
للأستاذ عبد الحكيم عابدين ، ونشرت كلمة ^(١)ثالثة بامضاء
حضرة الأستاذ السيد الحكيم سكرتير مجلس النواب
الأمبق رجا فيها أن لا أكون قصدت بكلامي الطريفة
غير مجرد المداعبة .

وكذلك كتبت علينا أن لا نصبح ولا نمتسي إلا
مزودين بالأراجيف ، وهذه دنيا الأدب ، وهي دنيا غادرة
تنضح بالعقوق ، ولا نرى فيها طيف البر إلا في سنات
الأحلام .

وقد كتب إلينا الأستاذ محمود شافعي يعتذر عما سبب
لنا من الضجر ، ونجيب بأننا غير غاضبين : لأن من
المقبول أن يشتتم المرء في بلد مثل الفيوم ، وقديماً قيل :
هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر

لعزة من أعراضنا ما استحلّت

ومن موجبات الأسي أن عهدي بالنضال الأدبي
سيطول ، فما فتّح أمامي باب للهدوء والطمأنينة إلا أغلقته

بيدي ، ففتى أتوب عن مساجلة الناس ؟ متى أتوب ؟ فقد
كدت أضجر من تقول المتقولين ، و إرجاف المرجفين ،
وعدوان المعتدين .

أمن الإثم أن يقال إن البلطية اليوسفية رمزٌ إلى
الظبية الفيومية ؟

أمن الوقاحة أن يقول كاتب إن أهل الفيوم لا يسرم
أن يكون وادهم غابة صيد ؟

يا محرر جريدة الفيوم !

إن كان ساءك أن نفسر الموال بالطريقة الرمزية ،

فانتظر فسنشرح ما يتصل ببلادكم من الرمزيات ، حتى

العنب والتين !

واحذر أن تعرض مرة ثانية إلى ذكر سنتريس بسوء .

وإلا فسأجرّد عليكم حملة فيها عشرة آلاف نبوت . . .

وقد أعذر من أنذر ، والسلام .

١٩ يولييه سنة ١٩٣٦

الاستهداف للقتل

في سبيل النقد الأدبي

أهمراً وسراً !

في ضحى يوم الأحد الماضي كنت أقلب بعض الأوراق في سامة وملاحة ، ثم دق جرس التليفون فأنست إليه وقت :

« لعله موعد غرام ! » ولكنني فوجئت بما أخلف فاتن الظنون : فقد كان محدثي خليفة الجاحظ في جمال الوجه ، وهو الأستاذ عبد العزيز البشري ، أثابه الله !

لا تسأل كيف كان الحديث ، فإنه فوق الوصف ، ولك أن تتصور أنه كان عنيفاً أقسى العنف ، ولولا أنني كنت أحده في منزلي وبين أهلي لأنخاع قلبي من الرعب ، ولكن الله لطف وأحياني حتى أدون هذا الحديث !

ابتدأ الأستاذ فقال :

- أنت الدكتور زكي مبارك ؟

- نعم !

- أنا عبد العزيز البشري .

- أهلاً وسهلاً ! صباح الخير يا سيدي الأستاذ .

- لا أهلاً ولا سهلاً ، ولا صباح ولا مساء ، خليتها

خللاً يا دكتور ! أهذا هو التحقيق العلمي يا حضرة المحقق ؟

كيف تزعم أنني سكتُ سكوتاً مؤذناً بالقبول ؟ ومتى

فهمت من كلامي أنني أوافق على أن شرح نهج البردة ليس

لوالدي ؟ اسمع ، اسمع ، لقد قضيت حياتي نادماً على هفتوتين

اثنتين :

الأولى أنني لم أحسن لغة أجنبية ، والثانية أنني لم

أتعلم في أوروبا . ثم كان صنيعك معي خير عزاء على

ما جنيتُ من تفريط ، فإن منهجك في التحقيق العلمي

يعزي من خاتمه الظروف فلم يتمكن من التعلم في

السوربون ! ادعوا ما شئتم فقد أثبتت التجارب أننا خير

منكم ، والحمد لله ، فلا تمنُّوا علينا وعلى الناس بأنكم أوفر

عاماً وأغزر أدبياً ، فتلك دعاوى لم تقيموا عليها البيِّنات !

— يظهر أن الصيام يتعبك ، يا سيدي الأستاذ !

— لا ، ليس الصيام هو الذي يثير غضبي عليك فقد

قطعتَ يديك ما كان بيننا من أسباب الوداد ، وقضيتَ

على ما أحكم الأدب بيني وبينك من وثيق الصلات . . .

— كيف ؟ وما أسأت إليك يا سيدي الأستاذ ،

ولا جنيت على أحد من أهلك !

— أنت لم تسيء إليّ ، ولم تجن على أحد من أهلي ؟

وكيف تكون الاساءة والجنابة أكثر مما صنعت ؟

— أنا لم أفعل شيئاً يفضيك ، والله العظيم .

— اسمع ، يظهر أنك رجل مُرازي ، وأنا لن أدخل

معك في حرب أعرف أن الغالب فيها أسوأ حالاً من

المغلوب ، ولكني سأسلط عليك من يُرازيك .

ترهيب : القتل

— وماذا تملك في مرازاتي يا حضرة الأستاذ ؟

— أدبر لك أشياء شنيعة جداً .

— لا حول ولا قوة إلا بالله !

— ماهذه القهقهة العالية ، يظهر أنك غافل عن

مصيرك !

— وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد !

— أنا لا أمزح ، إفهم هذا ، إن إخوتي مهتاجون

جداً ، وسترى ما يصنعون !

— وماذا يصنعون ؟ أوضِّح ، أوضِّح !

— إنك إن عدت إلى الكلام عن شرح نهج البردة

فسيفقتلونك على باب دارك !

— يقتلونني على باب داري ؟

— نعم ، يقتلونك ، ويومئذ لا ينفعك حديث

ولا شجون !

— أجِدُّ ما تقول ، يا سيد عبد العزيز ؟

— هو الجدُّ الصُّراح ، وما نحن بمازحين !

— إن كان حقاً ما تقول فاعلم أنني لا أخافك ولا أخاف

إخوتك ، ولو شئت لستت في حربكم ألف نبوت من
سنتريس ، يحملها قرُوم فحول قاتلوا الدهر وصابروا الزمان ،
ولقد صاولت من قبلكم محمد بن فريد الوجدي ، ومحمد
ابن عبد المطلب الجهني ، ولطفي بن جمعة الطنطاوي ، وزكي
ابن باشا الجيزاوي ، وطه بن حسين الجاهلي ، ولطفي بن
السيد البرقيني ، صاولت هؤلاء على بأسهم وجبروتهم فما
وهنت ولا جزعت ، ومن قبلهم نازلت عيون المها على
ضفاف النيل ، ورماح القذود على شواطئ السين ، فما
انشعب قابي ، ولا انصدع لبي ، فاتقوا الله في أنفسكم
واختاروا لأنيابكم طعاماً سواي ، فإن لحم الحيات السود
أسلم عاقبة من لحمي وأشهي مذاقاً . وسوف تعاملون ! ...
إنك يا هذا لا تدري عواقب ما تهتف به ، ولا تعرف
ما يهدد مصر من الخطر حين يقتل كاتب على باب داره
في القرن العشرين ، ألا تعلم أن ذلك لو وقع — وقاني الله
ولطف ! — لقامت أزمة وزارية يتصدع لها حزب الشعب
ويهوي بها صدقي باشا في قرار من العزلة مكين ، ثم

تجبط المفاوضات بيننا وبين حلفائنا الصادقين آل جون
ابن هامان ، وتُصِرُّ الدول الأجنبية على بقاء الامتيازات ،
لأن البلد الذي يُقَمَّلُ كِتَابَهُ وشِعْرَاؤُهُ على أبواب منازلهم
لا يؤتمن أهله على مصالح الجاليات ! كيف يفوتك هذا
كله وأنت العالم الأريب ؟ ومع ذلك فافعل ما بدا لك ،
فإن روعي - يوم أموت شهيد الصدق - سيَنعَمُ بالراحة
الأبدية : إذ يرى أن الأشياخ فيهم شجعان أبطال يقولون
ويفعلون بعد أن طال عهدهم بالقرار والسكون !

أصل النزاع :

وأصل هذا النزاع الذي شغل قراء البلاغ وعرض
حياتي لخطر القتل - لا قدر الله ولا سمح ! - أني قلت
إن شرح نهج البردة كُتِبَ بقلم الأستاذ عبد العزيز البشري
وأن والده رحمه الله راجعه وحرر فيه بعض الأبواب ،
فظن الأستاذ عبد العزيز أن هذا الكلام معناه اتهام والده
بالتزوير . وهذا هو الفرق بيني وبينه في فهم نظام التأليف ،
فلو أن الأستاذ كُتِبَ له التوفيق ، واتصل كما اتصلنا

بالآداب الأوربية ، وجلس كما جلسنا في القبلة القديمة في
السوربون ، لعرف أن هذه مسألة حادية . ولو أنه سأل
صديقه الدكتور طه حسين الذي تطوع بمناصرته لعرف
أن كليمنصو وضع اسمه على مؤلفات ليست بقامه ، وإنما
وضع أصولها وترك تحريرها لكاتب سرده ، وأناطول
فرانس نسبت إليه كتب لم يحورها وإنما ألهم معانيها
إلى كاتبه . ومؤلفو المسامين قديماً كانت لهم كتب وضعت
على هذا الطراز ، فكانوا يملون في مجالسهم ويتركون
لتلاميذهم المختارين تحرير الكتاب في صورته النهائية ،
وهذا هو التفسير الصحيح لما حدثنا به الغزالي في الاحياء
حين ذكر أن كتاب « الأم » ليس للشافعي وإنما هو
للبيوطي ، فكتاب الأم للشافعي لأنه أملى أصوله ، وليس
له لأنه لم يحوره بقامه ، ومن أجل هذا لم نسمع شيئاً
جديداً حين اتصلنا تليفونياً برجل فاضل من صلب الشيخ
سليم البشري فصرح لنا بما نصه حرفياً :

« نُسِبَ كتاب الأم للشافعي وليس له ، ونُسِبَ

كتاب « المدونة » إلى مالك وليس له ، ونسب شرح نهج البردة إلى الشيخ سليم وليس له .
لم يأت هذا الفاضل بشيء جديد لأننا نعرف أن في شرح نهج البردة مسائل لم يحررها الشيخ عبد العزيز ، وإنما حررها والده رحمه الله ، وكان الشيخ عبد العزيز ولا يزال أعجز من أن يجاري والده في مضمار الفقه والحديث .
أفترى من هذا ياسيد عبد العزيز أني أتهم والدك بالتزوير ؟ لاشيء مما تظن على الاطلاق ، وإنما هي أصول النقد الأدبي تُذيعها بين الناس .

ومع ذلك فبأي حق تغار على الشيخ سليم أكثر من غيرتي عليه ؟ لقد ظل الرجل شيخاً للإسلام والمسلمين قرابةَ عشرين عاماً ، وصار له في عنق كل مسلم دين لا يفكر في التحرر منه إلا الجاحدون ، فلم تستكثر علينا أن نترك لضمائرنا رعاية حقوق ذلك المحدث الجليل ؟
أتصدق ما يُشيع المرجفون من أننا نهجم رجال الدين ونستهين بعقائد الآباء والأجداد ؟ لا ، ياسيد ، إن غيرتك

على الشيخ سليم فيها نزعة من الأثرة ، والاسلام لا يعطيك
من حق الغضب له إلا بمقدار ما يعطيني من ذلك ، فلا
تُثر غباراً في غير ميدان ، وانتظر إن كان يعينك أن
«ترازينا» حتى تجد المقبول من أسباب النضال .

وهل من اللائق أن يفهم الجمهور أن أبناء الشيخ سليم
مستعدون لأن يدبروا للناس « أشياء شنيعة جداً » وأنهم
قد يفكرون في قتل المخلصين من الباحثين على أبواب
منازلهم ؟ أهذا هو ما تركه الشيخ سليم من الأثر الطيب في
أبنائه النجباء ؟ اتقوا الله في أيكم واطووا هذا اللجاج .

بشائر الصالح

ولا يفهم القارئ أن المحادثة انتهت بالاصرار على
القتال ، لا ، فقد بدرت من الأستاذ عبد العزيز عبارة
عظفتني عليه إذ قال : أنا أغضب لأبي ، أنا أغضب
لأبي ! فقلت : إن أباك جدير بأن تغضب له . فقال :
أنا لا أغضب لأبي لأنه كان شيخ الإسلام ، لا ، والله
لو أنه كان حماراً أو كناساً لغضبت له هذا الغضب !

وما كاد الأستاذ ينطق بهذه الجملة النبيلة حتى بلغ مني التأثر كل مبلغ ، وذهب بي الاعجاب به كل مذهب ، وقلت :
رعاك الله ورحم أباك أيها الشبل النجيب ، ثم انتقلنا إلى
عتاب أصفى من الصهباء ، وأرق من قلوب المحبين . وقال
الأستاذ : أنا معجب بك ، وأنتظر مقالاتك في البلاغ
وأقرؤها بتشوف واشتياق . فقلت : وأنا أقدم للأدب
الحديث خدمات لا تخطر لكم على بال ، ولو أنكم سألتم
تلاميذى بالجامعة الأمريكية لرأيتم أني أقربهم من كتاب
العصر وشعرائه أشرف تقريب ، وإني لأحرص على أن
تكون الجوائز الأدبية التي توزع في آخر السنة صورة
صحيحة لجميع المؤلفين ، وهناك أناس يطوون اسمي عمداً في
أحاديثهم ورسائلهم ، ولكن حبي للأدب وإنصافي
للمبدعين يحماني على نشر أسمائهم بين جماهير الطلاب ...
إنكم تستكثرون يا أستاذ عبد العزيز أن تبدر مني كلمة
ينبعث لها جدل أو شقاق ، وفاتكم أن الحياة الأدبية في
مصر راكدة أبشع الركود ، وأن الآداب الأجنبية تحتل

أفئدة شباننا احتلالاً أخطر من احتلال الأنجليز للثغور
والمطارات . إن أدبنا في حاجة إلى حياة ، وهذه الحياة لن
تصل إليه إلا عن طريق المشارط القاسية التي تجمع بين
الألم والشفاء ، فلا تحقدوا إن هجرتكم للنزال ، فقد تأتون
بالبدع الطريف حين تغضبون .

طالبة كلية الآداب

وما كدنا نصل إلى هذا الحد حتى غضب الأستاذ
عبد العزيز للأدب وقال : يظهر حقاً أننا نقاسي أزمة
أدبية قاتلة . وقد عرضت على الأستاذ أحمد أمين أن أقدم
بضع نسخ من كتاب المرأة هدايا لطالبة السنة النهائية من
كلية الآداب فأجاب بأن الطلبة لا يفهمون اليوم جمال
الأساليب .

أهذا صحيح ؟ هل من الحق أن طالبة كلية الآداب
لا يفهمون جمال الأساليب ؟ وماذا يصنع الأساتذة هناك ؟
اسمعوا كلمة الحق أيها الناس ! إن فاقد الشيء لا يعطيه ،
وما دام يتفق في مصر أن يتولى تدريس الأدب قوم ليسوا

بأدباء ، وليس لهم في الأدب ولا في تاريخه أثر معروف ،
فلا تنتظروا أن يكون في معاهدنا العالية نهضة أدبية . . .
إن الأدب صورة الحياة فلا تطلبوه عند غير الأحياء . هل
في كلية الآداب اليوم بصيص من النور يُؤذن بيقظة
عقلية أو روحية ؟ هل هناك أستاذ واحد يخطر في باله
أنه موكل بحرب الخمود والجمود ؟ إن الأدب سلطة قائمة
بذاتها ، ومن عرف كيف يخضع في سبيل الرزق فليذكر
أن الأمة كانت تعدّه لغير هذا المجال !

طوائف الحياة

لقد جرّتنا محادثة الأستاذ البشري إلى التفكير في
بعث الحياة الأدبية ، وقد تمحّس الرجل أبغى التحمس ،
واتفقنا على أن تقوم بإذاعة طائفة من المحاضرات في الراديو
لحث الشبان على التعلق بروائع الأدب القديم والحديث ،
واتفقنا أيضاً على أنه لا أمل في النجاة إلا أن نحرر
الفكر من ذلك التزمّت المقوت ، فالحياة حركة وبقظة
وحرية ، ولا قيمة لأولئك الأدباء الموسوسين الذين يتوهمون

أن الموت ينتظرهم في كل لحظة ، وأن الفقر يطالهم من كل باب ، وأنه لا ينبغي أن يُخط حرف واحد قبل التفكير فيما يتبعه من قيل وقال . . . إن أمثال فلان وفلان ممن لبسوا قناع الصقل والطلاء يجب أن يخرجوا من الميدان ليفسحوا المجال للمجاهدين الصادقين .

أترون أيها الناس ما يصنعه الأدباء الأجانب للغاتهم؟ إن سينما رويال مثلاً أنفع للغة الإنجليزية من ألف مدرسة ، والسينما الناطق الفرنسي يؤدي من الخدمة للغة الفرنسية أضعاف ما تؤديه المدارس الفرنسية في هذه البلاد؟ فهل استطاع دعاة الأدب في مصر أن يقيموا خيالاً ناطقةً لخدمة اللغة العربية؟ ألا يستطيع الأستاذ البشري أن يستفيد من أصدقائه أغنياء الأدباء فيضعوا بناءً للسينما المصري الناطق الذي يذيع حضارة مصر الحديثة في الأقطار العربية؟

إنه لم يبق لخدمة اللغة في مصر إلا الصحافة ، ولها قيود من الحكومة ، وعليها رقابة من عقول الجامدين ،

فاتقوا الله في لغتكم ولا تصرُّخوا في وجه النقد الأدبي
كلما صال أو جال .

أفمن هذا الحديث يفضب الأستاذ البشري والأستاذ
زكي باشا ويعجب الدكتور طه حسين ؟

يا قوم ! أنتم تعيشون في عصر سموه القرن العشرين ،
فلا تعودوا بضمجركم إلى القرن الرابع عشر ، بحجة أنكم
تعيشون في القرن الرابع عشر للهجرة ، فقد دالت دولة
الألفاظ وجاء عصر المعاني والأغراض ، واتفوا يوماً تسيطر
فيه الآداب الأجنبية سيطرةً فاحشة على جميع العقول
المصرية والشرقية . ولا يزال في أيديكم شيء من الأمر ،
فاعملوا على تثبيت أقدام اللغة العربية بأسباب القوة والحياة .
ففي حياتها حياة لكم ولاخوانكم في الشرق ، لو تشعرون .

باب المناقشة مفتوح

لقد رجانا الأستاذ البشري أن نقفل باب المناقشة ،
وكنا نود أن نغلقه بالضربة ، كما يعبر أهل سنترس ،
ولكن المصاحبة الأدبية تحتم أن تنتقل المناقشة من فن

إلى فنّ لیتسنى للقراء أن یطلعوا على وجوه من مذاهب
الحياة العقلية ، فلیخلم الأستاذ البشري ثوب الكسل
والسكون ، ولیتقدم إلى الميدان بكلمات ینفض بها غبار
الغفلة عن شباننا الزاهدين فی أدبنا القديم والحديث : فان
كتابة مقال نافع تساوي درس العلم الذي فضله السلف
على عبادة ستین سنة ، فان لم یفعل فسأقتله أنا ، لا على باب
داره ، ولكن على صفحات البلاغ !!! وسلامٌ علیه من
العارف لفضله الجمّ ، وأدبه الرفیع .

١٦ رمضان سنة ١٣٥١

أبجد افندي يتزوج

أبجد افندي يتزوج ؟

بالرفاء والبنين ، يارفيق الجميع !

في مثل هذه الأيام من العام الماضي قدمنا أبجد افندي إلى القراء ، وإني لأعرف أن كثيراً منهم لم ينس هذه الشخصية الجذابة التي توحى الروح إلى القلوب ، والآنس إلى النفوس . ولكن من المحتمل أن يكون فريق منهم لم يتفق له أن يقرأ ما كتبنا في وصف هذا الصديق الطريف : لهذا نقدمه مرة ثانية ، وبصورة ثانية ، فقد عرفنا من أمره ما لم نكن نعرف ، واطلعنا على كثير من خبايا قلبه المراح ، ونفسه الطروب .

ولأبجد افندي نواح كثيرة تستحق الدرس ، وكل

ناحية منه تقدم لنا شخصية مستقلة كل الاستقلال : فهو

موظف ، وصديق ، وضحك ، وعبوس ، وحيوان
اجتماعي !

وهو كموظف يمتاز بالحركة الدائبة والنشاط الموصول ،
وحسبنا أن نعرف أنه يسود في مكتبه ما لا يقل عن عشرين
صفحة في العام الواحد ! ولا يلاحظ عليه الكسل إلا
حين يُعهد إليه ترجمة أحد النصوص ، ولكن كسله في
مثل هذه الحال كسلٌ علميٌّ مقبول : فهو يقف أمام الكلمة
الفرنسية موقف الخاشع المتبتل ويأخذ في تأملها من جميع
النواحي : فيعدُّ حروفها ويقارن بينها وبين ما يماثلها من
الكلمات القصيرة أو الطويلة ، ويجهد بقدر الإمكان في
ردها إلى أصولها اللاتينية أو اليونانية ، ويظل على هذا
الحال بضعة أيام ، ثم يفكر آخر الأمر في ترجمتها إلى
العربية : وهنا يتبدى النزاع : هل اللغة العربية لغة حقاً ؟
وهل هي لغة علم ؟ وهل هي لغة حضارة ؟ كيف وهي
تضيق عن التعبير عن بعض الأغراض ؟ ويستمر هذا النزاع
أسابيع ويشترك فيه جميع زملائه بالديوان ، إلى أن يقضي

الله بترجمة النص المطلوب !

وهو كصديق آية في الإخلاص : لا يكذب ولا يتجنى ولا يخون ، يدعوك إلى طعامه ، ويدعو نفسه إلى طعامك ، والملاحظات معه أيام سعادة وإيناس ، ولا عيب فيه إلا أنه يقترح أشياء كثيرة جداً ، فاذا قدمت المائدة كان نصيبه منها أقل من نصيب الطفل العليل . وأبجد افندي عزيز جداً على أصدقائه ، ومن آيات ذلك ما شهدته بنفسى عشرات المرات من صديق فرنسي جليل يرفق بأبجد افندي ويعطف عليه ، وينسى له جميع الهفوات . وهذا حظ يُحسد عليه أبجدنا المنضال .

أما ضحكك وعبوسه ففي يد المقادير ، ولا تعرف متى يضحك أو متى يعبس ، وأكبر الظن أنه يحمل قلباً جريحاً ، ولكن في أي معركة جرح ذلك القلب ، علم ذلك عند علام الغيوب .

وأصدقاء أبجد افندي يعرفون طبيعته ، وصديقتنا الفرنسي يصفه بالتعاسة والبؤس ، وهو وصف يبدو كبيراً

على أبعاد أفندي ، ولكنه عند التأمل يظهر من أصدق الأوصاف .

وهو كحيوان اجتماعي شخصيَّةٌ عجيبة تستحق بعض التفصيل :

ولنترك خوفه من الكلاب ، فهو في ذلك مضرب الأمثال ، ويكفي أن نذكر أن الكلب (دوك) لا ينبح إنساناً سواه ، بحيث يمكن الجزم بأن أبعاد أفندي جبان أو خبيث : لأن الكلب الألف لا ينبح إلا اللئام أو الجبناء ، ومن المؤكد أن أبعاد أفندي غير لئيم ، فلم يبق إلا أن يكون جباناً ، ولو قليلاً ، فإن شقَّ عليه ذلك فليتشجع ويقابل (دوك) في صباح أو مساء لنشهد بأنه غير جبان ! ولا أبعاد أفندي عداوات موسمية تخلقها الظروف : فهو اليوم عدوَّ فلان وغداً عدوَّ علان ، ثم ينسى هذه العداوات نسياناً تاماً حين تتغير المناسبات ، وهو حين يعادي خبيث اللسان إلى حد الإسفاف ، وقد جهدنا في تقويمه ولم نفلح ، مع أنه مهذب في حضرة (دوك) ! وقد يلاحظ أن له فوق

عداواته الموسمية عداوات دائمة يحسن طيها عن القراء .
وهذا الحيوان الاجتماعي دميم الشكل ، ولكنه عند
أهله غزال ! وقد اتفق لكاتب هذه السطور أن يزوره
مرة في منزله فدهش عند ما رأي الفرق الهائل بينه وبين
أخواته الملاح ، وقد بدرت مني الكلمة الآتية لإحدى
أخواته : « كيف يتفق لك هذا الجمال يا آنسة مع
دمامة أخيك ؟ »

فصاحت في وجهي قائلة :

« دا أخويا قر » ؛

ثم دعت أمها وقصت عليها ما قلته ففضبت السم
وكادت ترفع العشاء !

تجلنزا أبجد افندي حيناً ، وتقرنس حيناً ، ولكنه لم
يتمصر في روجه ووجهه إلا قليلاً . وسر هذا أنه ظل
شاهداً على أن الفراعنة احتلوا زمناً بلاد الصومال ، وسجنته
الصومالية نفعته يوماً في باريس ، وكاد مخزن اللوثر يتخذ
حاجباً ليرفه بطاعته (البهية) عن أنفس الزائرين . ولا يزال

مخزن اللوثر يسعى لتحقيق ذلك الغرض ، وآيةٌ سمّيه
ما نرى من عناية مندوبه بمصر وسهره على إدراك هذا
المطلب ، وإلا فما الذي يجمع بين أمجد أفندي والسيو
بوسان ؟

ومن العسير على أمجد أفندي أن يحفظ نظام المحادثة
خمس دقائق : فهو يقفز من حديث إلى حديث بطريقة
مضجرة لا يحتملها إلا الصابرون ، وعلى المحادثين أن
يغفروا له ذلك ، وإلا سكت وعلمته الكتابة وغمر المجلس
بأنقال الضجر والاكتئاب .

ولأمجد أفندي قهقهة عالية لو أُخِذَتْ في أسطوانة
لعدت عليه بالربح الجزيل ، وله شدة واسع جداً لا يظهر
خطره إلا عند أكل المانجة ، ولهذا يحسن أن نسميه
(أمجد أفندي الأشدق) .

•••

أمجد أفندي جاوز الأربعين ، ولا يزال مع ذلك عَزْبًا
والعياذ بالله ، ومشروعٌ زواجه مشروعٌ قديمٌ يرجع إلى

عشرين عاماً ، ولا يُفتح الحديث في منزله أو مكتبه أو
ملهاه أو سامره إلا عن الزواج ، وما زارت أمه أو أخته
جارة أو صديقة أو قريبة إلا سألت عن زواج أبجد
افندي ، وتُختم المحادثة دائماً بهذه العبارة الدعائية :

« ربنا ، ياستي ، يرزقه بنت الحلال ! »

وبنت الحلال المنشودة هي المشكلة : فهي في نظر الست
أم أبجد يجب أن تكون (بنت بلد) تعجن وتخبز وتطبخ
وتغسل . وفي يوم الخميس من كل أسبوع تحضر فلاحه
وسيمه لتوريد ما يلزم المنزل من البيض والبط والدجاج
فتأخذها الست أم أبجد على ناحية وتسره في أذنها
الكلمات الآتية :

« تعرفيش ، يا أختي ، واحدة عندكم بنت حلال ؟ »

فتجيبها الفلاحة الوسيمة :

« علشان مين ، ياستي ؟ أظن علشان بسلامته المحروس

أبجد افندي . أعرف ياستي واحدة ست بيت وبنت ناس

بس إيدك عالفوس ، دا الخلو يستاهل ، يا أم أبجد ! »

أما « بنت الحلال » في نظر أبجد افندي فيجب أولاً
أن تكون :

هَيْفَاءٌ مُقْبِلَةٌ عَجْزَاءٌ مُدْبِرَةٌ
لَا يُشْتَكَى قِصْرَهُ مِنْهَا وَلَا طُولُ

وهو لهذا لا يحفظ من الشعر إلا قول أبي نواس :

بانوا وفيهم شمسٌ دَجْنِ
تَنْمِلُ أَقْدَامَهَا الْقُرُونُ
تَعُومُ أَعْجَازَهُنَّ عَوَمًا
وتنثني فوقها المتون

وقول مسلم بن الوليد :

إذا أطاعت عصاها ثقل رادفها
كالدَّعْصِ يَفْرَعُهُ غُصْنٌ مِنَ الْبَانِ

وقول ابن التعاويذي :

تميل على القلوب بذي اعتدال
له من نشوةٍ وصبياً تميل

وَيَقْعِدُهَا إِذَا خَفَّتْ نَهْوَصًا

لِحَاجَتِهَا مُؤَزَّرُهَا الشَّقِيصُ

ويتلخص ذوق أبحد افندي في الهيام بالمرأة العجّزاء ،
وهو يحفظ من اللغة ألفاظاً خاصة في وصف المرأة السمينّة
كالرُّضْرَاضِنة والخَدَلْجَة والسَّرْمَارَة والعَضْفَنِكَة والرَّبْلَة
والعُطْبُول والمؤَكَّمَة والوركاء ، وقد يضيف إلى ذلك اللغفاء .
ويحفظ كذلك كل ما يتصل بالعجّز والوركين كالتَطَن
والغُرَابِين والحَجَبَتِين والمَأَكْتِين والحُقّ والفائل والخارقة
والخُرْبَتِين والصلّوين والخرققتين والعجب والقحّح
والعصص والرائفة والكرمة والزرين والواباتين
والحارّتين ، إلى آخر ما يعرف من الأسماء والأوصاف .
ومن عجيب أمره أنه لا يصدّق أن للمرأة جمالاً في
غير تلك المنطقة الخطيرة ، فإذا حدثته عن صباحة الوجه ،
وأسالة الخد ، ووضاءة البشرة ، وملاحاة الأنف ، ورشاقة
القد ، وعدوبة الثغر ، وجلالوة العينين ، ولباقة الشمائل ،

وظرف اللسان ، سخر منك وعدك طفلاً لا تفهم أسرار
الجمال .

وهو في هذه النقطة من المجددين في اللغة ، فهو
يقول : امرأة ردّفاء وكفلاء : إذا كانت وثيرة الردف
والكفل ، قياساً على قولهم في عزيمة العجز عجزاء ،
وهو من أهل البصر بهذه الشؤون !

وبعد فقد اجتمعنا في سنتريس مساء الخميس الماضي
وتحدثنا عن زواج أبجد افندي وكان المجلس مكوّناً من
ستة أشخاص فيهم صديقنا الفرنسي الجليل ، وثلاث سيدات
فرنسيات ، إحداهن عذراء غمضية الطرف ، غناء الصوت ،
رزان قدوع ، وعطيف شموع .

المسيو (ك) - مضت مدة لم نسمع فيها شيئاً

من أخبار أبجد افندي في « البلاغ »

أبجد افندي - ومن ذا الذي يجرؤ على نشر أخباري

في البلاغ ؟ إن الدكتور مبارك يعرف ما ينتظره إن عرض
لي بكلمة واحدة ! أتظنونني بلا عِزوة ؟ أنا والله أستطيع

أن أحضر خمسين نبوتاً لمعاونتي إذا اقتضى الحال ، أنا
أيضاً فلاح ، ولي أهل يحسنون عمل النبأيت كأهل
الدكتور مبارك ، فليقف كل امرئ عند حده ، ولا
يفخر السيد مبارك بأبناء عمه ، فلي بحمد الله آباء وأعمام ،
وأستطيع دفع الشر بالشر ، وسيعلم أهل سنتريس ، إن
جدّ الجد ، كيف يكون قراع الشاربخ ، وجلاد النبأيت !
الدموازيل لوسي - أبجد افندي تُنشر أخباره في

البلاغ ؟

المسيو (ك) - لا تعرفين هذا ؟ أسألي المدام (ك)
والمدام (ج) فقد عرفتاً قصته قبل أن تحضري من
باريس .

الدموازيل لوسي - ومن أي نوع أخبار أبجد افندي ؟

المسيو (ك) - إنها لا تخرج عن الزواج .

الدموازيل لوسي - ألا يزال عزباً في هذه السن

الشمطاء ؟

أبجد افندي - وهل ترينني كهلاً ، يامدموازيل ؟

أنا محمد الله لا أزال غَضُّ الشَّبابِ ، لَدُن الإِهَابِ ؛ ولولا
دِقَّةُ الذَّوقِ لتزوجت من زمان .

الدموازيل لوسي - وكيف منعتك دقة ذوقك من

الزواج ؟

المسيو (ك) - لأنه يريد امرأة عجزاء !

أبجد افندي - وباريسية .

الكاتب - وباريسية أيضا ؟ الله يفضحك يا أبجد ،

وكيف تكون الباريسية عجزاء ؟ إنك تطلب المستحيل ،

يا أخا الصومال !

أبجد افندي - نعم ، أريد باريسية عجزاء .

الكاتب - قلت لك إن الباريسية لا تكون عجزاء ،

وقد عشتُ زمنًا في باريس ولم أر امرأة عجزاء ولا لفاء .

أبجد افندي - الباريسية الأصيلة يجب أن تكون

عجزاء ، وأنا أعرف أنك لم تخرج من الحيّ اللاتيني ،

وبنات ذلك الحيّ كهن طالبات ، والبنات تحتاج إلى

وقت حتى يستدير كفلها ويبتف نخذاها ، والفرنسيون كلهم

يرون في الحسن رأبي ، ولو تأملت الصور المرسومة في
سقوف اللوفر لرأيت النساء في ذوق الفرنسيين كن دائماً
ثقال الأرداف .

الكاتب — أنت مخطيء ، ياسيد أبجد ، فإن النساء
المرسومات في سقوف اللوفر لا يمتلن الذوق الفرنسي .
وإنما اتجه الفنانون بأذواقهم إلى تماثيل اليونان ، واليونان
شركيون يحبون أن تكون المرأة ذات نخذ ألف وكفل ثقيل
المسيو (ك) — ولم لا يتزوج أبجد افندي مصرية ؟
أبجد افندي — لأن المصرية غير متعامة .

المدام (ك) — في مصر كثير من المتعامات .
أبجد افندي — مهما تعامت المصرية فلن تصل إلى
الفرنسية .

المدام (ك) — أتظن الفرنسيات كلهن متعامات ؟
أبجد افندي — نعم ! حتى الخاديات ؛ وأنا أعرف
خادمة على جانب عظيم من الثقافة . وعندي منها رسائل
تنطق بما هي عليه من العلم الواسع والأدب الرفيع .

المدام (ك) - وعندك رسائل لغير الخادِمات ؟

أبجد افندي - هذا إحراج !

السيو (ك) - وماذا تنتظرين أن يكون عنده

من الرسائل ؟ إن الرجل رحل إلى باريس مرة. ومعه ذوقه

الخاص في فهم المرأة ، ومن المحتمل أن لا يكون مال إلا

إلى الخادِمات : لأنهن في الأغلب يُبتلَيْن بالسِّمْنَة لقلة

الخروج ، وأكثرهن جاهلات لا يعرفن شيئاً من روح

العصر الذي يفرض أن تكون المرأة مسمورة هيفاء. إن

أبجد افندي رجل « عبيط » ، ولولا ذلك لفهم قيمة المرأة

المصرية ، فانه لا يوجد أرض تحلو فيها العيون كما تحلو

عيون النساء في هذه البلاد ، ولو أنني كنت على شريعة

محمد وسمحت لي زوجتي لاقرنتُ بفتاة مصرية وخضعتُ

طائماً لسحر تلك العيون .

أبجد افندي - وما قيمة العيون إن لم تكن المرأة

عَبْهَرَةٌ رَضْرَاضَةً لَفَاءً وَرِكَاءَ ؟

الكاتب - يظهر أن أبجد افندي يحب واحدة

سمينة في حارتهم !

المسيو (ك) - لا تبعدوا بالله عن أصل الحديث .
أنا أرى المرأة المصرية نموذجاً في الجمال ، ولو كنت أعرف
اللغة العربية لخاطرت بحياتي في الهيام بامرأة مصرية
وذقت من خمر حديثها ما يشرح ما في عيون المصريات من
آيات السحر والفتون .

الكاتب - ليت شعراءنا نظروا إلى المرأة المصرية
بعينيك الثاقبتين ، أيها الفرنسي الجليل ، إذن والله كان فيهم
ميسيه ولا مرتين

أبجد افندي - البركة في الدكتور زكي مبارك !

الكاتب - نعم ! ليس عندنا ميسيه ولا لامرتين ،
على ما تراه العيون من كل رَقْرَاقَة غَيْدَاء ، وَبَهْنَانَة
دَرْمَاء وَمَمَكُورَة لَفَاء ، وَخَدَجَّة وَرَكَاء ، وَرَدَّاح عَنَّقَاء ،
وَرَعْبُوبَة رَعُود ، وَمَبْتَلَّة خَرُود ، وَعَبَقَة أَنْوْف ، وَلَبَقَة
رَشُوف .

أبجد افندي - دخلنا في « أفنان الجمال » وسننتقل

بعون الله إلى « مدام العشاق » : !

الكاتب — ليس عندنا اليوم شعراء يحسنون النسيب ،
والأغاني نفسها قاتت فيها النفحات الوجدانية ، مع أن ماضي
الشعر العربي أشرف ماض من هذه الناحية ، وقد بلغ
شعراؤنا الأقدمون أقصى الغايات في الكشف عن دقائق
الوجدان ، وإني لأرجو أن يكون في هذه اللفتة إلى جمال
المرأة المصرية حافزاً للشعراء على التفني بالمصريات الملاح .
أبجد افندي — خرجنا من الموضوع : فاسمحوا
أن أعود إلى بيان ما اعتمتته من الاقتران بفتاة باريسية .
المدام (ك) — إلى متى الصبر على نزقك يا أبجد ؟

أما لك في حارات شبرا غنى عن حسان باريس ؟

المسيو (ك) — لا تنزعجي يا عزيزتي ، فلن يتزوج
أبجد باريسية ولا قاهرية ، إنه مسكين يسرني همه بالحديث
عن النساء ، وأخشى أن تقف به همته عند الاكتفاء
بمضغ الحديث !

الأدب بين الفطرة والذكاء

كثير من الناس يعجبون بآثار الكتاب والشعراء من غير أن يبحثوا عن مصدر ذلك الإعجاب ، وفي رأي أن المطالعة لا تُشير إلا إن تبين القارئ جيداً ما هو السر في جمال ما يقرأ من النثر الجيد والشعر البليغ . وقد يكون السبب في اختلاف النقاد على الأثر الأدبي الواحد أنهم لا يتنبهون إلى تحديد الأصل الذي ينبون عليه حكمهم بقوة الأثر الذي يختلفون فيه أو ضعفه ، ولو قد فعلوا لذهب كثير من أسباب الخلاف .

وقد نظرت في أصول الأدب فوجدتها تنهي إلى أصاين : الفطرة والذكاء . فكل أثر أدبي يرجع إلى سلامة الفطرة التي أوحى به ، أو قوة الذكاء التي ابتدعته . فعلى القارئ أن يتأمل أصول ما يقرأ ليعرف أهو معجبٌ بآثار

الفطرة أم بآثار الذكاء . وعلى من يختلفون في تقدير الآثار
الأدبية أن يرجعوا إلى هذا الأصل لعلمهم يتفقون .

ولنوضح هذه النظرية بعض التوضيح : قد تقرأ خطبة
واحدة لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، مثلاً ، فترى
فيها فقرات أوحىها الفطرة وفقرات أرسلها الذكاء
فمن وحي الفطرة قوله :

« وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند
اللقاء ، ورأى من أحد من إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه
بفضل نجاته التي فضل بها عليه كما يذب عن نفسه . فلو
شاء الله لجعله مثله » .

فهذه الفقرة تبدو ساذجة لا تنمق فيها ولا تهويل ،
لأن الخطيب أرسل النصيح على سجيته بلا تكلف . ولكن
لننظر كيف استعان ذكاه حين قال :

« وكأني أنظر إليكم تكشون كشيح الضباب
لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضيماً » .

فهذه صورة بشعة لمواقف الجبناء ، لم توحها الفطرة ،
وإنما ساقها الذكاء .

وأوضح من هذا أن الشاعر قد يقدم لنا حجة داحضة
ولكننا نقبلها معجبين : لأنه استعان مواهبه العقلية في
بعض الصور الشعرية : كقول البحري يعتذر إلى صديق
فصّر في توديعه يوم الرحيل :

الله جارك في انطلاقك

تلقاء شامك أو عراقك

لا تعذني في مسي

رك يوم سرت ولم ألاقك

إني خشيت مواقفاً

للبين تسفح غرب مآقك

وعامت أن بكاءنا

حسب اشتياقي واشتياقك

وذكرت ما يلقي المود

ع عند ضمك واعتناقك

فتركت ذاك تعمدًا

وخرجت أهرب من فراقك

فهذا شعر مقبول ، ولكنه لا يمس القلوب ، لأننا
نرى فيه حيلة المحتال ، لا وجد المشوق . وأقربُ منه إلى
القلب قول ابن زيدون وهو يتوجع على أن لم يُطل
خطوات التوديع :

ودّع الصبر محبٌ ودّعك

ذائعٌ من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن

زاد في تلك الخطا إذ شيمك

يا أخا البدر سناءً وسناً

رحم الله زماناً أطلعك

إن يُطل بعدك ليلى فلنكم

بتُ أشكو قصر الليل معك

ومن المعروف أن المبالغات من صنع الذكاء ، ولكنها
تبدو أحياناً وفيها نفحة من الفطرة ، كقول ابن الأحنف :

ويا فوزُ لو أبصرتني ما عرفتني

لطول نحولي بمدكم وشحوبي

ففي هذا البيت مبالغة ، ولكن صدق الشاعر في

لوعته يكاد يقنعنا بأنه من صنع الوجدان . وفي هذا المعنى

نفسه يقول الحسين بن مطير الأسدي :

فلو أن ما أبقيت مني معلقٌ

بعود ثم ————— ام ما تأوَدَّ عودها

فانه لا يمتري أحد في أن هذا البيت مصنوع ولكنه

لا يزال رائعاً بفضل ما فيه من أثر الذكاء . وقد سقط

المتنبي حين قال :

كفى بجسمي نحولاً أني رجلٌ

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

لأنه بالغ في استغلال قدرة الذكاء . ومثله قول بعض

المتأخرين :

عاذني مـ———— رضي فلم ير مني

فوق فرش السقام شيئاً يراهُ

قال لي أين أنت ؟ قلتُ التمسني

فبكى حين لم تجدني يداهُ

فهذا شعر قناته الصنعة ، لأن الشاعر لم يهتم إلا

بإعلان ذكائه وتفوقه في تصيد الخيال .

وأين هذا من قول مدرك الشيباني وقد أوحى إليه

الفطرة هذه الأبيات في محاوره من عاده وهو عليل :

أنا في عافية إلا من الشوق إليـكا

أيها العائد ما بي منك لا يخفى عليك

لا تعدّ جسماً وعدّ قلباً رهيناً في يدك

كيف لا يقتل مرشوقٌ بسهمي مقلتيكا

وقد يفهم القارئ مما أسلفنا أننا نُؤثر وحي الفطرة

على صنع الذكاء ، ونحن نرى أن الحال يختلف باختلاف

الموضوعات : فهناك شؤون يجب أن يترك الرأي فيها

للفطرة الخالصة ، وشؤون يترك الإفصاح عنها لعمل العقل .

والأديب المتفوق هو الذي يفرق بين مقتضيات الأحوال :

فلا يخلط بين مقام الفطرة ومقام الذكاء .

ومن أمثلة الخلط بين المقامين قول بعض الوراقين في
شكوى حاله :

« عيشي أضيقُ من محبرة ، وجسمي أدق من
مسطرة ، وجاهي أرق من الزجاج ، ووجهي عند الناس أشد
سواداً من الخبر ، وحظي أحقر من شق القلم ، وبدني أضعف
من قصبه ، وطعامي أمرٌ من العفص ، وسوء الحال ألزم لي
من الصمغ »

فهذه قطعة تدل فقط على أن منشئها من الأذكياء ،
ولكنها — لبعدها عن الفطرة — لا تعطف عليه القلوب .
وإلى القارئ مثلاً من صنع الذكاء الخاص : وقد
وقع أحسن موقع . لأن كاتبه لم يرد إلا إتحاف القارئ
بطائفة من الأخيلاء جمع بعضها إلى بعض في نظام جميل .
وهذا المثال من صنع أبي منصور الثعالبي ، حسب
ما وصلنا إليه ، وقد جمع أهل الصناعات في صعيد واحد .
وأنطقهم بوصف البلاغة عن طريق صناعاتهم^(١)

(١) لهذا الكلام تفصيل في الجزء الأول من كتاب (النثر الفني)

فقال الجوهري : أحسن الكلام نظاماً ما ثقبته يد
الفكرة : ونظمته الفطنة ، ووصل جوهر معانيه في
سموط ألفاظه ، فاحتملته محور الرواة .

وقال العطار : أطيّب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه
بمسك معانيه ففاح نسم نشقه ، وسطعت رائحة عبقه ؛
فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بكبير الفكر ،
وسبكته بمشاعل النظر ، وخلصته من خبث الإطناب ،
فبرز بروز الأبريز ، في معنى وجيز .

وقال الصيرفيّ : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة ،
وجلّته عين الروية ، ووزن بمعيار الفصاحة ، فلا نظر
يزيفه ، ولا سماع يبهرجه .

وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطفّت رفارف ألفاظه ،
وحسنت مطارح معانيه ، فتنزهت في زرايى محاسنه عيون
الناظرين ، وأصاحت لئمارق بهجته آذان السامعين .

وقال الكحال : كما أن الرمد قذى الأبصار ، فكذا

الشبهة قذى البصائر ، فاكحل عين اللسكنة بميل البلاغة
واجلُ رمص الغفلة بمروءة اليقظة .
وهذه فقرات اقتطفناها من ذلك الحديث وهو متمتت
برمته في الجزء الأول من زهر الآداب ، فليرجع إليه
القارئ إن شاء . والمهم هو بيان أن هذا نوع من المران
العقلي يتقبله القارئ بارتياح ، ولا يفض منه أن كان من
أثر الذكاء وحده ، لأن آثار الذكاء هي كذلك مما تشتهي
النفوس .

ولكن هل يمكن الفصلُ بين عمل الفطرة وعمل
الذكاء في الآثار الأدبية ؟
قد يقع ذلك في بعض الأحيان ، وإلا فأبي فطرة
أوحى إلى أبي العلاء وصف الليل والنجوم حين قال :
فكأنني ما قلت والليل طفلٌ
وشباب الظلماء في عنفوانِ

والثريا كوجنة الحبِّ في اللو

نِ وقلبِ المحبِّ في الخفقانِ

ليأتي هذه عروسٌ من الزد

جج عليها قلائدٌ من جُمان

ومن هنا كان ابن المعتز أقرب منه إلى القلوب حين

قال :

زارني والدمجى أحمُّ الحواشي

والثريا في الغرب كالغُنُقودِ

وكان الهلال طوقُ عروسٍ

بات يجلسي على غلائلِ سُد

ليلة الوصل ساعفتني بطولِ

طولِ الله فيك غيظِ الحسودِ

لأن ابن المعتز تأثر بما رأى فكان خياله وليد الفطرة

والذكاء . وعملُ الذكاء قد يرقُّ ويلطِّفُ حين تسري إليه

نفحات الإحساس .

وقد عني الدكتور طه حسين غير مرة بوصف

البواخر والشواطىء والوديان الفرنسية ، فكان يتكلم عن كل أولئك بعبارات بارعة تُعجز المبصرين ، ولكنه لم يقنع القارىء إلا بأنه من الأذكياء ، وكانت أجمل عبارة قرأتها له في هذه الأوصاف قوله :

« وكانت السفينة تاتمس مرساها »

وجمال هذه الجملة يرجع إلى ما فيها من دقة التعبير عن إحساسه بمركات السفينة وهي تواجه الميناء .

وقد زرته مرة في باريس وهو يسكن في فندق يطل على ميدان الأوبسرفتوار فسألته كيف تخير المقام في هذه الضوضاء ، فأجاب : « أنا أحب ضوضاء باريس » !

وعبارة « أنا أحب ضوضاء باريس » أثر من آثار الفطرة الخالصة ، وهذه العبارة لا يدرك القارىء مدلولها تمام الإدراك إلا إن ذكرناه بقول الشريف الرضي :

فأنتني أن أرى الديار بطرفي

فلعلي أرى الديار بسمعي !

وقد جلس بشار بن برد مرة في مجلس فيه نساء ،

فقال لصاحب له : إن فلانة جميلة المضحك ، فقال له
صاحبه : كيف عرفت ذلك ولم تر أسنانها ؟ فأجاب :
إنها تكثر من الضحك ، وفي ذلك دليل على أن ثناياها
عذاب !

وهذه لمحة من لمحات الذكاء عند بشار . وقد عاب
الناس عليه قوله :

إن في برديَّ جسمًا ناعماً —

لو توكتاتٍ عليه لانهم —

لأنه كان جسيم البدن لا يعرف ما النحول ، ولم يتنبهوا

إلى وحي الفطرة في قوله :

لو توكتاتٍ عليه لأهمهم

لأن حاجته إلى عصاً يتوكأ عليها هي التي ساقته

إليه هذا الخيال .

بقي أن نذكر أن هناك آثاراً أدبية نحار في ردها إلى

الأصل الذي نبعت منه لأنها أسمى من أن تخضع لتحليل

النقاد ، فمن ذا الذي يستطيع أن يعين سر الحسن في قول
ابن المعتز :

يا ليلَةَ نسيَ الزمانُ بها
أحداً دأتهُ كوني بلا فجرٍ
باح المساء بيدرهما ووشتُ
فيها الصَّبا بمواقع القطر
ثم انقضت والقلبُ يتبعوها
في حينها سقطت من الدهر

فإن البيت الأخيرُ أعجوبة من أعاجيب الخيال ...
ومن ذا الذي يستطيع الإفصاح عن أسرار الحسن في قول
أبي نواس :

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسمٍ
تغصُّ به عيني ويلفظه وهي
أتت صور الأشياء بيني وبينه
فظني كلاً ظنٍّ وعامي كلاً علم

فطِبُّ بِمُحَدِّثٍ مِنْ حَبِيبٍ مُوَافِقٍ

وَسَاقِيَةٍ بَيْنَ الْمَرَاهِقِ وَالْحُلُمِ

ضَعِيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفُ تَحْسِبُ أَنَّهَا

قَرِيبَةٌ عَهْدُ بِالْإِفَاقَةِ مِنْ سَقَمِ

وَإِنِّي لَأَتِي الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُبْتَغَى

وَتَعْلَمُ قَوْسِي حِينَ أَنْزَعُ مِنْ أَرْمِي

وبعد فهذه إشارات عن أثر الفطرة والذكاء في الأعمال

الأدبية ، تقدمها للقارئ الذي يهمله أن يتامس أسباب

الإيجاد فيما يقرأ من الرسائل والخطب والقصائد ، وهي فيما

نظن بعض الصواب ، إن لم تكن كل الصواب .

باريس في ٥ مارس سنة ١٩٣١

وربما واصف

انتهت حفلة الأربعين ، ومضى كل امرئ لشأنه ،
ولم يبق للأستاذ وربما واصف إلا الذكرى ، فلنقل نحن
هذه الكلمة قبل أن تنتهي المناسبات .

وكلمة (المناسبات) هنا لها معناها ، فإن الشعوب
تنسى كما ينسى الأفراد ، ولا حظاً لامرئ إلا ما قدم من
العمل الصالح . والويل لمن يكتفي من المجد بما يبقى على
ألسنة الناس .

فإن كان القارئ في شك من ملال الشعوب فلنذكر له
المرحوم سعد باشا ، أفيظن أن الصحف ترحب مثلاً بمقال
يكتب اليوم عن ذلك الزعيم ؟ ومع هذا فلنترك سعد باشا
لأنه قريب العهد ، أفيظن أن الصحف ترحب بمقال يكتب
عن محمد فريد أو مصطفى كامل ؟

إن الناس يُشغَلون بساعاتهم الحاضرة ، فمن العبث أن

نطلب منهم ما لا يستطيعون . وجدير بكل مجاهد أن يروض نفسه على العمل في سبيل الله والواجب دون أن يفكر في جزاء الناس ، فان الجزاء منهم قليل .

ويصا واصف معروف من أمد بعيد ، ولكن أول مرة تنبّهت فيها إلى خطره كانت حين وقف في مجلس النواب يدعو إلى الحياة الحرة . وهي الخطبة التي طلب لأجلها صدقي باشا أن يُنص على تقدير النواب لذلك الرأي النبيل ، يوم كان صدقي باشا تحت راية الائتلاف .

ثم أذاعت الجامعة الأمريكية أنه سيخطب في حفلها السنوية في نفس الموضوع « الدعوة إلى الأعمال الحرة » فسارعت إلى استماع خطبته ولكنه لم يرضني كخطيب ، لأن اللحن كان يسبق إليه في بعض التعابير ، مع أنه كان من كبار المفكرين .

ثم مضت الأيام والرجل يزداد شهرة ونباهة ، وكنت أحب أن أراه ، ثم تقع حوائل ، إلى أن تلاقينا في

الليسيه فرانسيه في ربيع سنة ١٩٢٩ عند زيارة الوزير
بوتفو لمصر ، ويومذاك تعارفنا وتصادقنا في سرعة : لأن
نفوسنا كانت مُعدَّة للصداقة ، وكان رحمه الله من أوفى
الأصدقاء .

ثم كان الحادث العظيم حادث تحطيم سلاسل البرلمان
فبلغ الرجل من الشهرة مبلغاً ما كان يخطر له ببال . وقد
اتفق أن رأيتُه بعد ذلك بأيام فوق ظهر الباخرة مريدت باشا ،
وكانت الساعة الرابعة بعد ظهر أول يولييه سنة ٣٠ وأمام
شواطئ كورس ، وكان معي صديقي الأستاذ عزيز ميرشم .
وأذكر أني رأيتُه يوم ذاك في صحة جيدة ، فلم أكتمه أن
حادث تحطيم السلاسل زاد في قوته وجدد في شبابه . وقد
لاحظتُ أن نظراته أمعنّت في التعقيد وصار من الصعب
أن يدرك محدثه من هو ؟ وماذا يريد ؟ وكذلك كان
الرجل توغل في اتهاب محاسن أبي الهول : فهو يتكلم
ويفصح ، ولكنه يظل مكتوم السريرة مجهول الأعماق .
قلت : أنا أريد أن أرسل باسمك حديثاً للبلاغ .

وإذ ذاك انتفض الرجل وقال :

— وماذا تُغني الأحاديث ؟

— تُعظِّمُ بها سلسلة جديدة ، يساعد الرئيس .

— سلسلة جديدة ؟

— نعم سلسلة جديدة ، فان ميدان الجهاد لا يزال

ينتظر الأبطال ، وليس بعد سلاسل يونه إلا سلاسل يوليه .

ولم أكد أتم هذه العبارة حتى خرج الرجل عن

وقاره وقال :

ليس المهم أن نُحطِّمُ سلسلة وضعتها الحكومة .

إنما المهم أن تقوى الأمة حتى يكون لها من الرهبة ما يمنع

الحكومات اللاعبة من التفكك بمثل تلك الألاعيب !

لقد آن الأوان لأن نهدف عزائمتنا ونسهر على تربية الأمة

وتكوينها تكويناً صحيحاً من الوجهة العلمية والأخلاقية

والسياسية ، ولا يليق بنا أن نظل هكذا عرضة لتقلبات

الظروف ، ولا ينبغي لسااستنا وذوي الرأي فينا أن

يطمئنوا إلى أن الجمهور أصبح يتابع الحركة الوطنية ، فان

هذا وحده لا يكفي ، وليس للوطني أن يطمئن إلا في اليوم الذي تصبح فيه الأمة على يقين لا يشوبه أدنى شك بأن الاستقلال ضرورة من ضرورات الحياة . وأن من العار والصغار أن يرضى الرجل بأن تكون أمته أمة محكومة مستعبدة ولو أغرقها مستعبدوها في الترف والنعيم . ولقد مضى الزمن الذي كنا نعدّد فيه مزايا الحرية ومساوىء الاسترقاق ؛ ولم يبق إلا أن نفكر جدياً في قطع دابر ذلك. التواكل المقوت الذي جعل من أمة مبددة الشمل مفككة الأواصر . لا تفكر في حقوقها إلا في فترات متقطعة ، ثم تعود للخمول .

قلت : يظهر أن سعادة الرئيس متشائم ؛ مع أن الظواهر كما تدل على أن الأمة حية وأنها حريصة على حريتها أشد الحرص .

فأجاب : آسف لأن إصارك بأن الأمة لا تزال مقصرة ، ولو أنها عرفت حق المعرفة أنه لا قيمة للحياة بغير الاستقلال لتغير الموقف ولما كان التغيير والتبديل

يأتي من مصادر أجنبية بعيدة عن إرادتها كل البعد ، ولما
وُجد فيها من يسخر منها كلما بدا له أن يعبت أو أن
يسخر غيره للبعث بكرامتها وسلطانها وهي مصدر ما يملك
مدعو حبا من كرامة وسلطان .

عندئذ قال الأستاذ عزيز ميرهم : لا ينبغي أن نبتئس
ما دمنا نرى الظروف تخدم الحرية وتأخذ بيد الشعب إلى
صفوف العزة والكرامة ، ألم تغير نهضة سنة ١٩١٩ معالم
الحياة المصرية في وقت ظن فيه الغاصبون أنه لم يبق في
الأمّة رجل رشيد ولم تبق فيها المظالم المتتابة نزعاً من
نزعات الإيذاء ؟

وحدث تحطيم السلاسل ، من الذي فكر فيه ؟
ألم يظهر لوقته ولحظاته بدون روية وكأنه في وجه المستبدين
أجل مفاجيء أو طاعون مبيد ؟

قلت : يسرني أن يكون هذا رأي رئيس مجلس
النواب ، فأنا لا أحب لمثله أن يرضى بما ليس فيه الرضا ،
فكيف والامّة لا تزال في يد غيرها وهي سليلة من أقاموا

دعائم الملك المنظم يوم كانت الأمم الأخرى غارقة في بحار
الهمجية .

ولكن حدثني ، ياسعادة الرئيس ، عن شعورك يوم
تخطيم السلاسل .
فأجاب :

أنا عمري ما خفت ولا جبننت ، ولقد صدر الأمر
باعتقالي وأنا أترافع في قضية والبوليس ينتظرنني ، فما
ترددت ولا تلعثمت ، ولا نددتني غرض أرمي إليه ،
ولا شردت مني كلمة أطلبها ، ولا لاحظ جمهور الحاضرين
أنني تغيرت أو تلفت ، ولكنني يوم حادث البرلمان ووجدت
في مازق ضيق حين سألتني بوليس البرلمان : ماذا يكون
الحال لو أرسلت لنا الحكومة قوة مسلحة ؟ فأجبته بدون
تردد : « إدفع القوة بالقوة » وأنا أعلم أنني أشير بأمر خطير .
ومع هذا ما قيمة تخطيم السلاسل مادمننا لا نطمئن إلى
أن للأمة من الرهبة والسايطان ما يزعزع أمل الرجعيين
ويقوض أحلام الطامعين .

فعدت أنا والأستاذ عزيز ميرهم نظمئنه فقال .
لا تحسبوا أني يائس ، فأنا أعلم أن الأمة لها وجود
قوي متين ، وسنرى يوم الشدة أنها عند ظننا ، وأنها
ستري الحكومة أن كلمة الشعب هي العليا ، وأن الحكومة
التي لا تخضع لإرادة الأمة مقضي عليها بالخذلان . غير أني
مع هذا أرتاب في أن يفهم كل مصري أن الموت خير
من العبودية ، وأن الشرف هو الرزق الأعظم ، ولا رزق
لرجل رضي بأن يكون من العبيد ، ولو كانت قيوده
من ذهب وأغلاله من حرير .

قال هذه الكلمات ثم مضى لا يلوي على شيء .

وعدت أنا والأستاذ عزيز ميرهم نتجاذب أطراف
الحديث ونتطلع إلى شواطئ كورس ، وبعد لحظة عاد
إلينا الأستاذ ويصا واصف وقال : أصبح أنك ستترسل
ما سمعته مني إلى البلاغ ؟

قلت : نعم !

فقال : اكتبه مطلقاً جداً : وإلا فانك ستضطرنني إلى تكذيبه .

قلت : سأكتب ما سمعت : ولك أن تكذب حين تشاء !

فقال : أنت رجل لا يُحتمل !

قلت : ومع ذلك حملتني السفينة !

ثم تركنا مرة ثانية . وعاد الأستاذ عزيز ميرهم بروجوني أن أكتب الحديث وأن أطلععه عليه قبل أن نفترق ، ولكنني أجبتُه بأني لا أستطيع أن أدون شيئاً فوق ظهر الباخرة : لأن صحتي تعاني بعض الانحراف .

ثم دونت الحديث بدون أن أطلععه عليه وأرسلته للبلاغ ، وظلمت أنتظر وصول الجريدة لأقدم إليه نسخة منه ، ولكنها لم تصل ، لأن الوزير صدقي كان عطفاً إشفاقاً على المحررين من العمل في الصيف ، وكان قد سمع أن الأستاذ عبد القادر حمزة يكلف زملاءه في التحرير ما لا يطيقون !

ولكن اتفق أني لقيت الأستاذ ويصا واصف
مصادفةً في باريس فأخبرني أنه اطلمع على الحديث مترجماً
في الليبرتيه .

فقلت : وهل أرسلت التكذيب ؟

فأجاب : وكيف أكذبك وأنت لم تُردِّ إلا إذكاء
نار العزيمة في صدور المصريين ؟

وكانت آخر مرة لقيت فيها ذلك الرجل النبيل .

ويمرّ الآن بالبال العنوان الذي وضعه الشاعر خليل
مطران لقصيدته في رثاء أم المحسنين وهو :

« آخر تحية لآخر عودة »

ويعزّ عليّ أن أُحرّم مودة ذلك الرجل فعهدني به رحمه
الله كان يذهب إلى الليسيه فرانسيه ليتعرف أخبار أبنائه
هناك ، ثم كان لا ينصرف حتى يفكر في مقابلاتي .

ففي ذمة الله تلك الصداقة القصيرة التي عصفت بها
الأيام ، ورحمة الله على أول قبطنيّ قال : أنا مصريّ فقط

تم انضم إلى الحركة الوطنية في عهد مصطفى كامل
ولأجل ذلك كان أيضاً أول قبطني مشى الشعب
كله في جنازته . أليس ذلك برهاناً على أن الله لا يضيع
أجر من أحسن عملاً ؟

٩ يولييه سنة ١٩٣١

الإخلاق عند الضعفاء

أظهر ما يميّز الرجال فهمهم للأخلاق .
والأخلاق نوعان : أخلاق إيجابية وأخلاق سلبية ؛
ولهذين النوعين حقائق نافعة وظاهر براق ، والحقائق من
حظوظ الأقوياء ، أما المظاهر فهي من حظوظ الضعفاء .
وإني لأذكر أنه حين اشتجر الخلاف بيننا وبين
الطلليان على جغبوب في وزارة زيور باشا كنت في منزل
أحد المشاهير من المصريين الذين يفهمون كثيراً ولكنهم
لا يتذوقون ما يفهمون ، وكان لذلك الرجل الشهير مكتبة
غنية بمراجع التاريخ وتقويم البلدان ، فدّ يده فأخرج أطلساً
كبيراً ، ثم أخرج منه خريطة أفريقيا الشمالية ، وبعد أن
تأمل طويلاً قال :

« أنظر ، أنظر ، هذه جغبوب . ألا ترى أنها أقرب

جغرافياً إلي مستعمرة الطليان ؟ » .

وبذلك علم الرجل نفسه والتمس المعذرة لوزارته
الضعيفة . ولو أنه تأمل قليلاً لعرف أن الظليان هم الأجانب
هناك . ولكنه رجل ضعيف يتمسك « بالعدل » في
الحدود التي يفهمها الضعفاء . فالخريطة واحدة للجميع ،
وهي عادلة للجميع ، ولكن « العدل » يدعو القوي إلى
السيطرة والفتح ، على حين ينظر الضعيف إلى « العدل »
فيؤثر الاستكائة والخشوع .

ومنذ أيام لقيت أحد أساتذة كلية العلوم فسألته عما
نُشر في البلاغ عن التعليم بالعربية لا الانجليزية ، راجياً
أن يكون الرجل استفاد من ملاحظات الجمهور الغاضب
من صبغ كلية العلوم بالصبغة الانجليزية . ولكن الرجل
انفعل وقال : « أتم يا أخي تنظرون إلى المسألة من جهة
قومية » !

وكان ذلك هو الجواب المقنع الذي اطمأن إليه المصري
المتجملز الذي عامه أساتذته أن العلم شيء والقومية نبيء
آخر ، وهي والله فلسفة تدل على نظر بعيد !

والذي يهمني هنا أن أدل القارئ على أن المسألة لا تزال
مسألة أخلاق ، ولا يزال الخلق الطيب موضع نزاع بين
الأقوياء والضعفاء : فالأقوياء يرون أن الكرامة هي في
المحافظة على القومية ، أما الضعفاء فيتفلسفون ويرون أن
المحافظة على القومية لون من ألوان المهجبة لا يليق على
الأقل بالقرن العشرين !

ولن أنسى ماحييت أني حضرت مؤتمر اللغات الحية
في باريس ، وكان المؤتمرون قد اتفقوا على أن يتكلموا
الفرنسية في محاوراتهم إكراماً لمقرّ المؤتمر وهو السوربون ،
فما جاء دور مندوب ألمانيا قام فتكلم بالألمانية فصاح
الحاضرون محتجين فأجاب في هدوء : « سأترجم لكم الخطبة
بعد أن أؤديها بلغتي » .

ومع هذا العناد لم يتهمه أحدٌ بالمهجبة ولكنهم
عذروه حين آثر المحافظة على القومية .

فيا فلاسفة العصر في وادي النيل . . . تذكروا أن
« القومية » هي كذلك فلسفة مشرّفةٍ محرص عليها

أمثال أولئك الجرمان الذين يريدون أن تكون «ألمانيا
فوق الجميع» .

وبعد فلکم أن تتفلسفوا كيف تشاءون ؛ ولكن
احذروا أن تُؤثروا فلسفة الضعفاء .

٣ ديسمبر سنة ١٩٣١

الآداب الباقية

كنت بينت للخصم الشريف سلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب إليه من الدعوة إلى الإقلال من العناية بالأدب العربي ، وكانت حجتي أنه يُعنى بالأدب الفرعوني مع أنه أدب مُوغِلٌ في القدم ، وأن الأستاذ عبد القادر حمزة يبذل جهوداً عنيفة في شرح الأساطير الفرعونية ، ولم يقل أحد إنه يضيع وقته فيما لا يفيد ، فكيف يلام رجلٌ مثلي إذا قصرَ عمره على درس الأدب العربي ، مع أنه أدبٌ حيٌّ لا يزال يسيطر على أذواق الناس في المشرق والمغرب ، وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التي تلقت الإسلام ونشرته في العالمين .

وللباحث أن يؤمن بالاسلام وأن لا يؤمن ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن الإسلام يسيطر على كثير من الشعوب ، والباحث لا مفرَّ له من درس اللغة التي أُدِّيتُ

بها مذاهب ذلك الدين ، وهو يفعل ذلك علماً إن لم يفعله
تديناً ، أي أنه لا مندوحة من درس أصول ذلك الدين من
النواحي اللغوية والتشريعية ، والمسلم وغير المسلم في ذلك
سواء ، لأن العلم لا يوجب علي العالم أن يؤمن بالاسلام
قبل أن يدرس الاسلام ، ولا يفرض عليه أن يعتنق
المسيحية قبل أن يدرس المسيحية ، وإنما يأتي الايمان بعد
الدرس : وقد لا يأتي أبداً ، فما أحسب صديقي سلامة موسى
سيُسلم وإن سبق الناس إلى فهم القرآن !

وأعود اليوم فأقرر أن لدراسة الأدب العربي غايات
أخرى غير تلك الغايات الدينية ، وأبدأ فأنقض حجة
الأستاذ سلامة موسى إذ يرى أن غاية الأدب هي توجيه
الحياة الاجتماعية ، وأن الأدب الحديث أنفع دائماً من
الأدب القديم : لأنه أقرب ولأنه يصاح الحياة التي نعيشها
تمام العيش ، أما الأدب القديم فيتحدث عن حياة مضت
وانقضت ، ولم يبق ما يوجب أن تتلفت إلى ما كان فيها
من محاسن وعيوب .

ماذا تريدُ أيها الصديق ؟

أتحسب أن الأدب لا غاية له إلا توجيهه الحياة

الاجتماعية ؟

عدّ عن هذا ، فالأدب كما يكون ضرباً من الإصلاح ،

يكون نوعاً من الوصف ، وهو وثيقة تسجّل فيها مظاهر

الحياة الاجتماعية ، وقد يصير دستوراً تخضع له الحياة

الاجتماعية .

فإن كنت في ريب من ذلك فراجع كتب الأدب

في القديم والحديث وستراها سجلاّت دُوّنت فيها أزمات

القلوب والنفوس والعقول ، ستراها نماذج وصفية قبل أن

تراها شرائع وقوانين .

والفرق عظيم بين الأدب وبين التشريع ، فإن التشريع

يرسّم حدود المعاملات وفاقاً لما اطمأن إليه الناس في فهم

الحقوق والواجبات . أما الأدب فيصور الألم من القبح

والدمامة في المحسوسات والمعقولات ، ويصوّر النماذج

العالية التي يصبو إليها الكتاب والشعراء .

فرجل القانون يعيش في عالم الواقع ، أما الأديب
فيعيش في عالم المثال ، رجل القانون يعيش في أجواء
يَحُدُّهَا الضَّرُّ وَالنَّفْعُ ، أما الأديب فله وثبات وبدوات
لا يدركها إلا المصطفون الأبرار من أهل الأرواح .

والكتّاب الاجتماعيون يعيشون في عالم الواقع كما
يعيش رجال القوانين ، ولذلك نراهم يهتمون بشؤون لا يلتفت
إليها أحد من الشعراء ، والأستاذ سلامة موسى كاتب
اجتماعي وليس بأديب ، واللغة عنده ليست إلا أداة تفاهم ،
وكل تأنق في العبارة والأسلوب يبدو لعينيه وكأنه لغو
وإسراف ، والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأساً مثل
رأس الأستاذ سلامة موسى : وهل في الأدب القديم
جنهات وبورصات وصناعات واقتصاديات حتى يهتم به
هذا الصديق الذي يضع على عينيه نظارة من ورق
البنكوت ؟

أما الأديب — وارجمته للأديب ! — فهو إنسان
لا يعرف غير عالم المعاني ، وليس للدنيا في نفسه حدود

ولا تواريخ ، فهو يتامس الحكمة حيث وقعت ، الحكمة الجميلة التي تحمل طابع الحق والخير والجمال .

والذي ينظر إلى الدنيا بعين الاقتصاد لا يستطيع أن يفهم ذوق الأديب ، فالعباس بن الأحنف هو عند أهل الاقتصاد محنون : لأنه قضى عمره يتغنى بمحبوبة واحدة قصر عليها فنه وهواه . وعمر بن أبي ربيعة مخبول : لأنه لم يكن يحلم بغير مناسك الحج ، ولم تكن تلك المناسك في قلبه إلا معالم فتنة وملاعب شباب . وميسيه أحمق : لأن باريس لم تكن في نفسه إلا مطارح صباية ، ومنازل هواء ، ومراتع فتون .

ولكن هؤلاء المجانين فيما يرى الاقتصاديون هم عندنا أعقل العقلاء ، ومجموعة ميسيه في الشعر والتقصص أحب إلى قلبي مما تحتويه خزائن البنك الأهلي ، وبيت من ديوان المتنبّي أعزُّ على نفسي من بيت في الزمالك وهي روضة البحرين . ولا أنكر أنني أجازف حين أرمي بمثل هذا القول ، ولكنني أعرف أنني وقعت غير مرة في مثل هذا

الطيش : فقد بعث ساعتى وملايىسى وأنا فى باريس لأقتنى كتاباً نادراً هو ترجمة دي ساسى للتوراة ، وفى سنة ١٩١٥ تحدث الناس أن القاهرة فى خطر وأن الألمان سيقذفونها بالمبلىكات ، فلم أخف يوماً إلا على مكتبتي فنقلتها إلى ستريس ، وعدت إلى القاهرة فى طمأنينة ، كأن نفسى لاهمني ، وإنما يهمني أن تعيش مكتبتي وأن تحيا فيها أرواح الكتاب والشعراء .

وليس معنى ذلك أن الأديب لا يعرف قيمة المال ، أو أنه شخص مجذوب لا تستهويه إلا بوارق الخيال ، لا : إن الأديب قد يعرف أخطار المنافع المادية ، ولكنه ينظر إليها نظرة المأخوذ بما فيها من القدرة على تلوين الوجود ، والأديب حين يمر على البنك الأهلى يتمثل ما فى المال من سحر وطغيان ، فهو يذل الكرام ويعز اللئام . وهو الذى يرفع ويضع ، ويقدم ويؤخر ، ويكرم ويهين ، وهو الذى يؤجج نار الحرب حين يشاء ، ويضع قواعد السلم حين يشاء ، وبفضله تصان أعراض ، وتُدال أعراض ، وباسمه

تَقْضُ مضاجع وتهداً جنوب ، ولولا المال لتساوى الناس فلم
يكن فيهم وضيع ولا رفيع . وأكثرُ القيمِ المعنوية لا تخلقها
فضائل العقل والوجدان ، وإنما يخلقها المال الذي يستطيع أن
يجعل من العجوز الخيزبون عروساً حسناء !

وخلاصة القول أن الأديب ينظر إلى المصارف المالية
نظرة شعرية ، ويتمثلها خياله على نحو من السيطرة والجروت
قد لا يرتقي إليها علماء الاقتصاد .

مالي ولكل هذا؟ الذي يهمني هو أن أقرر أن الأديب
لا يشوقه غير المعاني ، وهو من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود
التاريخية ولا الجغرافية ، وهو لا يُعنى بالمشاكل إلا من
الوجهة الإنسانية ، أما الأوضاع الاجتماعية فوقفه منها
موقف الوصاف الذي يشرح المحاسن والعيوب . والأديب
ليس دائماً من الحكماء ، وإنما هو فنان ينتفع بمظاهر الرشد
والغبي ، والبر والفجور ، والجد والمجون .

وهذا لا يمنع أن يكون الأديب من أهل الكفاح
Homme d'action وهو حين يكفح يصبح قوةً خطيرةً في

الحياة الاجتماعية ، لأنه يحلق دائماً في الأجواء العالية ، ولا يقنع بالقليل . وتمتاز الحياة العربية بكثرة من ظهر فيها من الأدباء المكافحين : فقد كان امرؤ القيس وأبو فراس والمتنبي وابن العميد من رجال الكفاح ، وكان أئمة النثر الفني في دواوين الانشاء من أهل الكفاح : وكانوا يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية ، ولكنهم كانوا مع هذا نماذج من الخرق والطيش في عالم الاقتصاد . إذ كانوا يتسابقون في ميادين التبذير والاسراف ، وكانت العنويّات هي التي تسيطر على أذواقهم وعقولهم فلم يتركوا شيئاً يدل على تعمق في فهم أصول المعاش . والذي لا مِريّة فيه أن الأدباء لا يخلون من انحراف ، وقليلٌ منهم من يوصف باعتدال المزاج ، ولكن ذلك الانحراف هو أصل تلك العبقرية التي تبني وتهدم . وتأسو وتجرح ، وهم حين يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية يرفعون عنها آصار البلادة والخمود ، ولولا أهل الأدب من كتّاب الصحف والمجلات لأصبحت حياة الناس تجري على وضع

رتيب لا يقظة فيه ولا إحساس ، فهم على ما فيهم من
عيوب مباح هذه الدنيا ، ولا يطيب في غيبتهم عيش ،
ولا يجمل بدونهم وجود .

ومن طبيعة الأدباء أن تضيق عليهم دنياهم فلا يجدون
فيها كفايتهم الروحية والعقلية من ذخائر المعاني ، فهم أبدأً
متنقلون بالفكر والخيال من أرض إلى أرض ، ومن عهد
إلى عهد ، ولا يعلم إلا الله كيف فطرت تلك النفوس
التي لا تفرق بين قديم وحديث ، وإنما تعشق المعنى
الأصيل ، ولا يهمها أن تعرف أين يقع من التاريخ .

وبفضل تلك الفطرة الذوقية تحيا آداب وفنون تطاول
عليها الزمان . وما الذي يروع الناس من خرائب الكرنك
ومقابر وادي الملوك ؟ وما هي قيمة الأهرام حين تنظر
إليها بعين العقل ؟ إن القناطر الخيرية أجمل من الأهرام
وأفنع . ولكنها لا تجذب أحداً من المتشوفين للنفائس ،
لأنها بنت الأمس ، ولأنها بنيت في سبيل النفع ، ولم
يلحظ فيها أن تكون مَشْرِقاً من مشارق الفن الجميل ، أما

الأهرام فمرآد سحر وفتون ، ولها في قلوب المتشوفين منزلة عالية ، لأن الذين بنوها فكروا في معنى شعري بديع هو معنى الخلود .

ولو نظرنا إلى الأهرام بعين الاقتصاد أو بعين سلامة موسى لرأيناها سبباً في تاريخ مصر ، والفراعنة الذين بنوها فعلوا ما فعلوا في غيبة البرلمان ، في عهد « نسيم » ذلك الزمان ، وإلا فكيف يمكن حكومة برلمانية أن ترضى بتسخير الفلاحين جميعاً في إقامة بناء لا تدخله شمس ولا هواء ، ولا يصلح إلا للأموات ؟

ومع هذا فن ذا الذي ينكر أن الأهرام من بقية السحر في مصر ، وأنها عنوان ما كان في هذا الوادي من عناصر القوة في الأبدان والعقول والأذواق ؟

الأهرام بنيت بفضل الظلم والطغيان ، ولكن للشعر فيها مواقف ، وللهوى إلى منادحها نزاع^(١) ، وما يصنع

(١) النزاع : هو الشوق .

من أموال الناس وأرواحهم في بناء الأهرام لا يساوي
قبلةً مختارةً ينهبها شاعرٌ من محبوبته في رحاب تلك
الصروح السماء .

أقول هذا وأستغفر الله لمن ينتهبون القبالات في ذلك
الحرم الأمين !

١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥

في فقد اللغته

أثار الباحث المفضل الأستاذ محمد مسعود مشكاة لغوية في جريدة الأهرام حول كلمة « فيلق » التي يكتبها الصحفيون مذكرة فيقولون « الفيلق الرابع » ويريدوا الأستاذ مؤنثة فيقال « الفيلق الخامسة » وقد اهتم فريق من المتأدبين بمناصرة الأستاذ وأضافوا إلى بيناته شواهد تثبت وجوب التأنيث موافقةً لمن أنشأها من الشعراء الأقدمين .

وأريد في هذه الكلمة القصيرة أن أوجه نظر الأستاذ إلى أن تأنيث كلمة « فيلق » لا يتفق مع روح اللغة ، لأن الكلمة مأخوذة من الفلق بمعنى الشق والقطع وكل ما ورد من الكلمات العربية على وزن « فيعل » مذكور قصد به المبالغة في المعنى ، ومن ذلك ضيغم وفيصل ونيرب وصيقل وفيثن وحيدر وعيلم وخيبر وفيخر وعيلم

وحيدر وفيكرو وفيقر . ويلحق بهذه الكلمات ما جاء على وزن « فَوَعَل » مثل صومل وجوهر وكوثر وهودج وحومل وشوخط وكوكب وكودن ولولب .

ويؤكد تذكير ما جاء على وزن « فيعل » أن التاء تضاف إليه في المؤنث فيقال في نيرب نيربة وفي حيدر حيدرة ، إلى آخر ما نصت عليه المعاجم ، وإضافة التاء للتأنيث دليل على أن المجرد منها أصيل في التذكير .

ولنلاحظ أن فيلق ورد مفسراً بالجيش في المختار والقاموس . وأضاف الفيروزآبادي أن الفيلق الرجل العظيم ، وهذا صريح في أن الكلمة تداولتها المعاجم بالتذكير والتأنيث ، ولم تنص على التأنيث وحده كما يظن الأستاذ محمد مسعود .

قلنا إن ما جاء على وزن « فيعل » غلب عليه التذكير فلننصف إلى ذلك أن ورود كلمة « فيلق » مؤنثة في بعض الشواهد لا يخرج عن أحد أمرين : فهو إما أن يكون بمعنى الكتيبة وإذا ذلك تؤنث مراعاة للمعنى ، وإما أن

يكون لحناً سبق إلى السنة شعراء الجاهلية ، لأن الجاهليين أيضاً يلحنون ، وإن استبعد ناسٌ ذلك . وورود كلمة فيلق مذكرةً في صحفنا وعلى السنننا يؤكد ما كتبته مرة في مناقشة الأستاذ عباس الجمل من أن اللغة تسير طوعاً للفطرة إلى موافقة القياس .

والواقع أن الشذوذ لا يكثر في اللغات إلا في عهد الطفولة ولكنها حين تقوى وتستبحر يطرّد فيها القياس ويعود الشاذ والمسموع من المهجورات ، فلا ينبغي لنا إذن أن نذكر الكتاب بالشواذ التي أثيرت عن شعراء الجاهلية ، لأن في ذلك محاربةً للنموّ والقوة ، وإنما يجب أن نقوم الأغلط التي تصرف الكتاب عن مسأرة التطور المقبول .

على أن كلمة « فيلق » إن وردت مؤنثة في كلام القدماء مرة أو مرتين فقد سرت في كلامنا مذكرةً ألف مرة ، ولسنا أقل من أعراب البادية شعوراً باللغة

ولا أقلّ إدراكاً لما يمتُّور الألفاظ من التذكير والتأنيث
ووفقاً لما تخضع له من تلوّن المدلول . . . ونحن عربٌ
بالفطرة ، وإن لم نشهد مراتب الشيخ والقيصوم (١)

١١ ذى القعدة سنة ١٣٥٠

(١) من المؤكد أن الأديب المصرى أكثر انطباعاً على اللغة العربية من العرب
أنفسهم ، لأنها وصلت إلى دمه وروحه منذ أجيال طوال ، ولأنها أصبحت عنده
لغة علم ومدنية ، فهو يعبر بها عن مقاصد وأغراض لم يعرفها العرب القدماء .

حجازيات الشريف الرضى

- أين نحن من الليل ؟
- أي ليل تعني ، يا صاح ؟ !
- ليل هذا الزمان !
- أنت إذن تعني الليل البهيم ؟
- وما البهيم ؟
- كان يجب أن تفهم و أن لا تحتاج إلى إيضاح :
- أما تعرف قول الشاعر :
- أعني على الليل البهيم فانه على كل عين لا تنام طويلاً
- أعرف هذا البيت ولكنه كان لعهد معرقتي به
- حالياً من كلمة « البهيم »
- أنا الذي حولته إلى هذا الوضع ليألف مع
- ليل الزمان ؟
- وما هو الأرق في مثل هذا الليل ؟

— هو يا صديقي وصل الأحزان بالأحزان والمهموم
بالمهموم ، في الأزمان التي يكون فيها الفقر علامةً لكرام
الناس .

— وما عسى أن تكون الغفوات للمحزونين في مثل
ذلك الليل ؟

— هي البلاده الذهنيه والروحيه التي تُنسي الرجل
أشجان الرجال !

— فهمت ! ولكن ماذا عسى أن يصنع من يكرُم
عليه قلبه وعقله فلا يتبدل بتبدل الأغفال ؟

— يلتمس من يعينه على الليل البهيم !

— وكيف يكون العون في مثل هذه الحال ؟

— للكرام ، يا صديقي ، ألوان من العُلالات ، وخير

ما أتعلل به حين يطول الأرق في ليل الزمان هو الاغتباق

بأكواب الشعر الجميل . . . إليك المكتبة فان شئت

كلّفت خاطرك — كما يعبر بعض الناس — نخطوت خطوات

إلى الصّوان الخاص بدواوين الشعراء .

- البحري ، أبو تمام ، ابن المعتز . . .
- هات ديوان الشاعر الذي يودع الباخرة « زمزم »
- وهل كان القدماء يعرفون الباخرة « زمزم » ؟
- كانوا يعرفونها ، وكانت تسمى لعهدهم « سفينة الصحراء »

— شيء عجيب !

— العجيب هو أن لا تعرف ذلك !

•••

دعتني إدارة الباخرة زمزم للعبور من الاسكندرية إلى بور سعيد ، فلبيت الدعوة ثم تخلفتُ : لأن البحر يخيفني أعنف الخوف ، ولست أخاف الغرق فان أشرف الأكراف عندي هو الماء الأجاج ، ولكني أخشى الدُّوَار الذي عانيتُ أهواله عشرات المرات في عبور بحر « العرب » من الاسكندرية إلى مرسيلا ، فقد كنت في كل مرة أتمنى لو تَقَطَّعَ بيني وبين البحر أسباب اللقاء ، لا قدر الله ولا سمح ! وكانت هذه الدعوة الكريمة مما لَفَّتَ النفس إلى

صورة موسم الحج في أنفـس الشعراء القدماء ، وكنت فيما سلف شغلتُ نفسي بتأوين هذه الصورة حين ألّفت كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » ثم عدت فتذكرت أن للشاعر عمر بن أبي ربيعة خليفة قرشياً هو الشريف الرضي : إمام شعراء الوجدان في القرن الرابع .
ومن الحديث المعاد أن أتكلم عن ابن أبي ربيعة في هذا الفصل الذي أكتبه للبلاغ ، فليكن حديثي عن الرجل المهيّب الجليل الورع العفيف الشهم الذي لم تمنعه هيئته ولا جلالته ولا ورعه ولا عفّته عن تدوين النوازع الوجدانية التي كان يفيض بها قلبه أيام الحجيج .

كانت إلى الشريف الرضي إمارة الحج فاتفق له بذلك أن يشهد الموسم شهود النبلاء ، وكان موسم الحج عند القدماء يجمع بين فرصتين : الفرصة الدينية التي تؤدّى فيها الفريضة ، والفرصة الاجتماعية والوجدانية التي يتعرف بها الرجل إلى أعيان الناس ويمتّع عينه وقلبه بما يُحشّر في موسم الحج من ألوان الجمال ، ولنتذكر أن ذلك وقع يوم

كان العرب يجمعون بين التقى والفتوة ، ويصلون بين الدنيا والدين ، ومثلهم في ذلك مثل أهل أوروبا في العصر الحديث : ففي أوروبا لعهدنا هذا مواسم للحج يذهب إليها المتقون تدينًا ، ويזורها الشعراء تظرفًا ، فيجد فيها أولئك وهؤلاء مُتعة العين ومُتعة الروح .

فلا يحسب بعض القراء أن إشراف الشريف الرضي في وصف ما اجترحت عينه أيام الحج خروجًا على وقار تلك الأرض المقدسة ، هيات ، فلو كان ذلك مما يُغض من قدره لما تيسر له أن يتولى إمارة الحج ، وأن يتولى نقابة الأشراف ، وأن يجد من يرشحه للخلافة الإسلامية . . . إنه لا مفر من الاقتناع بأن صورة الدين تختلف في أذهان الناس باختلاف ما هم عليه من قوة وضعف ، ونباهة وخمول . ومن الحق أن تقرر أن الناس لا تكثر وساوسهم في فهم الدين إلا في العصور التي يضعف فيها الدين ، ومثلهم في هذا مثل العليل لا يكثر تفكيره فيما يضر وما ينفع إلا حين تهجم العلة ويعزّ الشفاء . أما الصحيح فلا يفكر فيما يأتي

وما يدع ، لأن العافية تُنسيه عواقب الإفراط في الطعام
والشراب .

فيا أيها القارئ المتحفظ ، لا تظن أن الشريف الرضي
كان رقيق الدين ولكن تذكر أن الغزل والتشبيب علامة
العافية والفتوة ، وتذكر قبل كل شيء أنه رجل قرشي ،
وأن القرشيين كانوا معروفين بوثبات العزائم ، وصبوات
القلوب (١)

(١) هذه القطعة مقدمة لمقالات نشرها الكاتب في البلاغ (مارس سنة ١٩٣٤)
ثم اتفق للكاتب أن ينظر في حجازيات الشريف نظرة ثانية وأن يكتبها بصورة جديدة
وهو في بغداد سنة ١٩٣٨ بحيث صارت ركناً من كتاب «عبقرية الشريف الرضي»

ملاحظات اى بيته ولغوية

بس !

بس° : كلمة مستعملة في لغة التخاطب ، ولكنها متروكة في اللغة الأدبية ، وهي مع ذلك من الكلمات التي عرفتها المعاجم ، وقد عثرت في بعض كتب الأدب على شاهد طريف لهذه الكلمة ، إذ حدث بعض العلماء وقد تزوج : لما حملت المرأة إليّ جلست في بعض الأيام على العادة أكتب شيئاً والمخبرة بين يديّ ، فجاءت أمها فأخذت المخبرة فلم أشعر بها حتى ضربت بها الأرض وكسرتها . فقلت لها في ذلك فقالت : بس ! هذه شرّ على ابنتي

من ثلثائة ضرة !

جواب شاعر :

قال بعض الشعراء في وصف الصبياء :

حمرء مثل دم الغزال وتارة

بعد المزاج تخالها زريابا

وإذا المزاج علاً فشجَّ جبينها

نفتتُ بألسنة المزاج حباباً

فاستدعاه المهديُّ وقال : لقد وصفتَ الخمر فأحسنت

في وصفها إحسان من شربها ، وقد استحققت الحد ! فقال

الشاعر : أيؤمّني أمير المؤمنين حتى أتكلم بحجتي ؟ قال :

قد أمّنتك . فقال : وما يدريك ، يا أمير المؤمنين ، أني

أجدت وصفها ، إن كنت لا تعرفها ؟ فقال المهدي :

أعزب ، قبّحك الله !

مزوك النعل بالنعل :

عرفنا هذا التعبير في شعر عمر بن أبي ربيعة حين

قال :

قلما توافقنا عرفتُ الذي بها

كمثل الذي بي حدّوك النعل بالنعل

ثم رأيناه بعد ذلك في كلام رواه الأصمعي إذ قال :

مررت بالبادية على رأس برّ وإذا على رأسه جوار ، وإذا

واحدة منهن كأنها البدر ، فوقعتُ عليّ الرعدة ، وقلت :

يا أحسن الناس إنساناً وأملحهم

هل باشتكأني إليك الحب من ياس

فبيدي لي بقول غير ذي خلف

أبالصريمة نمضي عنك أم ياس

قال : فرفعت رأسها وقالت لي : إخساً ! فوقع في

قلبي مثل حجر الغضا ، فانصرفت عنها وأنا حزين . ثم

رجعت فاذا هي على رأس البئر فقالت :

هلمَّ نَمَحْ الذي قد كان أوله

وَنُحِدْ الآن إقبالاً من الراس

حتى نكون ثبيراً في مودتنا

مثل الذي يحتذي نعلاً بمقياس

والشاهد في الشطر الأخير . وأذكر أنني ذهبت

لزيرة قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد في ديسمبر

سنة ١٩٢٠ فوقف الدكتور محبوب ثابت يخطب فقال :

لقد عرفت فريداً يوم كان يلزم مصطفي باشا كامل حدوك

النعل بالنعل .

وكانت هفوة : فقد ظن الدكتور محبوب أن كل ما ورد في الشعر القديم يمكن الانتفاع به في خطب هذا الزمان .

طغيان الفناء :

سورة الضعيف مرهوبة مخوفة ، ولذلك قال الشاعر

في وصف الحجر :

وضعيفة فاذا أصابت فرصة

فتكت كذلك سورة الضعفاء

والمرأة ضعيفة ، ولكنها حين تطفئ تصبح عاتية عاصفة ، ومن أمثلة ذلك ما وقع من أم أوفى العبدية وقد دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً ؟ فقالت : قد استحققت النار . فقالت : إنها أصغر مما تظنين ، قالت : قد استوجبت النار . فتنمّرت أم أوفى وقالت : فما تقولين في امرأة قتلت من أبنائها الكبار ألوفاً ؟ فعرفت عائشة أنها تُمرّض بيوم الجمل فصاحت :

« خذوا بيد عدوة الله ! »

شاعرة يهودية :

كان في اليهود من العرب شعراء ، أشهرهم السمومل ،
وكان في اليهود المستعربين شعراء ، أشهرهم ابن سهل ،
وكان في المستعربين منهم شواعر ، وهذا غريب ، ومن
أشهر الشواعر اليهوديات قسمنة بنت اسماعيل الأندلسية ،
وكان أبوها شاعراً فاعتنى بتأديبها ، وربما صنع من الموشحة
قسماً فأتمتها هي بقسم آخر . . . قال لها أبوها أجزى :

لي صاحب ذو بهجة قد قابلت

منعاً بظهر واستحلت جرمها

ففكرت غير كثير وقالت :

كالشمس منها البدر يقبس نوره

أبدأً ويكسِفُ بعد ذلك جرمها

فقام كالخبتل وضمها إليه ، وجعل يقبل رأسها

ويقول : أنت والكلمات العشر أشعر مني !

ونظرت في المرأة يوماً قرأت جمالها وقد بلغت

أوان التزويج ، فقالت :

أرى روضةً قد حان منها قطافها

ولست أرى جانٍ يمدُّ لها يدا

فوا أسفي يمضي الشباب مضيئاً

ويبقى الذي ما إن أسميه مفرداً

وسمعتها أبوها فنظر في تزويجها .

العريضة :

يتحدث الناس كثيراً عن العريضة ، عريضة السكرى ،

وقد تحدث شوقي عن القلب النشوان فوصفه بالعرييد ،

وأكثر الناس لا يعرفون من أين جاءت كلمة عرييد

فليعرف من لا يعرف أنها من العرييد ، وهي حية تنفخ

ولا تؤذي . وأكثر السكرى يتصايحون ولكنهم

جبناء !

المعدي :

المعدي بسكون ياء التصغير وتشديد ياء النسب هو

تصغير المعديّ بتشديد الدال والياء ، نسبة إلى معدّ

بتشديد الدال وإنما خُففت الدال في (المعيدي) استنقلاً
للتشديد مع ياء التصغير . وفي الناس من لا يعرف
تصريف هذا الاسم على شهرته ، مع أن أكثرهم معيدون !

هي عمر الطوت !

من المعروف أن من غلب عليه فن من الفنون أولع
بألفاظه وأخيلته ؛ وقد حُفِظَ من ذلك شيء كثير
في اللغة العربية ؛ ومن أظرف ما قرأته أن أحد الرياضيين
دعا ربه وهو يُحتَضِرُ فقال :

« اللهم يا من يعلم قطر الدائرة ؛ ونهاية العدد ؛ والجذر
الأصم ؛ اقبضني إليك على زاوية قائمة ؛ واحشرنى على
خط مستقيم ! »

إن هذان لساحران :

كتبتُ في العدد الأخير من مجلة (أبولو) مقالاً
وردت فيه عبارات عن بعض التعابير القرآنية ؛ وقلت إن
في القرآن تعابير لا تُقبَلُ إلا في القرآن ؛ لأنها نموذج
لبعض لغات ذلك العهد ؛ ومنها (إن هذان لساحران)

فهي مقبولة في القرآن ، ولما كتبها لو وقعت في كلام كاتب
لقلنا بلحنه ، لأن القاعدة الغالبة لا تجيز رفع اسم إن .
وكنيت في هذا قد استأنست بكلام نقله ابن فارس ، ثم
اطلعت على تأويل غريب لأبي زكريا يحيى بن علي
وهو يقول في (إن هذان لساحران) إن الهاء اسم إن ؛
وإن لساحران جملة خبر لإن ، ولا تحتاج لرابط لأنها
تفسيرية ، والمعنى عنده : وأسروا النجوى قالوا إنها ، أي
نجوانا (إن لساحران) فما رأي العلماء في هذا التأويل ؟
أبو العير وأبو العجل :

كان أدباء العرب يتخيرون بعض الأسماء المضحكة
ليضيفوا إليها ما يحلو لهم من الفكاهات ، وقد تخيل
أحدهم أن أبا العير ولَّى أبا العجل ولاية عريضة وكتب
له بذلك عهداً فقال :

« يا أبا العجل ! وفقك الله وسددك ! ولِّمتك خراج
ضياح الهواء ، ومساحة الهباء ، وكييل ماء الأنهار ، وعدة
الثمار ، وصدقات البوم ، وكييل الزقوم ، وقسمة الشوم ،

بين الهند والروم ، وأجريت لك من الأرزاق ، بغض
أهل حمص لأهل العراق ، وأمرتك أن تجعل ديوانك
برقة ، ومجلسك بأفريقية ، وعيالك بميسان ، واصطبلك
بهمدان ، وخالعت عليك خَفِيَّ حَنِينٍ ، وقيصاً من دِينَ ،
وسراويل من سخنة عين ، فدر في عملاك كل يوم مرتين .
والحمد لله على ما ألهمنا فيك ، فقابانا بالشكر فيما نُؤَلِّقُ ! «

٢٠ يولييه سنة ١٩٣٤

آراء أجمد أفندي

في الأدب الحديث

صن أجمد أفندي ؟

يسألني كثير من الأصدقاء عن شخصية أجمد أفندي ،
ولا سيما مندوب البلاغ في عالم الإنس والجن الأستاذ الغمراوي
الذي أخذ يدور في ملاعب القاهرة ومشاربها علىه يتعرف
إلى صديقنا المفضل أجمد أفندي ، أو أجمد بك ، كما يكتب
على بطاقته الغراء ، وما كنت والله أنتظر أن تخفى
شخصية أجمد أفندي على أحد ، وهو أعرف المعارف في
هذا البلد الأمين ، ولكن هكذا اتفق أن يسأل الناس
عنه كأنه أنكر النكرات . لذلك أراني مضطراً لتقديمه
إلى القراء حتى لا يضايقني المتشوفون بالسؤال عنه كما
أصبحت أو أمسيت . وصديقنا أجمد أفندي هو نجل
صاحب السعادة سَعَفَصَ باشا الذي انتقل إلى جوار ربه

منذ ثلاثة عشر عاماً ، وكان أحد رؤساء الأقسام بوزارة
المالية ، وابن أخي حضرة صاحب العزة كامن بك أحد
الأعضاء الصامتين في مجلس الشيوخ ، وشقيق الأستاذ
هوَز افندي أبرع الكتبيين في تاريخ مصر القديم ، أما
والدته الكريمة فهي الست حطبي صاحبة الفضل في حرب
ماجد من البدع في عالم النسائيات ، وله أختان إحداهما
الآنسة قرشت المدرسة بإحدى مدارس المعلمات ، أما أخته
الثانية فهي فتاة لاتزال في أحضان الخفر وأحياء ، ونرى
من الأدب طي اسمها عن القراء .

وأجد افندي من المفتونين بنسبهم وحسبهم ، وهو
يزعم أنه من سلالة ضظفغن ، وضظغن هذا الذي يزعم
الانتساب إليه هو أحد ملوك مدين الذين وضعوا الكتابة
العربية على عدد حروف أسمائهم ، ثم هلكوا يوم الظلمة
فقال إحدى بناتهم :

كامن هدم ركني هلك وسط المحلة
سيد القوم أتاه ال حثف ناراً وسط ظلمة

جُمِلتُ ناراً عليهم دارهم كالمضجِلة
وأنا أشك كثيراً في نسبة أجد افندي ، والدكتور
طه حسين يشك أيضاً فيما نسب إلى آباءه المزعومين من
الشعر . وغرورُ أجد افندي هو الذي حمل الدكتور طه
على التطرف في شرح نظرية الشعر المنحول . فليذكر
القراء هذا ، فسيحتاج إليه تاريخ النقد الأدبي يوماً من
الأيام !

وبعد فقد لقيني أجد افندي في عصر المساء الماضي ،
وكنت عائداً من عملي ، وكان هو في مشرب بودجا
يستنشق نسمات الأصيل ، ويتوسم وجوه السارجات في
شارع عماد الدين ، فناداني فنزلت من المترو على عجل
لأروح عن النفس بمغازلة ما تصبو إليه شفتاه من قهوة
أبي نواس - ثم تساقينا أكوام الحديث :

أجد افندي : هل تذكر ياسيد مبارك مقالك الذي

نشرته في العام الماضي عند صدور البلاغ ؟

الكاتب : ذكرتني فقد نسيت .

أُجِدُ افندي — المقال الذي تشيطنتَ فيه وبسطت
لسانك في لطفِي السيد وعلي عبد الرازق وطه حسين :
الكاتب — ما أذكرُ أني أسأتُ إلى أحد من هؤلاء
الفضلاء .

أُجِدُ افندي — هل نسيتَ المقال الذي عنوانه « قلمي
بين الصدا والصدق » .

الكاتب — أذكره .

أُجِدُ افندي — هل تذكرُ أنك قلتَ فيه « وسيكتوي
ناسٌ بهذا القلم ، ولكنهم سيذكرون صاحبه بخير حين
يكشف عنهم آصار الخمول » .

الكاتب — أذكر ذلك .

أُجِدُ افندي — إذن فإِذْ هذه اليد الرفيقة التي تربتْ

بها علي جنب الدكتور زكي أبو شادي ؟

الكاتب — ماذا تريد أن تقول ، لا أصلحك الله !

أُجِدُ افندي — أريدُ تلك الجملة الناعمة التي مسحت

بها علي وجه هذا الفتى حين قلت :

« إن هناك ناساً يؤمنون بأن هذا الفاضل يستطيع أن يكون كل شيء ، ولكنه لن يكون شاعراً مُجيداً إلا إذا تغير فهمه للشعر ، وعرف أن الشعر فنٌّ وروح ، ولا يكفي أن يكون كلاماً محبوباً في قواف وأوزان . »

الكاتب — أنت تعرف أن الرفق واجب في محاوراة الأصدقاء .

أبجد افندي — الأصدقاء ؟ وطه حسين لم يكن صديقك حين زيفت آراءه في نشأة النثر الفني ؟
الكاتب — لقد زيفت آراءه في أدب ولطف ولم تكن لي مندوحة من ذلك .

أبجد افندي — أعرف اللطف الذي عاملت به أستاذك ، فقد صوّبت إليه سهماً مسموماً ، ولكنك بلؤمك رشته بخيوط من حرير !

الكاتب — عدّ عن هذا ، يا أبجد افندي ، ولا تستغلّ كرمي في مخاطبتك . قلت إن الدكتور أبو شادي صديق ، والرفق واجب في محاوراة الأصدقاء .

أبجد افندي - فلقتمونا ، ياناس ! تابوز إلا أن تحملوا
راية النقد الأدبي ، ثم محسن بكم الظن ، ونكل إليكم
حمل تلك الأمانة الغالية ، فتأخذون في المداورة والمجاملة
والمداورة ، كأن النقد الأدبي لا يخرج عن رعاية المعارف
والأصحاب والأصدقاء والألفاء والعشراء والسُّجَّراء والتدمان
والخلان ، أما لهذه السفسطة من حدّ ؟

الكاتب - الدكتور أبوشادي رجلٌ طيب ، وهو فوق
طيبته صديق .

أبجد افندي - رجل طيب ؟ وما دخلُ الطيبة في
الموضوع ؟ أتمسبنا نزيده إماماً في مسجد ، أو راعياً في
كنيسة ؟ الطيبة شيء ، والشعر شيء آخر ، أتانا نقدّم
الشبراوي على أبي نواس ، بحجة أن الشبراوي كان من
البررة المتقين ، وأن أبا نواس من اللاجنين الفاجرين ؟
الكاتب - وهو فضلاً عن طيبته وصدق مودته
رجلٌ نافع .

أبجد افندي : ما معنى ذلك ؟

الكاتب - إنه أول أديب اشتغل بتربية النحل
والحمام والأرانب والدجاج .

أبجد أفندي - دع الأدب لحظة فسنعود إليه ، واسمح
لي أن أصرحك بأن ناساً من المعروفين بوزارة الزراعة
ينكرون معرفته بالنحل .

الكاتب - لا تصدقهم فانهم حاقدون ، فقد رأته
بنفسي في معرض رابطة النحل يمسك الخلية بيده ويرشد
الزائرين إلى طرائق اليعسوب ويقول أن اليعسوب أنثى ،
ويستدل بذلك على أن المرأة تصلح للملك !

أبجد أفندي :

هكذا هكذا وإلا فلألا

ليس كل الرجال تُدعى رجالاً

ألم أقل لك إن الأدباء مجانيين ؟ وما دخل العلم في
هذه الخرافات الأدبية ؟

الكاتب - ليست خرافات ، فان ما تصاح له الأثى

كان ولا يزال مشكلة معقدة أشد التعقيد ، وقد اختلف

المتقدمون في صلاحية المرأة للنبوّة ، وقال قائلهم :

« وما كانت نبياً قط أنى »

فإن صح أن اليعسوب أنى كان ذلك دليلاً على أن
الرجل ليس أفضل من المرأة في جميع الأحوال .

أبجد افندي - اعقلوا مرة ، يا أدباء آخر الزمان ! أنا
أقول إنك تضيع وظيفة الناقد الأدبي بما تحرص عليه من
المجاملات كلما نقدت زميلاً أو صديقاً ، وأنت تأبى إلا أن
تدور بنا في مجاهل من الفكاهة يضيق بها صدري في
أكثر الأحيان !

الكاتب - أبو شادي شاعر ، فهل تنكر ذلك ؟

أبجد افندي - شاعر؟ آمنت بالله ! أنشدني إن شئت

بعض شعره لتنظر كيف مجيد القصيد .

الكاتب - اسمع ترجمته لاحدى رباعيات حافظ الشيرازي

حين أزرارُ ذلك الورد تنف

ضُ كئوساً ويحمل الخمر نرجس

آه ، ما أسعد العليم بفنِّ
قِرْمِزِيٍّ يَحْرُزُ الرُّوحَ والنَّفْسَ
يَمِّيِّ والسَّلَافِ يَا فَتَتِي النَّمِ
رَ فَنَفِي طِيَّ الكَوُّوسِ الهمومِ
إِنِ وقتَ الحَيَاةِ أَيامها العَشِ
مِ كورِدِ في البَشَرِ لافي الوجومِ
يَا أُولى الحُبِّ في عناقِ الأيادي
حينما الوقتُ دائِرُهُ منسيًّا
أوقفوه متى تمثَّلَ دوري
لَتَرَى ذكرياتِ نَيْسانِ فيًّا
بينَ حَسَناءَ في ابتسامِ وعودِ
توقظُ الفجرِ ثمَ نَجْمِ تحلُّلِ
وملاذِّ وخمرةٍ رقصتَ لي
بدمي لستَ جودَ حاتمِ أسألِ

أُبجد افندي - أشعرُّ هذا؟

الكاتب - الحاضر!

أُمجِد افندي - لا ، يا عمّ ، يفتح الله ! ولم اخترت
هذه الأبيات ؟ أخشى أن يكون لك من وراء هذا غرضٌ
دفين !

الكاتب - أصبت يا سيد أُمجد ! فقد اخترت هذه
الأبيات لأن لها قصة طريفة : تقدما في الأهرام أديبٌ
فاضل هو الشيخ أحمد الزين ، جاء الدكتور أبو شادي
وامهال عليه سباً وشتماً في مجلة أبوللون ورماد بقلة الفهم
وسقم الذوق : لأنه لم يقرأ شيئاً من الأدب الأوربي .

أُمجِد افندي - وماذا صنع الزين بعد ذلك ؟
الكاتب - اضطرب وخاف ولاذ بالصمت . لأن
كلمة (الأدب الأوربي) أفزعته . والمسكين لا يعرف
شيئاً عمّا وراء البحار من أدب وتاريخ ، ويكفي أن يلوّح
له أبو شادي بكلمة افرنجية ليطمئن إلى أن القوم يعاهون
ما لا يعلم ، وأن الصمت خير من الكلام !

أُمجِد افندي - ولم يتقدم أحد لإيصال الزين ؟
الكاتب - أنصفه بعضهم شفويّاً !

أبجد افندي - من هو ؟

الكاتب - هو الأستاذ المـراوي الذي يجلس على

مصطبة الحامية !

أبجد افندي - إذن أنت غير راض عن أبي شادي

يا صاحبي ؟

الكاتب - بالعكس أنا راض عنه أتمّ الرضا ، ولا

أخذ عليه إلا فراره من الحق ، فقد نقدته في البلاغ نقداً

خفيفاً ورجوته أن يضع فهرساً لمجلته ، وأن يقتصد في

نشر شعره فلا ينشر ثلاث قصائد بكل عدد ، وأن يسمي

المجلة « أبوللون » مطابقةً للنطق الأصيل ، لا « أبولو »

كما ينطق الإنجليز ، وأن لا يسرف في العجبة من غير

موجب ، فلما ظهر العدد الثاني رأيتُه أهمل الفهرس عناداً ،

ونشر فيه ست قصائد ، وكنت أستكثر أن ينشر ثلاثاً ،

وزعم أنه إن أضاف « نونا » إلى « ابولو » فقال « أبوللون »

فقد يعرض نفسه إلى غضب قلم المطبوعات !

أما دفاعه عن كلمة « كلاسيك » فكان مضحكاً ،

وكان دليلاً على أنه لا يعرف من الأدب الأوربي إلا
القشور : فقد زعم أن « الكلاسيك » هو التقليدي ،
وأن « الرومانتيك » هو الإبداعي . ومن الطريف أنه
لم يبتكر الخطأ في كلمة « رومانتيك » وإنما قلد في ذلك
الأستاذ الزيات الذي انفرد بالسبق إلى هذا الخطأ المبين .
والترجمة الصحيحة لكلمة « رومانتيك » هي « وجداني »
لأن الرومانتيك يعتمد على إثارة العاطفة واخيال . في
حين أن الكلاسيك يعتمد على العقل . ولا أنكر أن
كلاسيك ورومانتيك كلمتان لها معان أخرى ، فقد يكون
الكلاسيك دالاً على الطرائق المدرسية ، ويكون الرومانتيك
دالاً على ما يخالف مذاهب القدماء في أساليب البيان .
ولكن المعنى الذي اخترته هو الذي يطابق مدلول
الكلمتين حين يراد بهما تعيين بعض المدارس الأدبية .
أبجد افندي — ولماذا يورط أبو شادي نفسه في هذه

المزلق ؟

الكاتب — علم ذلك عندك ، ياسيد أبجد ا

أبجد افندي - أیظن صاحبنا أن كل شيء في مصر

جائز ؟

الكاتب - أنا أنزهه عن ذلك !

أبجد افندي - وأنا أرجح أنه يتحدث عن عامه

الواسع بالآداب الأجنبية ، كما يفعل بعض من تعرف
وأعرف ، رغبةً في ستر الجهل بالآداب العربية .

الكاتب - محمد الله على أن الآداب العربية أصبحت

بمنجى من غرور الأدعياء .

أبجد افندي - تعتقد ذلك ؟

الكاتب - أعتقد على الأقل أن الأدعياء يترددون ألف

مرة قبل أن يتحدثوا عن الآداب العربية ، لأن في مصر

قوماً يستطيعون أن يقولوا للمخطيء أخطأت ، ولا كذلك

الآداب الأجنبية التي لا يعرف عنها الجمهور إلا القليل ، وآية

ذلك أننا نرى بعضهم يلوذ بأكناف الأدب الروسي فيطيل

الحديث عنه والتغني بروائعه ، ثم لا يعرج على الأدب

الفرنسي أو الانجليزي إلا قليلاً ، لأن في مصر ناساً

مطلعين على أدب الأنجليز والفرنسيين .

أمجد افندي — لا أحب أن يذهلنا الاستطراد عن

نقد ما ترجمه أبو شادي للشيرازي ، فما رأيك في تلك الترجمة ؟

وما هو على التعيين وجه الخطأ في نظم تلك الرباعية ؟

الكاتب — أبو شادي لا يعرف الفارسية فيما أظن

فهو إذن نقل عن الأنجليزية ، فيكون الشيرازي تغير

مرتين بهذه الترجمة . ومن المحتمل أن تكون المعاني باقية

ولكن الروح والأسلوب ضاعا ضياعاً تاماً ، وللروح

والأسلوب أعظم الأثر في رفع قواعد الشعر البليغ .

أمجد افندي — أنا ألاحظ أن شعر أبي شادي ينقصه

دائماً الروح والأسلوب ، فما رأيك ؟

الكاتب — هو ذلك . ولكن بعض أصدقائه يغفر

له هذا النقص .

أمجد افندي — وكيف ؟

الكاتب — يقولون إن له مذهباً في الشعر يتلخص

في أن جميع الكلمات بطبيعتها شعرية ، فلا موجب لإيثار

كلمة على كلمة ، لأن في ذلك استبداداً ينافي روح العصر الحديث : ومن رأيه فيما يقولون أنه لا موجب أيضاً للحرص على الموسيقى الشعرية ، لأن في ذلك خلطاً بين الفنون : فالشعر ينفرد بالنظام ، والموسيقى تُقصر على الانغام والألحان ، والنثر يفوز بالخلاص من جميع القيود !

أبجد افندي - ولكن هذا ينافي جميع التقاليد الأدبية .

الكاتب - الدكتور أبو شادي يعرف هذا جيداً ، ويعرف أن ليس لشعره وشعر أمثاله سوق ، ولذلك يعلل نفسه بالأمل في تغيير المقاييس الأدبية ، كما صرح في مجلته القراء !

أبجد افندي - إذن نحن مقبلون على فوضى أدبية ؟

الكاتب - يجوز !

أبجد افندي - ولم لا تتدخل الحكومة إذن فتقطع

دابر هذا الاضطراب ؟

الكاتب - إي والله ، يا أبجد افندي ، هذا ما بقي

من الميادين خالياً من سلطان الحكومة !

أحمد افندي - اسمح لي أن أشرح رأيي ، إن قلم

المطبوعات يحظر على الصحف نشر ما يفسد الأخلاق ،

فكيف يبيح نشر ما يفسد الأذواق ؟

الكاتب - لأن الأمة لا تعيش بغير خلقٍ ، ولكنها

قد تعيش بدون ذوق !

أحمد افندي - أعوذ بالله ! اقتربت الساعةُ وانشقَّ

القمر !

الكاتب - إن هذا حقاً من أشرط الساعة !

أحمد افندي - ألا يضر ذبوع الشعر السخيف

بسمعة الأمة المصرية ويقلقل زعامتها في الشرق ؟

الكاتب - سمعةُ مصر أقوى وأمنع من أن تُزعزع

بذبوع كتاب ضعيف أو ديوان سخيف .

١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢

مناوشات

مذهب داروين :

أراد أحد الكتاب أن يسخر ممن يدعون التفرد
(بالمذهب العلمي) على غير بينة ، فساقه ذلك إلى الكلام
عن الانسان وشبّهه بالقرود ، ثم قال : « وقد مرّ على مذهب
داروين مئات السنين » الخ .

وظاهر أن هذه زلة سيستطيل بها عليه خصومه
الشياطين « سكان » قهوة الفن في شارع عماد الدين ، لأنه
لم يمر على داروين ومذهبه مئات السنين ، فقد عاش مؤلف
كتاب أصل الأنواع إلى سنة ١٨٨٢ .

فالرجو من صاحبنا أن « يأخذ باله » كلما عرض

لأمثال هذه الشؤون !

على أن له مخرجاً من هذا المأزق ، فامذهب داروين أصول
قديمة تنبه إليها العرب واليونان ، والجاحظ يحدثنا بأن

الشبه ظاهر بين القرد والانسان ، ويرى ذلك في ملامح القرد وتغميض عينيه وضحكه وحركته وحكايته وفي كفه وأصابعه في رفعها ووضعها ، وكيف يتناول بها ، وكيف يجرز اللقمة إلى فيه ، وكيف يكسر الجوز ويستخرج ما فيه وكيف يتقن كل ما أخذ به وأعيد عليه .

ويقول أبو الحسن بن عبد العزيز :

« نحن نجد القرد أكثر شبيهاً بالانسان من سائر الحيوان ، ولذلك سماه القائلون بالتناسخ بالصورة المكشوفة . ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا في ضروب الحيوان أشبه منه بالانسان تركيباً وأعضاء وجوارح ، ولم يروا أقرب خلقة وصورة وأدنى إليه شبيهاً ومشاكاة من القرد ، وأن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا قط إنسياً ، ولم يشرّحوا آدمياً ، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسراير الكامنة بما فصلوا من أجسام القرود وبعض من وجد من القتلى على نُدرة في بعض معارك الملوك » .

إذن كان الأطباء منذ آلاف السنين يشرّحون القرد

ليعرفوا أعضاء الانسان ، وإذن كان صاحبنا متواضعاً جداً
حين قرر أن مذهب داروين مرت عليه « مئات » السنين !
فكاهات :

بمناسبة القرد نذكر الفكاهات الآتية :

(١) يحكى أن رجلاً قبيح الصورة قال لمنصور بن
الحسين الخلاج : إن كنت صادقاً فيما تدعيه فامسخني قرداً .
فقال الخلاج : أما لو هممت بذلك لكان نصف العمل
مفروغاً منه !

(٢) قال بعض الخلفاء لأحد ندمائه : عرفت أن
في وجه بختيشوع قردية ، فقال : الغلط من غيرك ، يا أمير
المؤمنين ، بل في وجه القرد بختيشوعية !

(٣) يقال إن أنصار داروين كلهم قباح الوجوه ،
وكان بعض أساتذتنا يؤكد أن اهتمام داروين بمذهب
التطور مرجعه أن في وجه داروين شبهاً بالقرد ، وكان
يقول : نظرة^{ته} إلى صورة داروين في معجم لاروس تقنعك
بذلك . وقد أغراني هذا بالتأمل في وجه صديق مصري

مفتون بمذهب التطور فلاحظت أن له شمائل تذكر بالخلق
الذي قيل فيه : « القرد قبيح ، ولكنه مليح » .

زرت ذلك الصديق مرة في منزله بالفجالة فأطلعني
على صورة له وضعها أحد الرسامين وقال في لهفة :
« مارأيك في هذه الصورة ؟ »

فقلت : في غاية الاتقان ، ولكن ينقصها شيء !

فقال في وحشة : ما هو ؟

فأجبت :

« كان يجب أن تكون فوق شجرة ! »

ولا مؤاخنة يا صديقي ، فأنت تعلم أن الحديد ذو شجون .

كما قال شكسبير :

كما لقيت صديقي الأستاذ توفيق اليازجي سأله كيف

حالك ؟ وهو يجيب دائماً بما نصه :

« بخير ، إلا من الناس . كما قال شكسبير » .

ويظهر أنه يرى هذا الجواب من بدائع شكسبير

فليعلم إذن أن هناك جواباً أبرع منه سبق جواب شكسبير

بقرون ، ذلك أن يقول : « بخير ، إلا من الأصدقاء »
وهذا جواب أصدق لأننا لا نشكو كل الناس ، وإنما
نشكو من نعرف أو من نصادق من الناس ، فقد كان
أبو الحسن ابن الفُرات يقول : « جرى الله عنا من لا نعرفه
ولا يعرفنا خيراً » وكان يقول : « أحصيتُ ما أنا فيه
من المكاره فما وجدت منه شيئاً لحقني إلا ممن
أحسنت إليه »

وقد عقب على هذه الكلمات أبو الحسن الـاهـوازي

فقال :

« وهذا صحيح . ولكن حدث عند فساد الزمان ، وإلا
فالأكثر من عدد الناس كان قديماً على تصرف زمانهم عندما
يعتقدونه من مودات إخوانهم . فاما فسدت الطباع وتسمع
الناس في شروط موداتهم صار الانسان سالماً ممن لا يعرفه :
لا يلحق به شره ولا يناله ضره ، وإنما يلحق الآن الضرر
من المعارف وممن يقع عليهم اسم الإخوان ، وذلك أنهم
يطالبون في المودة بما لا يفعلون مثله ، فإن أسدى الانسان إليهم

إحساناً عرف طعمه فهي العداوة القليلة ، وإن حفظ الإنسان ما يصنعونه أبداً حصل تحت الرق ، وإن قارضهم الأفعال ثارت العداوة ، وتواترت عليه المسكاره . هذا إذا سامت من أن يبدأك من تظنه صديقاً بالشر والتجني والمعاملة القبيحة بالتوهم والتظني من غير تثبيت ولا استصلاح ، فأما إذا كان ليس بينكما أكثر من المعرفة فالضرر منها بالثقة ، لأن كل مكروه ياحقك إذا حصلتته كان ممن يعرفك ويقصدك به على علم بك ، فأما الضرر ممن لا تعرفه فبعيد جداً ، ومثلهم مثل لصوص يقطعون عليك الطريق غرضهم أخذ المال منك أو غيرك : فإن أشد الضرر من اللصوص ما وقع عن تعيين وعلى معرفة بالإنسان . فهما أمكن العاقل أن يُقلّ من المعارف واجتلاب من يسمى أخاً في هذا الزمان فليفعل ، وليعلم أنه أقلّ من الأعداء ، وكما استكثر منهم فقد استكثر من الأعداء »

ولا جدال في أن هذه الفقرة أدل على معناها وأدق

وأصرح من كلمة شكسبير . ورحم الله المتنبّي إذ قال :

عرف الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
فلسفة قريظة :

كتب الأستاذ الشيخ محمد عبد المطلب مقالة مطولة
عن سفور المرأة ، ثم تلاقينا أمس فصارحني بأنه سيمضي
فيما سماه (الغارة الشعواء) على أنصار السفور ، فلنقدم
إليه بعض الملاحظات ليتبين صدق قول الخنساء :

ومن ظن ممن يلاقي الحروب

بأن لن يصاب فقد ظن عجزا

وهو يقول : (إن الحكماء - فلاسفة كانوا أو
متصوفين - أجمعوا على أن الانسان يتركب وجوده من
إنسانين ، هذا روحاني من السماء ، والآخر أرضي عنصري
من عالم الكون والفساد ، والأول هو الروح التي أجمعوا
على أنها من الجواهر المجردة العاقلة ، وأن من السماء مهبطها
ومنشأها وإلى السماء مصيرها)

فن أين عرف الأستاذ أن هذه الأشياء مما أجمع عليه

الحكماء من فلاسفة ومتصوفين ؟

الروح جوهر مجرد عاقل ؟

ياسلام ! من الذي (أجمع) على هذا ؟

تلك فلسفة قديمة ، يا حضرة الأستاذ ، وهي بعينها
الفلسفة التي أخرت الأزهرين ووقفت بهم من نعيم الدنيا
عند الكراث والبقول ، كما وقفت بأتباعها من اليونان عند
الأتجار بالسردين والزيتون .

والأستاذ ينقل لنا أبيات ابن سينا في النفس ، ثم يتعب
في شرحها ليصحح له أن يقول :

« هذا بيان للناس واضح في أصل النفس »

آمنًا وصدقنا . ولكن كيف تقبل من الأستاذ النتيجة

الآتية :

« إذا تكونت المادة العنصرية بشراً سويًا أهبطتُ

إليه من الملائكة الأعلى تلك الروح »

وهذا معناه أن المادة العنصرية تتكون بشراً سويًا

بدون روح ، وهو غير معقول فضلاً عن أن يكون محال

إجماع .

ويقول الأستاذ: الروح قبل اتصالها بالبدن علوية كاملة ذات وجه واحد تواجه به ما حولها من عوامل الكمال لا صلة لها بغيره ولا نظر إلى سواه ، ولها في هذا الطور نور نفسيٌّ كامل تتحرك به في تلك العوالم العليا وتدرِّك به ما لتلك العوالم من الصفات «

كلام لطيف جداً يريد الأستاذ أن يصل به إلى هذه النتيجة :

« الروح جوهر نوراني لا يعرف البلاء والعناء إلا حين يتصل بالبدن لأنه من عالم السفليات «

فحدثني بالله : لماذا ينحط « ذلك الجوهر المجرد العاقل » إلى عالم الأرض وكان نوراً يتألق في السماء ؟
أترأه انجذب إلى العوالم الأرضية ؟ إنه إذن يجد هواه في الأرض لأن فيه عنصراً أرضياً ، وإلا فهو أضعف من الأرض ، لأن الجاذب أقوى من المجنوب .

لقد كانت للقدماء مذاهب فلسفية تجرد من معاصريهم بعض القبول ، فلنرو تلك الفلاسفة يتحفظ شديد ، لأن

العقول الحديثة طغت على تلك الفلاسفات. وللاستاذ
عبد المطلب أن يتسامح فيما سماه « الاجماع » حتى لا يجد
من يقول له : أخطأت في هذه المرة !

كهرص غير مفهوم :

ووصف الأستاذ أنصار السفور بأنهم مفتونون بتقاييد
أوربا ، ومع ذلك لا يتمسكون من برودها إلا بجمابها
وأطراف أهدابها ، إلى أن قال : « فثلمهم في ذلك مثل من
يحاول ارتقاء أعلى درجة من سلم البيت من غير أن يتدرج
إليها مما هو تحتها ، وما أبعد هذا المرتقى على من يريد
الارتقاء » .

ولعل الأستاذ يراجع نفسه ليرى أن هذا التشبيه

مقلوب !

اليكتم تردد المرأة :

يرى الأستاذ أن أنصار حرية المرأة لا يخدمون
إلا شهواتهم ، وفي هذا شيء من الحق ، لأننا في حاجة
طبيعية إلى المرأة ، ونريد أن تكون بحق جنساً لطيفاً

مهذباً يفهمنا فيما أعلى وأشرف مما كانت تفهمنا به المرأة الجاهلة بأصول الحياة . وزيد بدعوتنا إلى حرية المرأة أن يكون لنا منها رفيق أنيس ، وشريك ألوف يذهب عنا وحشة الدنيا ، ويشاطرنا ثقل ما نحمل من آصار التكليف ، وما نبرئ أنفسنا من حب المرأة ، لأننا نكره الرياء والنفاق في سبيل الإصلاح ، ونحرص مع هذا على أن تكون المرأة المستنيرة على جانب عظيم من شرف الأخلاق .

وأعداء حرية المرأة ، ماذا يريدون ؟ إنهم في الواقع يخدمون أشنع شهوة ، وهي شهوة السيطرة والتحكم والاستبداد : فهم يريدون أن تكون المرأة متاعاً خالصاً أصم ، لا روح فيه ولا حراك . والرجل لا يغار إلا على منفعته حين يغار على المرأة ، لأنه لا يحب أن يتوهمها مملوكة لسواه . والعفاف صار على هذا فضيلة : لأنه يضمن للرجل الحق المطلق في امتلاك المرأة . فالشيخ عبد المطلب أن يفهم أن أعداء حرية المرأة يخدمون شهواتهم أيضاً ،

ولا عيب في هذا : لأن الشهوات من العناصر الأساسية
في الحياة ، ولو خمدت لكان من واجبنا أن نذكها ،
ولكن العيب أن يتهم الرجل خصومه بتهمة قد يكون
وزرها عليه ، وقد يكونون من آثامها أبرياء (١) .

٩ أكتوبر سنة ١٩٣١

(١) في كتاب « التصوف الاسلامي » تشریح وتفصیل للجدوع الشهوانية التي
قامت عليها فروع الأخلاق .

أهواء وآراء في مجلس سهر في باريس^(١)

ما هو الوطن؟ — ومن هو المواطن؟ —
كيف يتقف الشباب المصريون؟ — هل
الدكتور منصور فهمي فيلسوف؟ — وهل
لطفى بك السيد أيضاً فيلسوف؟ — عبد الحميد
باشا بدوي ليس من تلامذة لطفى السيد —
مدام عزمى أيضاً لا ترضى أن تكون (بنت)
لطفى السيد — الشيخ مصطفى عبد الرازق
أديب فقط لا فيلسوف — صبر الدين السربوي
لا يصلح للتدريس ولكنه مؤلف تواريخ —
كيف اصطدم أعضاء بعثة الجامعة المصرية
قديماً بالشباب الفرنسيين — الثقافة الفرنسية
أكثر نوراً من الثقافة الإنجليزية — بلاد
العرب أم بلاد المسلمين؟ — أجهما خير للرجل
المفكر: المرأة الساذجة، أم المرأة المتبعرة في
العلوم والآداب؟ — هل الدكتور طه حسين
رجل شجاع؟

حضرة الأستاذ صاحب البلاغ

لقد تعودتُ التدقيق والتنقيح في الرسائل التي أبعث
بها إليكم، وكان سبيلي في ذلك أن أعفيكم من مراجعة

(١) شهد الأستاذ الدكتور محمود عزمى في خطبة ألقاها في نوفمبر
سنة ١٩٣٧ على جمهور من أهل بغداد بأن هذا الحديث نموذج في صدق
الرواية وأمانة النقل.

ما أكتب حرصاً على وقتكم الثمين ، وفي هذه المرة
أحاول أن أصف ما جرى في مجلس سمر بين جماعة من
المصريين دعاهم الأستاذ محمود عزمي إلى تناول الشاي . وأريد
أن أسرد بعض ما جرى في ذلك المجلس الجميل ، وفيه كما
سترى أزهار وأشواك ، فهل لك أن تتفضل بنشر هذا
الحديث برمته ، مع ملاحظة أنني هدبته بعض التهذيب
وخلصته من كل ما يجرح إحساس القراء ؟
أما أنا فأرى أن لا بأس بنشر هذه المناوشات الكلامية
لأن فيها ، أولاً ، بعض الفوائد الأدبية والاجتماعية ،
ولأنها ، ثانياً ، تمثل بعض ما يقع في مجالسنا من إغفال
التحفظ فيما يمس الأشخاص .

* * *

مدام عزمي - يا ناس حرام عليكم . لغتكم لا تزال

فقيرة : فليس عندكم كلمة تقابل كلمة Citoyen

زكي مبارك - عندنا كلمة مواطن .

محمود عزمي - كلمة مواطن لا تقابل كلمة (سيتويان)

ولكنها تقابل كلمة (كونسيتويان)

زكي مبارك - ولكن كلمة مواطن فيها الكفاية

ولم نشعر بالفقر إلى كلمة ثانية .

محمود عزمي - وما الذي يمنع أن تقول (واطن)

في مقابل (سيتويان) وما دام عندنا فعل واطن وهو

رباعي ، فما الذي يمنع من وجود وَطَنَ على وزن ضرب ؟

أليس لكل رباعي ثلاثي ؟

زكي مبارك - القياس لا يمنع من ذلك ولكني أرى

أن كلمة (واطن) لا تُؤدِّي ما تؤدِّيه كلمة (مواطن) لأن

الكلمة الأخيرة أشاعها الاستعمال ونفخ فيها من روح

الحياة ، وفيها معنى المؤلف .

بشر فارس - اللغة العربية فقيرة فيما يخص كلمة

وطن ، بخلاف سائر اللغات الحديثة .

زكي مبارك - اللغة العربية لم تحتج إلى مشتقات

كثيرة للفظه وطن ، لأن العرب لم يكونوا يفهمون من

الوطن ما يفهمه أهل هذا الزمان ، وعند العرب كلمتان

الأولى عَطَنَ ، وكانت تجري فيما يتعلق بمراتع الابل :
ومن هنا قالوا : « حنين الابل إلى أعطانها » وقال الشاعر
وأظنه ابن ذريح :

هوى ناقتي خلفي وقدَّامي الهوى

وإني وإياها لاختلافان

والكلمة الثانية وطن ، ويراد به المكان الأول الذي
درج فيه الانسان ، وألف مشاهدته ومناظره من أرض
ونبات وحيوان وماء ، وفيه ألف الجاحظ رسالة « الحنين
إلى الأوطان » وفي ذلك يقول الشاعر :

بلادٌ بها شدتُ عليَّ تَمَّامي

وأولُّ أرضٍ مسَّ جسمي تراها

ويقول ابن الرومي :

وحبَّ أوطان الرجال اليهم

مأربُ قضائها الشباب هنالك

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهم

عهد الصبا فيها فحنوا لذلك

ولم يكن العرب يفهمون من الوطن ما يسميه
الفرنسيون Patrie لأنهم لم يكونوا يتقيدون بقُطر دون
قُطر ، وإنما كانوا يبحثون عن الغنى والجاه في أقطار
الأرض بين الشرق والغرب .

بشر فارس - قد تكون هناك مشتقات لم تصل
إليها لكلمة وطن .

التونسي - وكيف غابت عنا الآن ؟

عزمي - ونحن ماذا نعلم ؟ إنه لا يوجد لدينا إلا
معاجم قديمة لا يقتنيها غير أفراد ، ومن أجل ذلك ظلت
ثقافتنا اللغوية والأدبية محدودة ضيقة . وقد أتيج لي مرة
وأنا أدرس الاقتصاد أن أصل إلى ألفاظ كثيرة اصطلاحية
في كتاب المخصص . فاو كانت لنا حكومة رشيدة تنقذنا
من هذه الجهالة لكان للشباب المصريين مجالاً واسع في
تحصيل المصطلحات الضرورية في العلوم والآداب .

توفيق صليب - آفتنا في مصر هي ضعف التعليم

الثانوي .

التونسي - هذا صحيح ! إن الشاب الفرنسي يعرف أشياء كثيرة لا يعرف بعضها الشاب المصري .
مبارك - موادّ التعليم الثانوي عندنا كثيرة ، ولعله لأجل ذلك يظل الطلبة جهلاء ، لأنه يندر أن يوجد لدى المدرس من الوقت ما يسمح له بالتعرض للشرح والتعليق ، وبهذا يلجأ الطلبة إلى الحفظ المطلق الذي ينتهي بالخروج من قاعات الامتحان .

فارس - شيء غريب !

مبارك - ما هذا ؟

عزمي - لا شيء !

مبارك - يا أستاذ عزمي ! إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ

اثنان ! ومع ذلك فهي قُصاصة من جريدة مصرية ، وما

أحسبها من الأسرار بعد أن نُشرت في مصر وجاءت إلى

باريس .

عزمي - ولكن في هذه القصاصة ما لا يرضيك !

مبارك - وكيف كان ذلك ؟

عزمي - زعموا أن الدكتور منصور فهمي صار من

المؤمنين !

مبارك - وذلك هو ما تُسِرُّه إلى فارس ؟

وهنا يقرأ الأستاذ عزمي تلك القصة وفيها ما معناه :

« وبعد أن انتهى الأستاذ الثعالبي من محاضراته صاح

الحاضرون : نريد أن نسمع الدكتور منصور فهمي !

فرفض الدكتور منصور ، فألح الجمهور في الطلب ،

وألح الدكتور في الرفض ، ثم اضطرَّ في النهاية إلى الكلام

فقال :

« أيها السادة ! ماذا تريدون من رجل قالوا : إنه

ملحد ؟ إن الذين هاجموني لم يعرفوا أن للشباب هفوات .

ومع هذا فلي الشرف أن أعلن أنني متمسك أشد التمسك

بالإسلام . ومن أجل هذا أعانق هذا الرجل المسلم ! »

مدام عزمي - هذا جِبْنٌ ، إن منصور جبان ؟

عزمي - نحن لا نقبل رأيك في منصور لأنك

تكرهينه !

مبارك - الدكتور منصور جبان ؟ لو كان الدكتور

منصور جباناً لأعلن إسلامه يوم كانت مصالحه تتوقف

على كلمة واحدة يُرضي بها رؤساء الجامعة المصرية ؛ وهو

اليوم وقد اطمأن على مركزه ومستقبله وأصبح غير

محتاج إلى مُصانعة أحد ؛ أفترضون أن عواطفه نحو

الإسلام في هذه الظروف نوعٌ من الجبن ؟ إنكم لا تعرفون

الدكتور منصور ؛ لقد مرت به أوقات كان لا يؤمن فيها

بأكثر التقاليد القديمة ؛ فكان يجاهر بتركها ؛ غير مبال بما

يلحقه من الأضرار الاجتماعية في بلد درج أهله على تقديس

التقاليد .

مدام عزمي - أنت لا تعرف منصور كما نعرفه ؛

لقد ربيناه ؛ نحن نعرفه منذ ثلاثين عاماً أو تزيد .

مبارك - ومع ذلك لا تعرفونه يامدام ؛ إن الدكتور

منصور مَلَكٌ من الملائكة ؛ وحسبُه أنه الرجل الوحيد

الذي عرفناه يترفع عن الدسائس والصغائر في عصرِ كَلِّهِ
نفاق وخداع .

عزمي - حقيقة الدكتور منصور رجل طيب !

مبارك - لا يخفى عليَّ خبتك ياسيد عزمي !

عزمي - قلت لك إنه طيب ، فهل تريدني على أن

أقول أكثر من ذلك فأزعم أنه فيلسوف ؟

مدام عزمي - فيلسوف ؟ لقد احتقرته يوم عرفته ،

فقد قال لي أنا : تولستوي مصر ! فياللوفاحة !

توفيق - إن رسائله لا تدل على تفكير عميق .

مبارك - تنقصها الطنطنة فقط لتصير من التفكير

العميق !

توفيق - إنه ضعيف في اللغة .

مبارك - وأنا لم أزعم أنه تخرَّج في الأزهر أو

دار العلوم . ولكني أوكد أنه كأستاذ فلسفة يعدُّ من

كبار الأساتذة ، ولا يعرفه إلا من أخذ عنه .

عزمي - يظهر أننا لن نتفق معك في تقدير منصور

مبارك — الذي يهمني من هذا الجدل شيء واحد
هو أن الدكتور منصور تطور في آرائه الدينية والاجتماعية ،
فهو الآن في طور الإيمان ، وهو رجل لا يعرف ما الجبن
ولا يدري ما النفاق .

فارس — إسلام منصور فهمي هو عندي أفضل من
إسلام طه حسين يوم أعلن عن طريق قلم المطبوعات أنه
يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر !
توني — ومع ذلك طه حسين شجاع لأنه ترك بقية
الصيغة فلم يقل : وإن عذاب القبر حق ، وسؤال الملكين
حق ، والصراط حق ، والميزان حق ، والحساب حق ،
إلى آخر الحديث .

مبارك — الدكتور طه شجاع ، والذي وقع منه كان
رأي مدير الجامعة المصرية فهو الذي اقترح منشور الإيمان !
مدام عزمي — مدير الجامعة ؟ ياساتر ! هو أيضاً
يدّعي أنه فيلسوف ، يا حفيظ ! يا حفيظ ! اسمعوا فسأحكي
لكم حكاية عن لطفني السيد : في يوم قال لي (يا بنتي)

فقلت له : بنتك ؟ أنا بنتك يا شيخ !
فقال في تخاذل : زوجك يبقى ابني ، فقلت : إذا كان
زوجي ابنك ، فما ذنبي أنا حتى أكون بنتك !
ولطفي السيد يحب أن يكون الناس كلهم أبناءه ، وقد
قال في يوم لعبد الحميد بدوي باشا : كلكم أبناءونا ، فقال
له عبد الحميد باشا : حاسب يا لطفي ، حاسب ! كيف
تعودت أن تخاطب الناس بلهجة واحدة بلا تمييز !
توفيق — المزعج حقاً أن يكون لطفي السيد
فيلسوفاً .

مبارك — وما الذي يمنع من ذلك ؟
توفيق — أنظر ترجمته لأرسططاليس .
مبارك — ما عيبها ؟ إنها ترجمة في غاية من الدقة
والوضوح .

توفيق — إنه ترجم عن الفرنسية ، والفيلسوف
يجب أن يُترجم أرسطو عن اليونانية .
مبارك — هذا جزاء من يصنع الجميل !

عزمي - أنت يا أستاذ مبارك لا تُحتمَل . صدَّقنا أن منصور فيلسوف ، وأن طه شجاع ، أفتريدنا أيضاً على أن نصدق أن لطفي خليفة ارسططاليس ؟

توفيق - لطفي يعجبني ككاتب بلينغ .

عزمي - يعجبك ولكنك لا تدري في كم ساعة كان يكتب مقالاته ، لقد كان يكتبها في أربع ساعات ، وكان هو الصحفي الوحيد الذي له حاجب يلبس بذلة شبيهة بالرسمية ، وكان في « الجريدة » دهليز طويل يوصل لحجرتة ، فكنت إذا أردت زيارته يجري إليك الحاجب على أطراف قدميه ويقول : (البيك بيكتب الافتتاحية) فتعال بعد ساعتين ! هيه بعد ساعتين !

مبارك - بمناسبة حاجب لطفي بك أذكر أن الشيخ عبد العزيز البشري وصفه فقال : (إن التكلف عنده هو الفطرة والفطرة هي التكلف)

عزمي - أبداع من هذا كلمة حافظ ابراهيم إذ يقول

(أظن أن لطفي السيد حين يريد النوم يتمدد على فراشه
ويقول : فلننم !)

مدام عزمي — أقدم لكم قهوة ؟

مبارك — أهى تهديء الأعصاب ؟

مدام عزمي — أتريد أن تقول إني عصبية ؟

مبارك — العفو يا مدام ، أنا الذي تصدعت أعصابي !

فارس — هو أخو الشيخ علي صاحب كتاب

الخلافة وأصول الحكم ؟

مدام عزمي — نعم الشيخ مصطفى هو أخو الشيخ علي ؟

مبارك — والشيخ علي هو أخو الشيخ مصطفى !

ولكن ماهي المناسبة ؟

مدام عزمي — الشيخ مصطفى هو ميسيه مصر ، إنه

لرفيق الاحساس !

مبارك — إنك بهذا تقضين عليه : لأنه مدرس

فلسفة ، فيجب أولاً أن يكون من الفلاسفة ، ولا مانع

بعد ذلك من أن يضاف إلى رجال الآداب .

مدام عزمي — فلسفة ! فلسفة ! الشيخ مصطفى

لا يعرف شيئاً من الفلسفة ، ولكنه بالذمة أديب !

عزمي — ياستي ! من فضلك ، الرجل أستاذ فلسفة ،

فهو إذن فيلسوف لا أديب .

مدام عزمي — أقول لكم الحق ، أتركوا الرجل

في حاله ، إنه لا يجب الشكّل ولا الضوضاء .

مبارك — وما رأيك يا مدام في الدكتور صبري ؟

فارس — يا سلام من كبره ، إنه حين يصلحك

يفهمك أنه يتصدق عليك ، وكذلك يكون الأديباء !

مبارك — صبري لا يتكبر إلا على المتواضعين ، أما

أهل الكبرياء فهو في حضرتهم ضعيف !

عزمي — براقو ! براقو !

فارس — هل صحيح أنه مدرس جيّد ؟

عزمي — مدرس ؟ لا ، إنه لا يستطيع أن يحصر فكره

في نقطة واحدة أكثر من دقيقتين ، لكنه أول مصري

اشتغل بالتاريخ الحديث ، فقد كان الفرنسيون يؤرخون

مصر على أهوائهم ، وكذلك الانجليز ، وهو يريد أن يحقق
تاريخ مصر على الوجهة المصرية .

مدام عزمي - صبري جامع أسانيد وتنقصه فلسفة
التاريخ .

عزمي - صبري يفعل في التاريخ ما كان يفعله
الأصبهاني في الأدب ، وكما وُجد مَهْدَبُ الأفغاني هو الشيخ
الخضري رحمة الله عليه فكذلك سيوجد خُضْرِي جديد
لتهذيب كتب صبري !

التوني - يظهر أننا نمضي بخطوات سريعة في الدراسات
العامية والأدبية .

عزمي - سريعة جداً ، وليتاك رأيتنا يوم أرسلتنا
الجامعة المصرية إلى باريس قبل الحرب ، وكنت أنا
ومنصور من الطلاب ، وكان سيد كامل وتوفيق الساوي
من الذين أتموا دراساتهم العالية في مصر ، ومع ذلك كان
هذان الأستاذان أعرف بالنقص : فقد كنا نجتمع كل

أسبوع مرة لثري ما يجب علينا درسه لنقرب من مستوى الشباب الفرنسيين .

مبارك - يظهر أن ذلك كان قبل إنشاء قهوة داركور !

عزمي - كانت داركور موجودة ؛ ولكن كانت لها ساعاتها .

التوني - وهل داركور تشغل الشبان المصريين إلى الحد الذي تتصوره ياسيد مبارك ؟

مبارك - هي لا تشغلهم كثيراً ؛ ولكني لاحظت فقط أن هناك شـبـاناً يقضون فيها أعواماً بدون أن يعرفوا كيف يؤلفون جملة صحيحة بالفرنسية !

التوني - اسمعوا ، هذا عجيب ؛ والله عجيب ، آية قرآنية تصور تكوين الجنين تصويراً لم يعرفه الأوربيون إلا بعد اثني عشر قرناً من نزول القرآن .

عزمي - إن ما نحسبه جديداً لدى أطباء أوربا قد يكون عُرِف قبل ذلك عند أطباء العرب مثل ابن سينا .

فارس — وقد يكون ابن سينا أخذ عن اليونان .
عزمي — ولكن ، أولاً ، هل ابن سينا عربي ؟
مبارك — نعم ، هو عربي ، ولا يقدح في ذلك أن
يكون من سلالة غير عربية .

عزمي — هذا تناقض ، ويحسن يا سيد مبارك أن
تلاحظ أن هذه مسألة ليس فيها منصور فهمي ولا لطفي
السيد ولا طه حسين !

مبارك — لا تناقض في ذلك ، لأن المدينة العربية
صبغت كل من اتصلوا بها بصبغة عربية ، فأنت لا تستطيع
أن تحكم بأن الزمخشري غير عربي لأنه من سلالة فارسية ،
مع أنه فيما أعتقد أعرف بلغة العرب من شعراء المعلقات .
عزمي — أنا لا أفهم ذلك .

فارس — هذا واضح ، يا أستاذ .

عزمي — أخشى إن قلنا مدينة إسلامية أن يخرج
غير المساميين ، وأخشى إن قلنا مدينة عربية أن يخرج من

ليسوا عرباً . فهل لكم أن نصطليح على (بلاد العربية)
أو (بلاد الاسلام) .

مبارك — المشكلة عندك يا أستاذ عزمي هي في
الألف واللام ، وذلك يذكرني بالفكاهة الآتية :

جلس رجل على قارعة الطريق فرأى به أحد العابرين
وسأله : أين الطريق إلى البغداد ؟

فدله عليه ، وبعد لحظة مرّ عابراً آخر فسأله أين
الطريق إلى بصره فدله عليه ، ثم قاله :

أدرك هذا الرجل فان عنده (ألف ولام) زائدة عن
حاجته ، وأنت إليها أحوج !

التوني — قولوا البلاد العربية ، أو بلاد العربية ،
كيف شتم ، ولا داعي لهذه الوسوسة ، ألا ترون كيف
يقولون الشعوب اللاتينية اكتفاءً برابطة اللغة ؟

هذه خلاصة موجزة لحديث استمر ثلاث ساعات .

ثم انصرفنا فدارت بيننا المحاوره الآتية :

التوني - إنه لجميل حقاً أن يكون للإنسان زوجة مثقفة مثل مدام عزمي .
فارس - أنا بالعكس أرى أن الرجل المفكر يجب أن تكون له زوجة ساذجة على نمط جان جاك روسو فقد اكتفى بزوجة من طبقة الخادمت ليظل طليقاً في حياته الفكرية .

مبارك - أنا لا أدري كيف يكون الأستاذ عزمي رأي خاص ، وهذه زوجته تبحث في كل شيء ، وتتدخل في كل شيء . ولعل هذا هو السر في أنه كثير الاضطراب : فهو يوماً وفديّ^١ ويوماً دستوري^٢ ، يوماً مستقل^٣ عن سائر الأحزاب .

توفيق - اختيار الزوج مشكلة خطيرة .

مبارك - أتريدون الحق؟ المهم هو أن يكون للرجل ثروة تساعد على الحياة الذاتية . وإني لأتمنى أن يصبح الأستاذ عزمي غنياً ليستطيع أن يظل هو هو بإرادته في جميع الظروف .

فارس — لقد كانت جلسة خطيرة وانتهت الوقت
في مثل لمح البصر .

مبارك — كنت أود تلخيص ما جرى فيها لجريدة
المساء ، ولكن الناس لم يتعودوا نشر مثل هذه الأحاديث .
توفيق — إبدأ فعوِّدْهم على ذلك ، أتظن العادات
والأذواق تتكون بنفسها ثم تظهر إلى الوجود ؟

مبارك — (وقد عاد إلى بيته) سأصف هذا المجلس
الطريف ، وسأستدرج الأستاذ عبد القادر حمزة إلى نشره ،
وأحسب أنه يكفي أن أقول له : كن أكثر تسامحاً من
قلم المطبوعات !

فان ظهرت هذه الرسالة فليعلم القراء : أن الحيلة
حازت على محرر المساء ، والسلام .

يوم بين المجانين

١ - خطر لي مرة أن أزور إحدى دور المجانين ، ثم انصرفت عن ذلك اكتفاء بما أشاهد من المجانين المتعاقلين الذين يملأون الأندية والمعاهد العلمية ، ويلتقون من التبجيل المزيف ما يعصف بما بقي في رؤوسهم من بقايا العقل والتمييز ، ولكنني ضقت ذرعاً بأولئك المتعاقلين الثقلاء ، وصممت على الترويح عن النفس بمشاهدة المجانين الذين حققت عليهم كلمة الجنون ، وأسأمتهم المقادير إلى الرضا عن حالهم في غيابات المستشفيات ، موقناً بأن الادعاء الكاذب هو شر أنواع الجنون ، وأن المصائب التي نلقاها في حياتنا ليست إلا محناً يسوقها إلينا المجانين المتعاقلون الذين اصططح الناس على وصفهم بالعقل والخبرة وصدق الظن واليقين . وياويل من ابتلي بمصاحبة ناس يتمتعون بشيء من السمعة العلمية

أو العقلية أو الإدارية ، فانهم قد يبطشون به باسم العقل
على حين لا يُغريهم بالظلم إلا مستور الجنون ا

٢ - في صباح الأحد الماضي بكرت لزيارة مستشفى
الأمراض العقلية بالخانكا إجابةً لدعوة صديق مهذب يؤدي
عمله هناك ، فأشرفتُ على أرض واسعة مساحتها خمسمائة
فدان ، قد زُينتُ سهولها الرملية بالشجر والنبات . وما
كدت أتخطى عتبة الباب حتى رأيت جماعة من المجانين
يعملون في رصف الطريق فنظروا إليّ في سخرية خفيفة
ولسان حالهم يقول : هذا رسول المجانين المتعاقبين ا ثم مضيت
حتى وصلت إلى صديقي في مكتبه فسامت عليه وعلى
إخوانه والتمسنا الإذن بزيارة المجانين من وكيل المستشفى
الطبيب الفاضل الدكتور شفيق ، ورجونا الدكتور العروسي
أن يصحبنا في هذه الزيارة ليوضح بعض ما نحتاج إليه
من أعراض الأمراض .

٣ - ابتدأنا بزيارة المجانين الذين يغلب عليهم الهياج
والاضطراب ، وقد لاحظت أنهم وُضِعوا في مكان مسور

بأسوار عالية حتى لا يتاح لهم تسلق الحيطان ، وكنت
ظننت أننا قد نحتاج إلى من يحمينا من عدوان أولئك
المهتاجين ، فلما دخلنا دهشتُ لما يسود في جوهم من
الهدوء والسكون ، وعرفت أن لحسن التغذية والنظافة
والنظام دخلاً في تهدئة الأعصاب .

٤ - أخذ الدكتور العروسي يشرح أسباب الجنون
وكان من أهم ما قاله أن للتكوين الطبيعي دخلاً في ذلك ،
وأن هناك ناساً مجنّون لأنهم لم يُخلقوا خلقة كاملة يرزقون
بها تمام العقل . وأخذ ينادي المهتاجين واحداً واحداً ليدلني
على مواطن النقص في أجسامهم ، ثم وجه نظري إلى مجنون
تختلف أذناه في التكوين اختلافاً بيناً فنظرت إليه فوجدته
شاباً مسكيناً ألوفاً يحسن الحديث فسألته : ما أتى بك
هنا ؟ فأجاب في اطمئنان : جئت لأخدم الحكومة !

٧ - وفي هذا القسم - قسم المجانين المهتاجين - رأينا
رجلاً حسن الوجه ، طويل الشاربين ، مفتول الجسم ، مجلس

في ناحية جلسة العاقل الرزين : فاقتربنا منه ودارت بيننا
وبينه المحاوره الآتية :

الدكتور العروسي - ألا تزال مصرًا على دعواك ؟
المجنون - لا فائدة من الكلام معك ، وقد صممت
على أن لا أجيب إلا إذا سُئلت بصفة رسمية ، فافهم ذلك
وأعفي من اللجاج .

الدكتور - إنك تدعي النبوة ، ولكنك لم تظهر
أي معجزة ، فكيف نُصدق دعواك ؟

المجنون - وماذا تريدون بعد ما قدمتُ من المعجزات ؟
ألم يكفِ أن أُحوَّل الانسان إلى حصان ؟

الدكتور - ليس بصحيح أنك حولت إنسانًا إلى
حصان ، لأننا لم نر شيئًا من ذلك .

المجنون - أنظر في هذه الحجرة ففيها خمسة أفراس

كانت قبل ذلك من الناس !

الدكتور - لا أرى شيئًا !

المجنون - انتظر حتى يمنحني الله معجزة إبراء العييان

الدكتور - هل تستطيع أن تحولني حصاناً .

المجنون - العفو! أنت تستحق أن تكون باشا!

الدكتور - لو كنت نبياً حقاً لاستطعت الخروج

وحدك من هذا المكان؟

المجنون - وهل استطاع يوسف أن يخرج وحده

من السجن؟

الدكتور - وهل ترى أنك في منزلة يوسف الصديق؟

المجنون - أنا خير من يوسف لأنه لم يهتم إلا باصلاح

مصر، أما أنا فأهتم باصلاح العالم كله، وسترى كيف

أحوّل الصحاري إلى بساتين فيحاء.

الدكتور - متى يكون ذلك؟

المجنون - متى خلصت منكم.

الدكتور - ومتى تخلص منا؟

المجنون - حين يقدم الحواريون لصنوع هذه

الجدران!

وهنا جذبني الدكتور العروسي من يدي فانصرفنا

والرجل يقول « مجانين والله ، وسبحان من يعلم أين العاقل
وأينا المجنون ! »

والمهم أن أقيد ما لاحظته من أن ذلك الرجل يعيش
في طمأنينة تامة مبتعداً عن بقية المجاذيب وعلى سبيل الاقتناع
التام بأنه نبي مغبون ، وأن في مقدوره أن يمنع الحروب ،
ويقوم العدل بين المخاوقات بحيث تعيش الحملان في أمن
مع الذئاب ، فليت عصابة الأمم تعلم شيئاً من أخبار هذا
النبي السجين فتنتفع بأسراره في الإصلاح بين الشعوب !

٦ - رؤية المجانين تُشعر الانسان بصدق الحكمة

التي تقول « العقل السليم في الجسم السليم » فأكثر المجانين
تنقصهم سلامة الأجسام ، وهيات أن تصل المستشفيات
إلى تعويض ما ضاع من قواهم في مختلف الظروف . ومن
علامات الجنون فيمن رأينا من المرضى الهادئين قطع أوصال
الحديث ، فقد يبدأ المجنون فيتكلم في عقل واتزان ، ثم
ينتقل فجأة إلى موضوع غريب لا يمتُّ إلى الموضوع الأول
بأية صلة ، وأكثرهم يتحدث بعبارات مقتضبة عن

الأشخاص البارزين في السياسة المحلية والدولية ، وقليل منهم من يتكلم في قوة ، إذ كان يغلب عليهم الضعف والجمود .

٧ - دفعني التطلع إلى السؤال عن عبد اللطيف عبد الخالق الذي اعتدى على المرحوم سعد باشا ، وكنت أقدر أنه يمتاز عن بقية المرضى بشيء من حضور الذهن ولكن الدكتور العروسي أكد لي أن المسكين فعل ما فعل في غير وعي ، ولما ذهبنا إليه لم نُثر اهتمامه إلا بصعوبة ، فلما حادثناه وجدت عينيه خاليتين خلواً تاماً من أمارات اليقظة ، وليس فيه إلا جسم عريض الألواح ، وسأله الدكتور لماذا اعتدى على سعد باشا فأجاب بأنه لم يعتقد على أحد وأن ذلك محض اختلاق ! وهنا أجاب بعض المجاذيب بأن ذلك وقع منه بتحريض المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش فسألت عن هذا المجنون الذي أسرع بالجواب فقيل إنه مخلوق جيء به إلى المستشفى بعد أن أُخذ متلبساً بجريمة .

٨ - وهناك مجنون يلقب بالباشا وهو شخصية
جذابة جدًا ، يتكلم الفرنسية في طلاقة وعذوبة ويكتب
العربية في إجابة وبيان ، وقد عرف الدكتور العروسي
رغبتني في محادثته فضى بنا إلى مكتب خاص لأتمكن من
أخذ ما أشاء من البيانات لأن كبرياء « الباشا » أبي عليه
محدثي إلا إن كنت موفداً في مهمة رسمية ، فأفهمته أنني
جئت خاصةً لبحث الشكايات التي قدمها إلى المراجع العليا
فتهلل وجهه وأخذ ينظم ما لديه من المكاتبات والمذكرات .
والرجل واضح الحديث ، خفيف الروح ، ليس فيه من
أمارات الجنون إلا توهمه أن الحكومة لا تحجزه مع
المجانين إلا طمعاً في ماله ، وحسداً للمستقبل الذي كان
ينتظره في تولي أحد الأقاليم المصرية أو السيطرة على بلاد
العرب ، وزعمه أنه إن مات في المستشفى فستغرم الحكومة
لورثته نصف مليون من الجنيهات !

قضيت مع « الباشا » شفاة الله نحو ساعة عرض عاي
فيها مذكرات كثيرة وخطابات مطولة بعث بها إلى رئيس

الوزراء ، وقد لاحظتُ أن أطباء المستشفى كانوا في جميع
المرات يكتبون له إفادات منظمة عن المطالب التي يقدمها
اليهم ليطمئن إلى أنه يشكو إلى سميع مجيب . وتلك طريقة
حكيمية في تهدئة مرضى العقول .

طلبت من « الباشا » أن يقدم إليّ إحدى مذكراته
فطلب مني أن أقدم له اسمي فأعطيته بطاقة الزيارة فلما
وجد اسم « زكي مبارك » صاح : لقد خدعتني ! فأنا
أعرف أن زكي مبارك ليس موظفاً في الحقانية ، ومد يده
فأخرج نسخة من السياسة الأسبوعية وفيها مقال يشتمني
فيه أحد أدباء فلسطين ، فابتسمتُ وقلت : ومع ذلك أحب
أن أظفر بأحدى مذكراتك ، فدفع إليّ مذكرة كتبت
في ورقة حمراء كانت نقافة تبغ ، وفيها الكلمات الآتية :

« ملحوظة في يوم السبت ٦ مايو سنة ١٩٣٢ وهو يوم زيارة

زوج كريمي مع شقيقي

« أما بعد فيجب أن تكون كل مصلحة مستقلة برأيها في عملها ،
منحصصة بقانونها الذي وضع لها ، خاضعة للنظام العام الذي يقضى
عليها بالاحتفاظ على النفس وعلى الشرف وعلى الحقوق التي وكل

بها الاحتفاظ عليها ، وعلى النفس وعلى الشرف من قبل ذلك النظام .
وكل تلك الزورات التي لا تتعقب بخروج المزورين مع زائرهم
ضربات مخيفة قد تقضى على النفس القضاء الأخير ، كل واحدة منها
بمثابة ضربة قوية من مقمع من حديد في يد زبون موكل يقمع
كل رأس تفتصب وتتخفى للخروج من عذابها — لا يشعر بهذا
الطبيب في المستشفى ولا المدير ولا وكيله ولا معاونه على تعذيب
النفوس وإرهاقها أخيراً وفي النهاية ، ولا الأجنبي عن المستشفى
إلا إذا لحق بهذا الفريق الذي كتب له أن يبقى فيه سنـوات
عديدة أو مدة حياته إلا إذا اتبع الطريقة المتبعة من الهائم الرائعة
وهي طريقة دفع الفداء أو قبول شروط مخصوصة لذلك ستبدو فيما
آت . كتب على ذلك الفريق البقاء في هذا المكان الذي تعتبره الميزانية
العمومية سنوياً « مستشفى » ويعتبره مديروه ووكلائه وأطبائوه
ومعاونوه وبقية خدمته سجنًا ، مؤقتًا للبعض ومؤبدًا للبعض الآخر
أو منفي مؤقتًا للبعض ومنفي مؤبدًا للبعض الآخر . . الخ .

وفي هذا كفاية . وقد أحزنتني حال هذا الرجل لأنه
مهذب حقًا لولا ما أصيب به من عارض الجنون . على
أن جنونه لا يعرف في جميع شيائله : وإنما يضطرب كلامه
من حين إلى حين ، ثم يعود إلى ربط الحديث .

وعند الانصراف رجاني أن أقابل شاهين باشا وأن

أحدثه عن قصته وأن أخبره أنه لولا طمع الحكومة في ماله لما مكث بهذا المستشفى ساعة من زمان !

٩ - قلتُ إن الأرض التي بني بها مستشفى الخانكا تبلغ خمسمائة فدان ، فلأذكر الآن أن هذا المستشفى أنشئ سنة ١٩١٥ وأن التقاليد جرت بأن يُزرع جزء كبير من تلك الأرض ، وأن يكون الزارعون هم المرضى أنفسهم ليدخل في أذهانهم أنهم أصحاب وأصحابهم ناس في الوجود . وتلك سياسة حكيمة في شفاء العقول . وقد حضرت وقت الغداء فوجدت كل مريض يعطى ثلاثة أطباق ورغيفاً وهو غذاءٌ كافٌ جداً ، ومع هذا فهناك نحو عشرة من المرضى يأكلون على حسابهم في جناح خاص وعليهم أمارات النعيم ، والغنى ينفع أصحابه في كل مكان ، حتى ليتمكن الحكم بأن الغنيّ المجنون « أعقل » من الحكيم الفقير ، فاتقوا الله في أنفسكم وحافظوا على أموالكم أيها القراء !

١٠ - بعد أن عدت من الخانكا إلى القاهرة حدثت

صديقاً أديباً بتلك الزيارة ، فلما عرف من حديثي أن أكثر

المرضى هادئون ، سأل : وما الذي يمنع من إطلاقهم ؟ والآن أجيبه بأن بقاء المرضى بالمستشفى أنفع لهم : لأن ذلك الهدوء قد يكون مصدره انتفاء أسباب الاضطراب ، فان عادوا إلى الجماعات التي نشأوا بها كان من المؤكد أن تعاودهم نزوات وأحقاد قد تردُّهم إلى أسوأ الأحوال .

يضاف إلى ذلك أن في حَجَزِ مرضى العقول مانعاً من التزاوج والتوالد ، وقد أثبتت الأبحاث الطبية أن الوراثة لها دخلٌ عظيم في تقدير أسباب الجنون : فقاما يوجد مجنون إلا وله شبيه في أهله الأقربين أو الأبعدين ، حتى ليلاحظ على زائري هؤلاء المرضى قرب أكثرهم من حالة الانجذاب .

١١ — وليست الوراثة وحدها هي سبب الخبل ، فليعلم الناس أن الأمراض الخبيثة شديدة الخطر من هذه الناحية ، وأكثر المجانين ذهبت عقولهم ضحية تلك الأمراض .
ورُبَّ إشارة أبلغ من عبارة !

١٢ — أشرت إلى أن بعض أسباب الجنون يرجع إلى

تقص الخلقه فلاُصنف إلى ذلك أني رأيت في المستشفى
شخصاً فيه سمات ظاهرة من الحيوانية : من ذلك أنه
يأكل عَبلَ الجُرُورين ويستطيبه بشهية لا تقلُّ عن شهية
الحيوان ، وهو يأكل أطراف الأشجار ، وقد حدثني
الدكتور العروسي أن ذلك الشخص يجترُّ عَبلَ الشجر بعد
مضغه بوضع ساعات كما يفعل الحيوان . وقد سألتناه بضعة
أسئلة فلم يحسن النطق فضلاً عن الجواب ، وهو في
تكوين وجهه يمثل القرد أكثر مما يمثل الانسان ،
بعكس صديقنا فلان الذي يمثل الانسان أكثر مما
يمثل القرد !

١٣ — من أغرب ما علمته أن الموظفين بمستشفيات
الأمراض العقلية يقلُّ وقوعهم في مخالب الخبل والجنون ،
وسبب ذلك فيما قيل يرجع إلى احترازهم من شمائل المجانين ،
والتطبع سبيل إلى الطبع ، والمنتظر بعد نشر هذه الكلمة
أن يطلب كثير من الموظفين نقلهم في مثل درجاتهم إلى
الخانكا أو العباسية !

١٤ — وبعد فقد كنت أظن أن ساكني البيمارستان
يختلفون اختلافاً بيناً عن الجماهير المعروفة بسلامة العقول ،
ولكني رأيت الفرق ضئيلاً جداً بين العقل والجنون ،
ورأيت الانسان في جملته متقارب الادراك ، وصح عندي
أن العبقرية كما قيل لونها من الجنون إذ كانت فناً من
الشذوذ ، والفرق بين جنون العبقرية وجنون الخبل أن
العبقرين يغلب عليهم النشاط وأن المخبولين يغلب عليهم
الهمود .

وكل الناس مجنونٌ ولكن

على قدر الهوى اختلف الجنون

والله أسأل أن يهب أولئك المساكين الذين أحزنتني
مرآهم ما يحتاجون إليه من عافية البدن والعقل . وأن
يهبنا عز شأنه معرفة أنفسنا حتى لا تهوي بنا الغفلة
والغرور إلى حضيض الجنون .

٢٠ مايو سنة ١٩٣٢

عقيق وعقيق

نشر سعادة شيخ العروبة الأستاذ أحمد زكي باشا خطاباً وصل إليه من صاحب الجلالة ملك اليمن ، ولم يتخير للنشر ما فيه من التحيات الطيبات ، بل نشره برُمَّته فجاءت فيه عبارات تفتح الشهية وتُسيل اللُّعاب ، ولست جائعاً وأنا أكتب هذا الكلام ، وإنما هو تعبير يصور ما جاء في خطاب جلالة ملك اليمن إلى سعادة الأستاذ ، فقد قال يخاطب ساكن جزيرة الفسطاط : « وسيكون مطلوبكم من العقيق واصلاً إليكم » .

ومعنى هذا أن سعادة الباشا طلب من جلالة ملك اليمن أن يرسل إليه حملاً من العقيق ، وأن ملك اليمن الذي ورت الكرم عن أبيه وأجداده سيرسل إليه المطلوب .

فهل العقيق :

وقبل أن أتكم عن العقيق وأوصافه وأنواعه أبدأ

فأذكر كيف خَلَصْتُ بفضلِه مرة من ورطة الامتحان : فقد كنت طالباً بالجامعة المصرية ، وكان المرحوم استاميل بك رأفت غفر الله له يعتقد أنني قليل المحصول من العلم الذي كان يدرسه وهو الجغرافيا ووصف الشعوب ، واتفق له أن أسقطني في الامتحان مرتين ، وكنت أستحق ذلك : فقد سألتني مرة عن حدود مصر الطبيعية في الامتحان فقلت : إن حدود مصر الطبيعية من الجنوب هي منابع النيل ، فغضب ، فقلت له : تلك هي الحدود الطبيعية : وهي الحدود التي لا يجب الانجليزية أن تعرفها على وجهها الصحيح ! وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٢٠ بعد أن قضيت نحو سنة في الاعتقال . ودخل في روعي أن حدود مصر الطبيعية هي ما كان يسميه المرحوم سفد باشا « من منبع النيل إلى مصبه » . وكان رأفت بك لسوء حظي يرى أن ما يُحتجُّ به في الجرائد غير ما يجاب به في الامتحان !

وفي العام التالي سنة ١٩٢١ كنت أؤدي امتحاناً عند رأفت بك ، وكان الدكتور منصور فهمي عضواً في اللجنة .

وكان يجب أن يخاصني من برائن ذلك الأستاذ ، وجاء ذكر وادي العقيق في الامتحان ، فتدخل الدكتور منصور وقال : حدثني يا شيخ زكي ، أتذكر شيئاً مما قال الشعراء في وادي العقيق ؟ فرأيت من الحزم أن آخذ بتلايب تلك الفرصة السانحة واندفعت أتحدث عما قال الشعراء في وادي العقيق والدكتور منصور يشجعني على الإطناب ، وظل رأفت بك ينظر ويعجب كيف أتيت هذه الفرصة لطالب ثرثار يعرف كل شيء إلا مادة الامتحان ! وكانت مدة الاختبار ثلاثين دقيقة انتهت نحو ثلثها وأنا أبدأ وأعيد في الناحية الوجدانية من أخبار وادي العقيق ! وخلصت من يد الأستاذ اسماعيل بك رأفت ، ولولا لطف الدكتور منصور ويمن العقيق لاغتالي ذلك الرجل الذي كانت تضرب بقسوته الأمثال .

ماهو العقيق ؟

هو خرز أحمر يكون باليمن ، ومنه سيكون مطلوب زكي باشا ، وبسواحل رومية منه جنس كدر كماء يجري

من اللحم المملح (وشرح هذه النقطة مما سيتفضل به
الأستاذ محمد مسعود) وفيه خطوط بيض خفيفة . وقد دخل
العقيق في الخرافات الطريفة فذكروا أن من تحتم به
سكنت روعته عند الخصاص ، وانقطع عنه الدم من أي
موضع كان .

ومن أطايب الخرافات ما كنا نسمع من أن الظريف
هو من تحتم بالعقيق ، وروى نونية ابن زيدون وتمذهب
بمذهب الشافعي . وقد كنت حيناً كذلك ثم تمحضت
فذهب مني ثلث الظرف ، ثم تزعت خاتم العقيق فذهب
الثلث الثاني ، ونسيت مع الأسف نونية ابن زيدون
فذهب الظرف كله ، وعدت لا أصالح إلا المناوشة خلق
الله من الكتاب والشعراء المؤلفين .

الرعة والعقائ

الأعقة جمع عقيق ، والعقائ كذلك جمع عقيق ،
ولكن لا يستوي الجمعان ، فالعقيق يُجمع على عقائ حين
يكون دالاً على الخرز الأتمر الذي يتختم به الظرفاء ،

ويجمع على أَعْقَة حين يكون بمعنى الوادي ، والعرب
تقول لكل مَسِيلٍ ماءٍ شَقَّه السيل في الأرض فأنهره
ووسَّعه عقيق ، فالأعقة هي الأودية ، ومن ذلك قول

الشاعر :

تربَّعُ لسَيْلي بالمصْبِغِ فالحمى

وتحف من بطن العقيق السواقيا

وعقيق المدينة مشهور ، وفيه يقول الشاعر :

إني مررت على العقيق وأهله

يشكون من مطر الربيع نُزُورا

ماضراً كم إن كان جعفرُ جاركم

أن لا يكون عقيقكم ممطورا

وهناك عقيق آخر يدفع سيله في غوري تهامة ،

ويظن ياقوت أنه المعنيُّ بقول أبي وجرة السعدي :

يا صاحبي انظرا هل تؤنسان لنا

بين العقيق وأوطاس بأحداج

وهو الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال :

لو أهتوا من العقيق كان أحب إليّ .

المقيمى اليماني

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن العقيق اليمني .
وهم يريدون به بعض الأقطار النجدية . لأن أرض هوازن
في نجد مما يلي اليمن : وإياه عنى الفرزدق حين قال :

ألم تر أني يوم جوت سويقاً

بكيت فنادتني هنيئاً ما ليما

فقات لها إن البكاء أراحة

به يُشتفى من فخر أن لا تلاقيا

فني ودّعينا يا هنيئاً فاني

أرى الراكب قد ساموا العقيق اليمانيا

وفي العقيق اليماني يقول الشريف الرضي :

أقول لراكبٍ رائحين لعابكم

تحلون من بعدي العقيق اليمانيا

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى

ونجداً وكنبان اللوى والخطايا

ومرؤوا على أبيات حيِّ برامة

فقولوا لديغٍ يبتغي اليوم راقيا

عَدِمْتُ دوائي بالعراق فر بما

وجدتم بنجدٍ لي طيباً مداويا

عقبي المدينة

وفي عقيق المدينة يقول سعيد بن سليمان يتشوق إليه

وهو في بغداد ويذكر غلاماً له اسمه زاهر ابتلاه الزمن

بمحدثته بعد فراق الأحباب :

أرى زاهراً لما رأني مُسَهِّداً

وأنّ ليس لي من أهل بغداد زائرٌ

أقام يعاطيني الحديث وإننا

لختلفان يوم تبلى السرائرُ

يحدثني مما يجمعُ عقله

أحاديث منها مستقيمٌ وحائرٌ

وما كنت أخشى أن أراني راضياً

يعلني بعد الأوبة زاهر

وبعد المصلي والعقيق وأهله

وبعد البلاط حيث يحلو التزاور

إذا أعشبت قريانه وترينت

عراص بها نبت أنيق وزاهر

وغنى بها الذبان تغزو نباتها

كما واقعت أيدي القيان المزاهر

وقد عاد العقيق على الزمن اسماً شعرياً يتحدث عنه

الشعراء من حيث لا يعرف أحد أي عقيق يقصدون :

وانظر قول بعض الأعراب :

أيا نخلتني بطن العقيق أمانعي

جنى النخل والتين انتظاري جنا كما

لقد خفت أن لا تنفعاني بطائل

وأن تمنعاني مجتنى ما سوا كما

لو أن أمير المؤمنين على الغنى

يحدث عن ظليكما لا عطفنا كما

وقال البحثري :

قد أردتك الدموعُ يوم تولت
ظعنُ الحيِّ ما وراءَ الدموعِ
عبراتٍ مِاءَ الجفونِ مرَّتها
حرقُ للفراقِ مِاءَ الضلوعِ
فرقةٌ لم تدعْ لعينيَّ محب
منظراً بالعقيقِ غير الربوعِ

وقال السريُّ الرفاء :

مررنا بالعقيقِ فكِّم عقيق
تفرق من محاجرنا فذا
ومن مَغْنَى جعلنا الشوق فيه
سؤالاً والدموع له جوابا
وفي الكلل التي غابت شمس

إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهن أعباء التصابي
ولم أحمل من السلوان غابا

ولو بَعُدْتُ قِبابَكَ قَابَ قَوْسٍ

من الواشين حين القبابا

بين نجد والعقيق :

وقد طار الشعر كل مطار بالحديث عن نجد والعقيق .

وإن لم يكن نجد ولا عقيق ، وأروع ما قرأنا في الارتياح

إلى هذين الوطنين قول أعرابية كانت تسكن عقيق

المدينة ثم حَمَلَتْ إلى زوجها في نجد :

إذا الريح من نحو العقيق تنسَمَّتْ

تجدد لي شوق يناعف من وجددي

إذا رحلوا بي نحو نجدِ وأهلهِ

فحسبي من الدنيا رجوعي إلى نجد

كلمات للدرس والتحقيق

لما صودر كتاب تاريخ بغداد حزننا حزناً شديداً ،
وكان أول ما فكرت فيه نسختي التي لم أتسلم منها إلا جزءاً
واحداً مع أنني دفعت من ثمن الكتاب مبلغاً يقسم على ٢
وعلى ٤ وعلى ١١ ولناشر الكتاب أن يذكر هذا حتى
لا يضيع على الموقع فيه أدناه ما أنفقه من المال ا
ثم أخذت أفكر في السبب الذي من أجله صودر
الكتاب وهو إثبات ما قيل في هجاء أبي حنيفة وتذكرت
أنني كنت جمعت أشياء كثيرة مما هوجم به الشافعي رحمه
الله استعداداً لكتاب شرعت في وضعه نقداً لمذهبه ،
وكان ذلك يوم نشرتُ كتاب (الأخلاق عند الغزالي)
الذي استقبله علماء الأزهر الشريف استقبالاً يثبط العزائم
ويشل النشاط ، وقد اتفق مع الأسف أنني غيرت ذلك
الميدان وانصرفت بعض الانصراف عن دراسة التشريع

الاسلامي ، وأقبلت كل الاقبال على دراسة الأدب الخالص
حيث لا نصطدم إلا قليلاً بعقائد الناس .

واليوم أريد أن أدون بعض الملاحظات بمناسبة كتاب
تاريخ بغداد . وأذكر أولاً أن أظهر مجمدة عُرف بها
الاسلام هي التسامح في معارضة المفكرين . والذي يراجع
كتاب «الاسلام والنصرانية» لفقيه العلم والدين الشيخ محمد
عبده يرى أن المؤلف حصر هجومه على النصرانية في سرد
ما عُرف عن النصارى من معارضة الآراء والمعتقدات
وإحراقهم لكتب الفلسفة وتشتيتهم لجماهير المفكرين .
وفي مقابل ذلك اهتم المؤلف بإظهار سماحة الاسلام وأهله
في معاملة أحرار الفكر والعقل والوجدان .

فاذا استطاع اليوم أحد أن يقاوم المؤلفات والمؤلفين ،
وأن يستعين الحكومة في مصادرة ما لا يروقه من المطبوعات
ومضايقة من لا يرضى عنه من الباحثين ، فسيفتح للاسلام
تاريخ جديد في العدوان على الحرية الفكرية لا يقاس به
ما عرف عن النصرانية في قديم الزمان ، لأن النصرانية

كانت تمتدني على أحرار الفكر يوم كانت أوروبا تسمه في
غيّ الهمجية ، ولا كذلك نحن اليوم ، لأننا نعيش في
القرن العشرين ، عصر العلم والنور فيما تذكر الجرائد
والمجلات !

وأذكر ثانياً أن هذا الذي نشاهده قد يكون دليلاً
على انحطاط الشرق في هذه الأيام ، لأن الاسلام لم يتسامح
مع أحرار الفكر إلا حين كان الشرق عزيزاً قوياً ، ولم تعتد
النصرانية على أحرار الفكر إلا يوم كان الغرب جاهلاً
ضعيفاً . وعلى هذا الأساس لا يكون للديانات دخلٌ في
تقدير الحرية الفكرية ، وإنما المسألة ترجع إلى العلم والجهل .
فلينظر قومٌ أين يضعون أنفسهم بعد هذا البيان !

وأذكر ثالثاً أن من الخير كل الخير أن نعرف
ما نسب إلى بعض الأئمة من الهفوات : لأنهم يتكلمون
باسم الدين ، مع أنه قد يتفق أن يضع أحدهم القاعدة وهو
مأخوذ من حيث لا يشعر بحالته النفسية . ومثال ذلك
ما اشتهر عن أحد المجتهدين من تحليل النبيذ ، فهو في رأي

لا يعبر في هذه المسألة عن الشرع الشريف ، وإنما يعبر
عن حالته النفسية ، فقد كان عرف الشراب في صباه ،
وكانت له مجالس حفظها عليه حماد عَجْرَد حين قال ، وقد
تكدر ما كان بينهما من صفاء :

إن كان نُسْكُك لا يَتِمُّ بغير شتمي وانتقاصي
فاقعد وقم بي حيث شئت مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكَّيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام نشرها ونسكرك من أباريق الرصاص
وأرجو القارئ أن لا يشتط في مؤاخذتي على هذا
التأويل ، لأني مقتنع بأن بعض الشرعيين يأخذون كثيراً
من أهوائهم الشخصية وهم يضعون القواعد الاجتماعية .
ومن الخير أن نرجع أغلاط الأئمة إلى مذاهبهم في فهم
الحياة قبل أن نرجعها إلى الشرع الشريف .
مثال آخر :

الامام الشافعي يرى « أن لمس المرأة عمداً أو سهواً
ينقض الوضوء » وهذه مسألة فرغ من بحثها الشافعية ،

وأستاذنا الشيخ الظواهري يعرفها جيداً . فهل يسمح
القارىء أن أدله على السبب الذي من أجله تشدد الشافعي
في التحرز من لمس المرأة ؟

الذي أراه أن ذلك يرجع إلى حالة نفسية عند الشافعي
رحمه الله ، فقد كان يعتقد أن الرجل ضعيف جداً بجانب
المرأة ، وأنها خليقة بأن تنقله من الهدى إلى الضلال .
وقد اتفق له رحمه الله حين انتقل من العراق إلى مصر
أن رأى المرأة المصرية من أخطر أسباب الغي والفتون ،
وأثر عنه أنه قال « من لم يتزوج بمصرية فليس بمحصن »
وقد سرى رأيه في البيئات المصرية إلى هذا اليوم . وأهل
الريف في المنوفية إذا أرادوا الخط من شأن امرأة وصفوها
بأنها لا تنقض الوضوء ، يريدون أنه لا أنوثة فيها على
الإطلاق .

كيف نشأت المذاهب ؟

والفصول التي قبل حذفها الخامجي افندي من تاريخ

بغداد قد تكون من أظهر ما يشرف المسامير ، لأن النقد
الذي وجه إلى الأئمة يدل على أنه كانت هناك حياة عقلية
وكان هناك ناس لا يقبلون كل ما يقدم إليهم من أصول
التشريع . وأبو حنيفة قوبل بمقابلة عنيفة في حياته .
وعُورض مذهبه بعد وفاته ، وأدق ما هوجم به قول حفص
ابن غياث وقد سئل عنه : « أعلم الناس بما لم يكن .
وأجهل الناس بما كان » يريد أنه كان كثير الاهتمام بوضع
الفروض والاحتمالات . ولو تأملنا قليلاً في العداوات التي
ثارت بين أصحاب المذاهب لرأيناها كانت جزيلة النفع .
وأظهرها ما كان بين الحنفية والشافعية : فقد حملت
أتباع المذهبين على التعمق في البحث والاستقراء . وعادت
على الفقه الإسلامي بالنفع الجزيل . وأمتع الساعات في
الترويح عن النفس هي الساعات التي نقضيها في مراجعة
الخلافات المذهبية حيث تتناحر الآراء ، وتتعاول العقول .
والأدب العربي من أغنى الآداب في هذا الباب : ففي
منافرات النجاة والفقهاء والمتكلمين متع عقلية لا تقف

يجدها عند من يفهمون النحو والفقہ والتوحيد .

وهنا مسألة لا مفرَّ من عرضها على القراء : وهي
الأسباب التي قضت لبعض المذاهب بالنباهة وقضت على
بعضها بالتحول . ومن المحزن أن نقرر أن القوة كل القوة
كانت للسياسة والمال : فأظهر الأئمة لم يكن أكثرهم
عاماً ، ولكن كان أكثرهم مالاً وجاهاً ، وإن شئت فقل
كان أظهر الأئمة هو أكبرهم منزلة عند السلطان .

ومن المومع أنه كان للمصريين إمام عظيم ضاع علمه
وفقهه لقلة الجاه والمال : وهو الليث بن سعد الذي ولد في
قلقشنده بالقرب من قليوب سنة ٩٤ وتوفي سنة ١٧٥ وقد
وصفه الامام الشافعي بقوله : « الليث أفقه من مالك إلا
أن أصحابه لم يقوموا به »

وهؤلاء « الأصحاب » نحن نعرفهم : فهم التلامذة

الذين لا يراعون أستاذهم إلا إن كان ذا جاه وذا مال !

أبو مقام مالك ؟

وبمناسبة هذا الكلام نذكر - والحديث ذو شجون -
أننا شهدنا اثنين يتنازعان مرة في المفاضلة بين الشافعي
ومالك ، إلى أن قال أحدهما وقد حَمَى الوطيس : كيف
تفضل مالكا على الشافعي مع أن للشافعي (مقاما)
نعرفه وليس لمالك (مقام) معروف ؟

والمقام هنا هو « القبة » العالية التي يستريح في ظلها
رفات الشافعي محمد بن ادريس . والناس لا يُذكرون في مصر
إلا إن أُقيمت فوق قبورهم القباب !

وكنت قرأت منذ سنين رسائل المرحوم مصطفى كامل
إلى المدام جوليت آدم ، ومنها رسالة بمناسبة منحه رتبة
الباشوية ، وهي رسالة فيها فرح وابتهاج ، وقد رأى رحمه
الله أن من الصغار أن يفرح بالرتب والألقاب : ولهذا علل
فرحه في ختام تلك الرسالة بأن للرتبة قيمة عظيمة في
تقريبه إلى القلوب : لأن أهل مصر قد يتشيعون بلا رأي

ولا بصيرة إلى أصحاب الرتب والألقاب !

وللقارئ أن يجيب بدون موارد : أ كان مصطفى

كامل باشا يقابل بما قوبل به يوم أسس الحزب الوطني لو

كان (مصطفى افندي كامل) ؟

إن الدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، ويا ويل من

جمع بين غنى الرأس وفقر الجيب في أرض يُقدَّم فيها أغنياء

الجيوب على أغنياء الرؤوس !

٥ أغسطس ١٩٣٢

مؤتمر اللغات الحية في باريس

حال المدرس المصري بين مدرسي العالم —
غيرة الألمان على لغتهم . شرح النصوص
وإغفاله في كاية الآداب والمدارس الثانوية
— أهمية الفنونغراف في تعليم اللغات

خمسة أيام من أيام العلم والتعليم شهدناها في السوربون ،
حيث انعقد المؤتمر الدولي لمدرسي اللغات الحية ، ذلك المؤتمر
الذي اشتركت فيه أربع وعشرون أمة من الأمم التي تفهم
الواجب في تربية الأبناء .

خمسة أيام رأينا فيها حماسة المدرسين وغيرتهم ،
فتذكرنا المدرس المصري الذي يقضي حياته في التضجر
والتبرم دون أن يفكر في إصلاح جديد . وللمدرس المصري
عذره فهو يعيش في بيئات مسمومة لا يسلم من شرها
إلا الجامدون وأهل الخمول .

ولكن أهكذا تكون الحياة ؟ وكيف يحيا من يشعر
في كل لحظة بأنه مأجور . وتحمله معاملات الحكومة

ومعاملات الجمهور على الاقتناع بأن حظه من أسوأ
الحظوظ ؟

ليس عجيباً أن يجمد المدرسون المصريون ، ولكن
العجيب أن نرى في الأمة ناساً يُقبلون على وظائف التعليم
مع ما يرونه من هوان المعلمين في بلد يزن الرجال بما
(يقبضون) لا بما يحسنون !

غير أنه في مثل هذه الظروف النكداء تُرجى شهامة
الفتيان من أبناء وادي النيل . فمن العار أن يستمر المدرسون
المصريون على اختيار السلامة والسكون ، فعهدى بهم
يُودون أعمالهم بغير قلب ، ثم يعودون إلى منازلهم ليهجعوا
ساعة أو ساعتين ، ثم يخرجون إلى القهوات ليقص بعضهم
على بعض ما وقع من غفلة الناظر ، وسقطات التلاميذ !
من العار أن يظل المدرسون الأقوياء أقلية في المدارس
المصرية .

ولكن أي أقلية ؟ أقلية مضطهدة تُرمى من الزملاء
بالحرق والتهور وحب الظهور ، وعلى هذا النمط تجري الحياة

في مدارسنا الخاوية ، ومن النادر أن تقرأ لمدرس كتاباً جيداً ، أو بحثاً طريفاً ، أو مقالة شائقة . وكيف والمسكين قد درج على الخمود والهمود ، ولم تبق له أية شهوة للظهور بمظهر المفكر أو الباحث أو الخطيب ؟

هذه كلمة حق ، وسيقرؤها إخواننا الأفاضل وهم يتسامرون في القهوات ، وسيتعاهدون على تجديد أنفسهم وإحيائها ، ولكنهم سيذكروننا بشرّ حين يعودون إلى مدارسهم فيجدون الناظر هو هو بعينه كتلة من التاج تعجز عن إذابتهم . شمس الصيف ، وبيرون التلاميذ هم أنفسهم لم يتغيروا ولم يتبدلوا ، ولم يُنفخ فيهم روح جديد ، لأنهم لم يجدوا حتى اليوم من يحبب إليهم الجو المدرسي ، ويبعث فيهم الشوق إلى الدرس والتحصيل .

إني لأعرف ما أتم عليه أيها المدرسون المصريون ، لأنني زميل لكم قاصي بعض ما قاسيتم ، وعاني بعض ما عانيتم ، فلا تضق صدوركم لعنف هذه الكلمات ، ولكن اذكروا أنكم مسئولون أمام الوطن والضمير

والتاريخ عن هذه الحال ، فعليكم أن تشحنوا عزائمكم
وأن تواجهوا المهنة بقلوب صبارة ، ونفوس راضية ، وأن
تُرحضوا تلك الصخرة من طريقكم ، صخرة الموت التي
وضعها من يرتاعون كلما ظهر في أفق التعليم نجمٌ جديد .

بيدكم لا بيد رؤسائكم أن تصبح المدارس جنات عالية
نزع الله ما في صدور أهلها من الحقد وصيرهم إخواناً
أصفياء ، بيدكم أتم أن تعود المدارس أحب إلى الطلبة
من منازلهم وملاعبهم وملاهيهم ، وإذ ذاك يعود الجو
الصالح جو البر والمنفعة والإخاء .

لقد اختبرت هذه المهنة وشربت ما فيها من علقم
وصاب ، فقد اشتغلت بتدريس اللغة الفرنسية عشرة
أعوام ، وعرفت جو التدريس بالمدارس المصرية والأجنبية
من ابتدائية وثانوية وعالية ، ودرست أخلاق الطلبة من
جميع الأجناس ، وانتهيت بعد الخبرة الطويلة إلى النتيجة
الآتية :

« أشقى الناس جميعاً في مهنة التدريس هو المدرس

الكسلان »

فالكسل يا حضرات الزملاء هو عدوكم المبين : هو
الذي يُطمع فيكم الطلبة ، ويبسط فيكم السنة المتقولين
وهو الذي يشعركم بأن مهنتكم ثقيلة . وبأن حياتكم
ضائفة ، وبأن وجودكم عدم من الاعداء : وهو الذي
يُشمت فيكم أعداءكم حين تظهر نتائج الامتحانات العمومية
ويكشف لهاونكم للناظرين .

والاخلاص وحده هو صديق المدرس ، هو الذي يثبت
فيه الإقدام والمثابرة ، ويمثل الطلبة لعينيه في صورة
الأطفال المحبوبين ، ويجعل له في جدران المدرسة وأساسها
وأدواتها وكل مكان فيها باباً من أبواب المتعة الروحية التي
شقي في البحث عنها طلاب السعادة من لدن آدم إلى اليوم .
والمدرس الخالص هو أجدر الناس بالظفر في ميدان

التعليم ، وهو العدة والذخيرة للوطن العزيز .

تذكرت المدرس المصري وأنا أشهد أعمال مدرسي اللغات الحية وهم يتساجلون الآراء في السوربون . وقد حضروا من أقطار مختلفة ومتباعدة ، ويبد كل منهم تقرير عن ملاحظاته واختباراتهِ التعليمية . وقد استمرت تلك المعارك الفكرية خمسة أيام كانت من أنفس ما شهدنا في باريس . ومما يُذكر للتنويه بمحرص بعض الأساتذة على قوميتهم أن المؤتمر قرر أن تكون الخطب والمناقشات باللغة الفرنسية ، وإن يجهل الفرنسية أن يخطب بالإنجليزية أو الألمانية أو بلغته القومية ، وقد قبل المؤتمر ذلك ما عدا المدرسين الألمان ، فقد أصرّ خطبائهم على أن يتكلموا بالألمانية ثم يخصصوا ما قالوه بالفرنسية ، وبذلك فرضوا أن تكون الألمانية قريضةً للفرنسية في قلب السوربون . وفي ذلك عبرة لمن ينسون قوميتهم ولغتهم حتى في بلادهم ، وفي ذلك فناءؤهم لو كانوا يعقلون .

كان أهم ما شغل المؤتمر مسألة شرح النصوص الأدبية .

فما شرح النصوص هذا ؟

إن شرح النصوص يا حضرات القراء هو أهم ركن في
تدريس اللغات . وهو فن مجهول في مصر ، وبخاصة عند
مدرسي اللغة العربية . وقد يكون أخطر مقتل في كلية
الآداب بالجامعة المصرية هو إغفالها لشرح النصوص .
واعتمادها على طريقة المحاضرات .

ومن الغريب أن كلمة (محاضرة) لها في مصر معنى
رنان يُرهِف له الأسماع والقلوب . والمدرس في الجامعة
عندنا لا يرضيه أن يقال إنه ألقى (درساً) لأن كلمة (درس)
كلمة صغيرة في بعض الأذهان ، فن الواجب أن تكون
أعمال التدريس كلها محاضرات وبذلك تُقلب كلية الآداب
إلى سوق عكاظ جديد ! والطلبة يستمعون في صمت مُبْهِم كأن
على رؤوسهم الطير ، أو لا أدري ماذا ، لأنهم يستمعون
محاضرة والمحاضرة تتطلب خشوعاً دونه خشوع الصلاة .
فإن رأيتم طلبة كلية الآداب يجهلون أسرار اللغة
العربية فاذكروا أن الأساتذة هم الجناة . لأنهم يُشغلون
بالطنطة الفارغة التي تمثل في مدرس يتكلم وطلبة يسمعون .

ولو أنهم أعدوا العدة لشرح النصوص على الطريقة الأوربية أو على طريقة الشيخ سيد المرصفي الذي لم يعرف في دنياه غير حي سيدنا الحسين لأمكن أن يكون للطلبة ذوق مهذب في فهم أصول الآداب .

والمعروف اليوم أن الأساتذة الفرنسيين هم أعرف الناس بشرح النصوص ، وهم يتفاضلون في ذلك كما يتفاضل غيرهم في الطريقة العقيمة طريقة المحاضرات ، وقد قال لي أحد أساتذة السوربون مرة : يكفي فرنسا مجداً وعظمة أن مدرسيها يمتازون من بين الناس باجادة شرح النصوص ، فسألته : وما هي قيمة هذه الطريقة ؟ فأجاب : قيمتها ترجع إلى التحديد .

التحديد ؟ يا عجباً ! وما قيمة هذه الكلمة ؟

ألا فليعلم القراء أن الفرنسي مجنون بشيء اسمه Précision وهو التحديد الدقيق في المعاني والألفاظ والأغراض ، وهذا لا يمكن الوصول إليه في اللغات إلا عن طريق شرح النصوص . وللقراء أن يعرفوا بعد ذلك ، إن أهمتهم المقارنة ، أن

وزارة المعارف المصرية تسلك في تدريس الأدب بالمدارس الثانوية طريقة تذكّر بالعقم المتبع في كلية الآداب ، فهم يفرضون على الطلبة أن يستظهروا كتاباً في تاريخ الأدب من أقدم العصور إلى اليوم الحاضر ، وهذا الكتاب كان اسمه أولاً « الوسيط » واسمه اليوم « الجمل » ومن العجيب أن الدكتور طه حسين من الذين اشتركوا في هذه الجريمة الشنعاء .

أقول جريمة شنعاء ، وأنا أعرف جيداً أن الدكتور طه حسين يقرأ رسائله حرفاً حرفاً ، وأعرف أنه سيفضب . ولكني موقن أنه مقتنع بأن ما أقوله حق .

وعذر الدكتور طه أنه لم يدرّس يوماً في مدرسة ثانوية ، ولكن ما عذر الشيخ السكندري والشيخ الجارم في الموافقة على مواجهة الطلبة بما لا يفهمون من تاريخ الآداب ؟

لقد اشتغلت زمناً بالتدريس في المدارس الثانوية . وعرفت استعداد طلبة الكفاءة وطلبة البكالوريا ، وأستطيع

بعد التجربة أن أقول إن الذين قرروا منهج تدريس الأدب بالمدارس الثانوية يخذعون الناس : لأن الطالب في التعليم الثانوي لا يسمو ذهنه إلى فهم تطور العصور الأدبية ، وإنما يحتاج إلى تذوق الأدب ، وهذا لا يجيء إلا عن طريق شرح النصوص .

وقد حدثت الدكتور طه عن كتاب « الجميل » الذي وضعته بمساعدته لجنة في وزارة المعارف ، وقلت له إنه كتاب غير صالح : لأنه يحدث الطلبة فيما لا يدركون . فقال : لقد يسرناه كل التيسير ، ومع هذا فأين هو في مادته من كتاب دوميك في اللغة الفرنسية ؟

وهنا قلت للدكتور : إن كتاب دوميك في الفرنسية أوضح من كتاب الجميل في العربية ، مع أن الفرق بين الشباب الفرنسي والشباب المصري مأموس ، لأن الشبان الفرنسيين من طفولتهم يغشون المسارح ، وتاريخ الأدب الفرنسي في الأغلب يرجع إلى النوع المسرحي ، فال مؤلف الذي يؤرخ الأدب يذكر الشبان بما شهدوا بأعينهم منذ

كانوا أطفالاً . أما الأدب العربي فيرجع في جلته إلى الخطب والرسائل والقصائد ، فمن الواجب أن يتعرف الشبان إلى هذه الأنواع قبل أن يدرسوا تاريخها في كتاب .

وجملة القول أن أعضاء المؤتمر خصوا مسألة شرح النصوص بجانب عظيم من مناقشاتهم وخطبهم ، وكان أهم ما قيل فيها خطبة لأحد الأساتذة الألمان : تلخص في أن المهم ليس في شرح الألفاظ وتحديد المعاني فقط ، وإنما ترجع أهمية شرح النصوص إلى قدرة المدرس وبراعته في حمل الطلبة على تذوق أسرار الألفاظ والحروف متصلة بأغراض الخطباء والشعراء والكتاب ، ويمكن المدرس وهو يشرح النص الأدبي أن يبين لتلامذته كيف تكون هندسة التراكيب من الوجهة النحوية .

هذا كلام يقال في باريس وفي القرن العشرين ، فمن يبلغ عبد القاهر الجرجاني في قبره أن أناساً يقولون بمثل ما كان يقول في شباب الزمان ؟ أم من يبلغ هؤلاء المؤتمرين أن

مؤلفاً عربياً سبقهم بهذه الآراء منذ أكثر من تسعة قرون ؟

وجاءت بعد ذلك مسألة الفنوغراف (الحاكي) وأهميته في دراسة اللغات ، وقد انقسم المؤتمر إلى فريقين : فريق يرى أن للحاكي المكان الأول في تعويد الطلبة على صحة النطق والتثبيت من مخارج الحروف ، وأكبر المتحمسين لهذا الرأي الأستاذ ستالينج مدرس اللغة الفرنسية بالسويد ، وقد طبع نشرة بين فيها طريقته ، ووزعها على الحاضرين ، ومن رأيه أنه لا يكفي أن يكون في كل مدرسة حاك واحد ، بل يجب أن يكون لكل تلميذ حاك في بيته مزوداً بأكثر عدد ممكن من الاسطوانات . وقد ضحك الحاضرون لهذا الفرض .

والفريق المعارض يرى أن أهمية الحاكي ثانوية ، لأنه ميت : إذ كان الطلبة لا يستمعون إليه بشوق أكثر من عشر مرات . والأهمية الحقيقية تنحصر في نشاط المدرس

وحلاوة إلقائه ، وتذوقه معاني ما يُلقى على التلاميذ .
وقد أخذت الأصوات ، فوافق أكثر الحاضرين على
أهمية الفنوغراف ، وقرروا أن المعلم مسئول عن بعث
الروح في مختلف الاسطوانات ، لأنه لا يجمل بالطبع أن
يترك الحماكي يصيح بدون أن يثير في نفوس الطلبة روح
التشوق إلى متابعة الإلقاء .

وأذكر مع الأسف أن مدير اليسييه فرانسيه بالقاهرة
وزع على المدرسين في العام الفائت منشورا يلفتهم فيه إلى
الفنوغرافات التي أعدها لمعونة الأساتذة ، وطالب منهم أن
يقدموا إليه بياناً بالاسطوانات الصالحة . فوجد مدرسو
اللغة الفرنسية والانجليزية بغيثهم . أما أنا فظلمت أُنحِت
عن اسطوانة عربية واحدة تصلح لتعليم الإلقاء فلم أجد .
لأن الاسطوانات العربية أكثرها باللغة العامية وفي
موضوعات تافهة لا تصلح إلا لتسلية الفارين . وما كان
منها باللغة الفصيحة فأكثره في موضوعات غرامية وهي
لا تصلح للدرس . لأن ذلك لو وقع لأصبحت حجرات

الدراسة ميداناً للهدر والإسفاف .

فهل لنا أن نقترح على وزارة المعارف المصرية أن تملأ نحو خمسين اسطوانة من متخير الخطب والقصائد ؟ إنه ليوجد بين مدرسي اللغة العربية من يحسنون الإلقاء ، وفي معهد التمثيل كذلك شبان مثقفون يستطيعون أداء هذا الواجب ، وفي تنفيذ مثل هذا الاقتراح توحيد لكيفية الأداء في الأقطار العربية .

إن وزارة المعارف المصرية تتبع خطوات الأوربيين في ميادين كثيرة ، فلنتبعهم أيضاً في هذا الميدان . ولعلها تجيب هذا الاقتراح ، ولو ترضيةً لمدرس مصري يسوءه أن يتخلف مواطنوه في حومة النضال .

وقد تكلم المؤتمر كذلك عن المذيع وأهميته في ربط الطلبة بأهم المراكز الفنية التي تديع أشهر الخطب والمداومات والمحاضرات ، وقد يصعب أن نقترح على وزارة المعارف أن تهيب للطلبة نصيباً من ذلك ، فلنكتف بالملاحظات السالفة ، لأن تحقيقها سهل المنال ، إن صحت العزائم القلوب .

باريس في ١٢ أبريل سنة ١٩٣١

فهرس

صفحة	
١٧	شهاد الفاقة والاعتراب
٣١	عمدة ليون
٤٣	أصدقاء الجامعة المصرية
٤٧	عند المدير السابق للجامعة المصرية
٦٧	صور طريقة لأحاديث الناس
٨٥	في ظلال الذكريات
١٠٠	المدرسون والطلاب في شهر أبريل
١١٣	شواطف الاسكندرية بين الهدى والضلال
١٢٤	مضبطة مجلس الشعراء
١٤٣	عند حلبي باشا
١٥٦	لمحات من حياة شوقي
١٧١	لجنة إحياء الأدب العربي
٢٠٢	تسعة أيام في بغداد
٢٦٨	في مجلس سمر
٢٨٤	ذكريات صحفية
٢٨٩	وصف مليحة حولاء
٢٩٢	سراقات شوقي

٣٩٩	أفانين من الأحاديث
٣١٢	يا بحر يوسف
٣١٨	الاستهداف للقتل في سبيل النقد الأدبي
٣٣٣	أحمد افندى يتزوج
٣٤٩	الأدب بين الفطرة والذكاء
٣٦٣	ويصا واصف
٣٧٤	الأخلاق عند الضعفاء
٣٧٨	الآداب الباقية
٣٨٩	في فقه اللغة العربية
٣٩٣	حجازيات الشريف الرضى
٣٩٩	ملاحظات أدبية ولغوية
٤٠٨	آراء أحمد افندى في الأدب الحديث
٤٢٤	مناوشات
٤٣٦	مجلس سمر في باريس
٤٥٦	يوم بين المجازين
٤٧٠	عقيق وعقيق
٤٨١	كلمات للدرس والتحقيق
٤٩٠	مؤتمر اللغات الحية في باريس